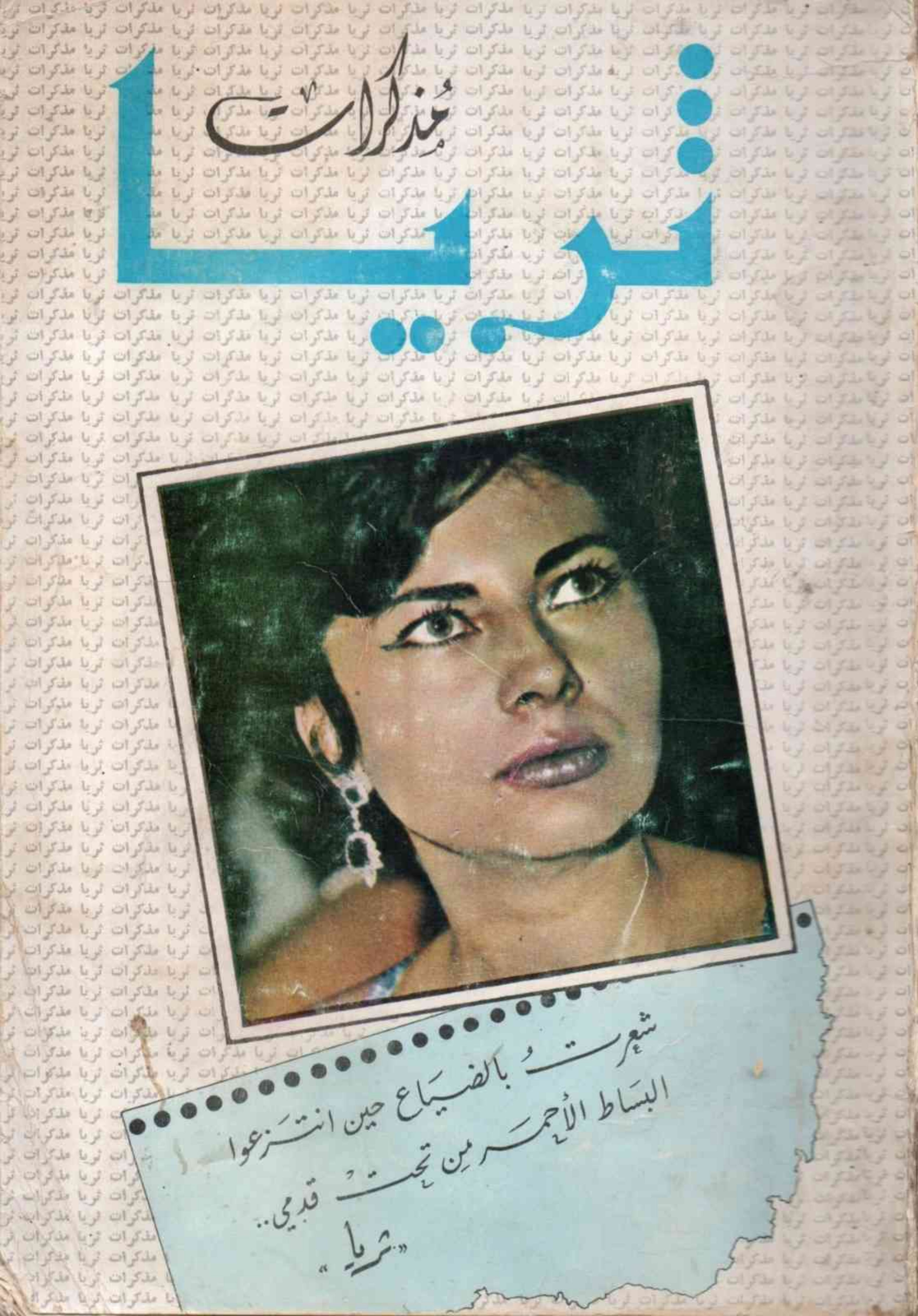

مذكرات
ثريا
شعرت بالضياع حين انتزعوا
البساط الأحمر من تحت قدمي..
«ثريا»

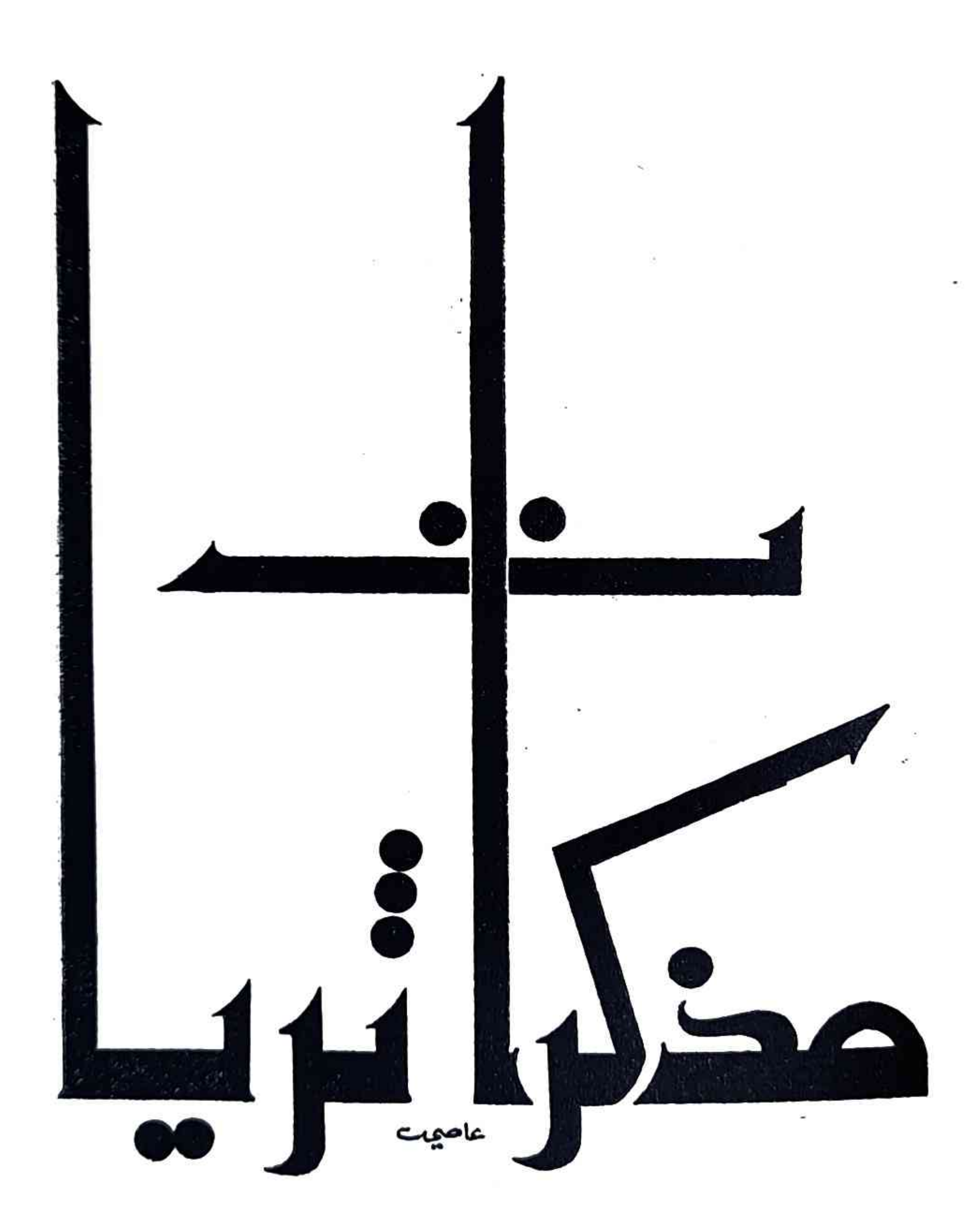
الطبعة الاولى

كانون الثاني ١٩٦٤

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد في ١٧/رجب/١٤٤٦هـ
١٧/ ١ /٢٠٢٥م

م. سرمد حاتم شكر

سرمد حاتم شكر



بقلمها

منشورات
مكتبة المثنى - بغداد

حين شعرتُ بالضياع

كان ذلك بعد زمن قصير من الطلاق بين الشاه ، وبيني ، الذي وقع في آذار من عام ١٩٥٨ .. وكنتُ أقيم بين أهلي في مدينة كولونيا . فقد خطر لي في أحد الأيام أن أذهب ، لأول مرة ، إلى سوق المدينـــة ، لأشتري بعض ما كنت في حاجة إليه .

ولما كنت أرتدي ملابس بسيطة ، لم يعرني الناس التفاتاً خاصاً .. ولكن ما ان بلغت الشارع الرئيسي ، حتى اضطربت في مشيتي ، وأخذت أصدم المارة ، وأضطر إلى الاعتذار .

لقد كان بصري سليماً ، وقدماي قويتين ، ثابتتين .. وكل ما في الامر ، انني كأمبراطورة ، فقدت المران على السير في حشد من الناس .. ذلك لأن الامبراطورة تألف أن يفسح الناس لها

الطريق ، باحترام ، في غدواتها ، وروحاتها .

ومع انني كنت ، وأنا امبراطورة ، أتجول في «جادة فينيتو» بروما، أو «الشانزليزيه» بباريس .. إلا انني كنت دوماً في صحبة نفر من رجال القصر ، يفسحون لي الطريق .

أما اليوم ، فأني وحيدة ، وكلما بلغت مفترقاً للطرق ، أصاب بذعر حقيقي ، ولا أعود أعرف كيف أجتاز الطريق ، وكيف أتجنب السيارات التي تقترب .

.. لقد كنت كمن سُجن طويلاً ، ثم أطلق ، فلم يعد يدري أي سبيل يسلك ، وفي أية وجهة يسير .

وكانت حالي اسوأ حين أقود سيارتي ... لأنني تعودت في طهران أن يسبق سيارتي رجال الحرس ، بدراجاتهم الآلية ، يقطعون السير ، ليتسنى لي المرور ... لم أكن يومذاك أكترث لإشارات الضوء الأحمر ، أو الأخضر ، وهي شارات السير الوحيدة في عاصمة ايران .. وفجأة وجدت نفسي هنا في متاهة من لافتات التحذير ، والمنع .

وفي صباح أحد الأيام ، ذهبت إلى السوق ، تصحبني سكرتيرتي ، في سيارة صغيرة ، لا تحمل لوحة دبلوماسية .. وما إن أخذت أقف بسيارتي قرب الرصيف ، حتى تقدم مني أحد رجال الشرطة ، وخاطبني بلهجة قاسية ، فقال :

— « ألم تري شارة منع الوقوف ، حيث تقفين ؟ »

وردت سكرتيرتي فقالت :

— « إن السيدة لا تحفظ أنظمة السير هنا .. إنها امبراطورة ايران السابقة ..! »

وردّ رجل الشرطة قائلاً :

— « يا للغباء .. فاسمحي إذن برخصة القيادة . »

ولما وقع نظره على بطاقة هويتي ، أصابه ذهول ، وتوارى فجأة ،

وهو فاغر الفم من الدهشة .

كنت في الواقع أجهل كل الجهل كيف تركن السيارة ، وكيف يدخل الناس محطة لخدمة السيارات .. وأية كمية من الوقود والزيت تحتاج إليها السيارة . ولذلك كان عليّ أن أتدرب على ذلك كله ، في مدرسة لتعليم القيادة ، وما يتصل بالسيارات .. وأن أبادر إلى ذلك ، دون ابطاء .

لقد عشت في القصر بطهران « في القطن » سبع سنين .. لم يكن لي فيها أن أقوم بأية حركة ، أو بادرة .

لم يكن يتاح لي أن أصبّ الشاي في قدح ، لأن ذلك لا يليق لي ، بل كان من شأن وصيفة الشرف .. وكان كل عمل يصلني بالخارج يقتضي الموافقة السابقة .. حتى انني كنت أشعر أحياناً ، بأنني دمية متحركة ..

وفي شؤون المال ، لم تكن يدي طليقة ... ولما كان محرماً علي ، كأمبراطورة ، أن أحمل نقوداً ، كان أحد المرافقين يسدد ثمن ما أختار من الحاجات .

.. لم يكن نظري يقع على قائمة فندق ، ولم أكن أعرف كيف أطلب وجبة من الطعام ، ولا أي فضلة من المال تدفع للخدم ... ولقد بقيت على هذه الحال مدة طويلة بعد طلاقي ، وكانت والدتي تتولى كل ذلك عني .

لا بدّ أن يثير ذلك سخرية كثيرين من الناس العاديين ، ولكن المقادير لم تيسر لي أن أحيا حياة عادية .. فما كدت أتزوج الشاه ، وأنا في الثامنة عشرة ، حتى فقدت الحرية فجأة ، وظللت طفلة في كثير من جوانب سلوكي ، مما أورثني عقداً مختلفة ، حين عدت إلى الحياة العادية ، المألوفة .

وانتابني شعور مفاجئ ، ملحّ ، بأنني عديمة الفائدة ، لا أصلح لأمر من الأمور .

ذلك انني قد حملت في طهران أعباء كثيرة ، وقمت بواجبات وبخدمات اجتماعية عديدة ، ما زلت أفخر بها ، واعتز ، حتى اليوم .

وها اني أجد نفسي الآن في فراغ كبير .. وكنت قد عزمت في يوم من الأيام أن أملأ هذا الفراغ ، بأن أذهب للعمل مع الدكتور « شويتزر » ، ولو لم يقف أهلي في سبيلي ، ويحولوا بيني وبين رغبتي هذه .. لأن حالتي الصحية كانت تدعو إلى القلق ، اذن لكنت قد رحلت إلى « لامبارين » ، حيث يقيم « شويتزر » .

وكانت هذه الخيبة شديدة الوطأة على نفسي ، بقدر ما كانت حياتي في القصر قد بدلت من طباعي .. لقد كنت فتاة لاهية ، غافلة عن كل ما يجري في الدنيا ، مستعدة دوماً للمرح ، واللهو .

وكنت كثيرة الكلام — إن لم أقل ثرثارة — وكانت ثقتي في أهلي ، وفي رفاق المدرسة ، ثقة لا تحد .. فقد دخلت بيئة لا مجال فيها للعلاقات الانسانية الحقيقية ..

وكنت أشعر انني قد حملت إلى ما يشبه القفص الذهبي ، لا يصلني من شؤونه ، وأخباره ، إلا عن طريق الآخرين ، وإلا ما يكون قد مرّ بالآخرين . وكان ينقل إلي مع ذلك كل ما كان يقوله الناس عني .. فما أستطيع أن أحقق في هذا النوع من الاقاويل ، والشائعات ، ولا أجد إلى ذلك سبيلاً .

وكان أكثر من استقبل من الناس يرتكز في أقواله ، وأفعاله ، إلى مصالحه الخاصة .. فلم يكن أحد يفتح قلبه لامرأة مثلي ، أو يكشف لها دخيلة نفسه . وعلى ذلك ، غابت عني الحقيقة ، ولم تعد تصلني بها صلة .. وأعتقد ان الامراء ، والاميرات ، الذين ينشأون منذ الطفولة في وسط مصطنع كهذا ، يعجزون عن أن يحكموا حكماً صادقاً ، وينظروا نظرة صائبة إلى شؤون الناس ، وما يشغل الناس .

ومهما لقي هؤلاء من أشخاص ، ومهما قرأوا من تقارير ، فانهم يظلون غرباء عن الحياة نائين عنها كل النأي .

وحين كنت أحاول أن أخرق قناع رجال القصر .. كنت أنا هدف المراقبة ، المستمرة .. فقد كان لكل حركة من حركاتي ، وكل سكنة ، وكل حديث ، شأن لدى الآخرين .. كان أخلص أصدقائي يتحدثون في المدينة بما قلته في السر ، مما اضطرني إلى أن أتحفّظ ، حتى مع الخدم ...

وتعودت مع الأيام أن أفكر في كل كلمة تخرج من بين شفتي .

أما الشاه فقد كان له من تربيته ما جعله أكثر استعداداً لهذا الطراز من الحياة ، حتى انني لم أجده أبداً يتصرف تصرفاً عفوياً ، في حضرة الغرباء .

وقد لمست بعد ذلك في الملكة اليزابيث هذا السلوك نفسه ، الذي أصبح بعد أجيال عديدة ، طبيعة فيها ، لا تتكلفه ، ولا تجد فيه مشقة .

وحينما استقبلتنا في قصر « باكنغهام » كانت حفية ، ودودة ، ولكنني شعرت بتحفظ خفي ، لا تستطيع أن تتغلب عليه . وكأن جداراً غير منظور ، كان يفصلها عمن يحيط بها من الناس . وانه ليستحيل على المرء أن يظل على سجيته ، إذا ما كان في مرتبة غير عادية كهذه المرتبة . ومع الايام ، أصبحتُ أنا كذلك ، دون ارادتي ، شبه ممثلة .

ومن الصباح ، حتى المساء ، كنت أقوم بدور ، هو الدور نفسه ، حتى أصبح شيئاً فشيئاً ، طبيعة ثانية لي .

ولذلك ، شعرت بالضياع ، حين انتزعوا فجأة البساط الأحمر من تحت قدمي .. ولقد تمنيت بعد طلاقي أن آوي إلى كهف للجرذان .. لم أكن أميل إلى حضور أي اجتماع ، ولم أعد أطيق ان أجد حولي ،سوى المخلصين ، المقربين .

وكان كثير من الناس يؤولون سلوكي هذا ، على انه عجز ، وضيق في الأفق .. ذلك انهم ، وهم الذين لم يحيوا حياة القصور ، لا يستطيعون أن يدركوا مدى الازمة النفسية التي تمر بي .

وكان التحوّل في حياتي تاماً ، لأنني لم أكن متحدرة من أسرة مالكة – كما كانت زوجة الشاه الاولى – . وقد شاء محمد رضا أن يضمن لي مكانة اجتماعية ، فمنحني عند رحيلي لقب اميرة امبراطورية .

ولم يكن يخلص لي من الناس في تلك الفترة ، الاخلاص الحق ، سوى أهلي ، فلم يكن لي اذن من ملجأ ، إلا الوسط الذي أنتمي اليه والذي خرجت منه .

ولقد كان في استطاعتي التغلب على الشعور بالذعر ، الذي انتابني بعد الطلاق ، لو أن الناس تركوني وشأني ، « ولكن الجمهور لا يرحم » .. فكنت حيثما ذهبت ، وأينما حللت ، ضحية فضول الناس .. وكنت قد فقدت حماية الحرس الامبراطوري ، وسهره علي ، ولكن يبدو ان لا حق لي في أن أتمتع بحياة عادية ، خاصة ، لا يعكر صفوها شيء .

وقد بدا لي أقسى ما طرأ على حياتي من تبدل .. وكلما ذكرت ما وقع لي في « جنوا » بعد طلاقي بقليل ، أحس بالقشعريرة تدب في ظهري ... وكانت والدتي قد عرضت علي أن أصحبها إلى « برمودا » لتبعد عني الذكريات القريبة .. ولما كانت تكره ركوب الطائرة ، فقد حجزنا غرفة في السفينة « كوستتيوشن » .

وحين دخل القطار محطة « جنوا » كان في انتظارنا حشد من الناس .. فقد علم الايطاليون بقدومنا ، ولست أدري كيف علموا !

ولم تكن والدتي في أول الأمر تريد النزول من القطار .. ثم دخل حجرتنا ثلاثة من رجال الشرطة ، وقالوا انهم سوف يرافقوننا حتى المخرج ، ويسهرون على سلامتنا .

غير انهم قد بالغوا في تقدير قوّتهم .. فبين طرفة عين وانتباهتها ،

جرفتنا الجموع ، جرف الموجة العارمة .. وزحمتنا ، حتى كدنا نختنق . وكان كثير من الناس يقفزون ليتمكنوا من رؤيتنا .

واسقط في يد رجال الشرطة ، فلم يدروا كيف يتصرفون .. وصحت بوالدتي :

— « اثبتي على قدميكِ .. وإلا داستكِ الاقدام . »

ولم تلبث بعد ثوان قليلة ، حتى غابت عني ، فبدأت أشعر جدياً بالقلق .. ونادى أحد رجال الشرطة « الماما .. الماما .. » ولكن لم يجبه مجيب ..

وفي أثناء ذلك كانت قبعة « الماما » قد انتزعت من فوق رأسها ، ثم حملها أحد الايطاليين بين ذراعيه ، وهي ترفس بقدميها ، وتضرب بجماع يديها ، لتدافع عن نفسها .. ذلك انها لم يقع لها ما يشبه ذلك في حياتها .

وكانت تصيح « دعني .. دعني .. » ، غير ان الرجل مضى بها حتى خرج من المحطة ، ثم وضعها برفق في سيارة كانت تقف هناك .. فأدركت أنه موظف أمن في ملابس مدنية .

وفي طريقنا إلى الفندق ، أخذ المصورون يطاردوننا .. فلجأ السائق ، كي يضللهم ، إلى السير في الشوارع سيراً متعرجاً ، وكان المشهد ، كمشاهد أفلام هوليوود الصامتة .

وكنا ، أنا ووالدتي ، متمسكين في عصبية بالمقعد ، وما ان وصلنا أخيراً ، إلا وقد أدركنا الارهاق ، والوهن ، وأشرفنا على الانهيار . غير ان ذلك كله لم يكن سوى مقدمة عذاب ، وشقاء ، سمما حياتي طوال أعوام ، وأعوام .

كانت الدارة « البنغالو » التي نزلناها ، في « نيوستيدهوس » ببرمودا ذات أربع حجرات ، وتطل على البحر ، اطلالة رائعة .. ولم يكن في جوارنا أحد ، حتى اننا لم نشاهد طوال أسابيع ، سوى موظفي الفندق .

وكانت خلوة مثالية ، لمن كان في مثل حالتي المعنوية .

وأستطيع القول ، دون أن يكون في قولي مبالغة ، انني كنت في ذلك الحين ، أشعر بأنني أرملة ... أبكي الزوج ، الذي أحببت ، لأنه كان بالنسبة لي بمثابة الميت .

وقد روى الراوون بعد ذلك ، ان الشاه ظل على صلة بي ، وكتبت الصحف أنه بعث لي بورود ، أو أنه اتصل بي هاتفياً ، واننا التقينا سراً .

واني لابادر إلى نفي ذلك كله ، جملة وتفصيلاً .. واقول انني منذ طلاقنا ، لم أتحدث إلى الشاه ، ولم أكتب اليه .. ولم نلتق أبداً .

ولما عدت إلى المانيا ، من زيارتي للهند الغربية ، كان اسمي قد زج في نقاش سياسي . وقد شكا محمد رضا إلى حكومة بون بعض التعليقات الصحفية ، حول طلاقنا . عند ذلك اقترح وزير الخارجية أن تشملني الحصانة ، التي تكون عادة لرؤساء الدول الأجنبية ، فلم يقبل اقتراحه .. ولم يكن لهذا الحوار من نتيجة ، سوى ان الجمهور ظل يعنى بي ، ويتتبع أخباري ، كما كان شأنه من قبل .

وفي أحد الأيام ، اعتمرت شعراً اصطناعياً ، يميل إلى الاحمرار (بروكة) ، يتدلى منه شعر طويل ، وتعصبت بعصابة ، ووضعت على عيني نظارة طبية .. وذهبت إلى « دومبلاتز » ، وأنا أرجو ان يحسبني الناس طالبة .

غير أنني ، لسوء الطالع ، لم أمض بعيداً .. فما كدت أدخل أحد المتاجر ، حتى سمعت إحدى الزبائن تهمس لرفيقتها :

— « هل تجدين ان لون الشعر هذا يناسب ثريا . »

* * *

وكان الصيف .. وكنت على حالي من الحزن .. فاستدعتني والدتي ، وقالت :

– « لقد آن أن تعودي إلى المجتمع يا بنيّتي .. فانكِ ما زلتِ في سن من الشباب ، لا يجيز لكِ أن تظلي رهينة الدار ، تجترين الافكار المحزنة .. فهل ترغبين في ان نزور اسبانيا .. ولك فيها أصدقاء كثيرون ؟ »

كنت واثقة بأن والدتي على حق .. وبأنني إذا ما شئت النجاة من الكآبة النفسية « الملخوليا » فلا مفر من ان أكره نفسي على العودة إلى دنيا الناس .

وفي طريقنا إلى مدريد ، عرجنا على « بياريتز » ، فقدم الينا مصارعا الثيران : لوي ميغيل دومنغان ، وشقيق زوجته انطونيو اوردونيز ، ولم يكن في هذا التعارف ، ما يساعد على توطيد ثقتي بنفسي .

وقد جرح دومنغان في الساحة ، بعد ظهر اليوم التالي ، وبعد أربع وعشرين ساعة من ذلك شهدنا في « سان سبستيان » مصارعة للثيران ، اشترك فيها شقيق زوجته « اوردونيز » . وكنا في منصة الشرف ، فتقدّم انطونيو اوردونيز من مقصورتي ، كما جرى العرف ، ورفع قبعته ، اشارة إلى انه يقدّم إليّ الثور الذي سوف يصرعه .

وكان الثور أسود اللون ، من فصيلة « ميورا » ويبلغ وزنه الف ليبرة .. وبين الاعتزاز بهدية المصارع ، وبين القلق ، تهيأت لمتابعة المباراة .

لقد سار كل شيء على ما يرام في البداية .. وكان الثور ، والمصارع في كر ، وفر ، كأنهما يرقصان ، رقصة « الباليه » ، على رمال الحلبة ... وكان الرماة يغرسون رماحهم في عنق الثور ، حتى وفق اوردونيز بسلسلة من اللمسات السريعة المتلاحقة إلى تجميده في مكانه والزبد يملأ شدقيه .

وفي تلك اللحظة شهر اوردونيز سيفه ، ليضرب الثور الضربة القاتلة . غير ان الثور تلفت فجأة ، وغرز قرنه الايمن في ساق اوردونيز اليسرى .

وانطلقت من الجماهير صيحة مدوّية وهوى بطل الامس ، فحمل على نقالة إلى خارج الحلبة .

وشعرت بالانهيار .. وكان الجنرال فرانكو ، الذي جلس في المقصورة المجاورة لمقصورتي يرقب المشهد ، وقد بدت على وجهه امارات الجزع .

ترى .. لماذا يكون الثور ، الذي قُدّم لي هدية ، سبباً في هذه الكارثة ؟ ولم أغتفر لنفسي انني جلبت الشؤم ، والأذى في خلال يومين ، لاثنين من أبرع مصارعي الثيران في اسبانيا .

وقد شهدت بعد ذلك عدة حفلات لمصارعة الثيران ، ولكن لم يعد المصارعون ، في حذرهم ، يقدّمون لي الثيران .

ورحلت من « سان سبستيان » إلى مدريد ، ثم انتقلت إلى « بادن بادن » لمشاهدة سباق الخيل لموسم الخريف ... ثم ذهبت ، إلى « سان موريتز » لتمضية عيد الميلاد ، ووالدتي لا تفارقني أبداً .. فقد كان تفكيري المجرد في ان أصل وحيدة إلى محطة ، أو مطار ، يثير في نفسي دوماً الذعر الشديد .

إلا انني كنت أتقدم ببطء من حسن إلى أحسن .. وأخذت ألبّي الدعوات ، ولا أردّ من يطلب أن أراقصه .. وحتى حين كانت أفكاري تشرد ، وتهيم ، بعض الشيء ، كنت أبذل الجهد للتغلب على عقدي النفسية .

وفي ذلك الحين ، انطلقت الصحف من عقالها .. فكأنها كانت تفترض اني ما زلت غارقة في أشجاني .. وما ان ظهرت في إحدى الليالي ، ولأول مرة ، بصحبة شاب ، حتى غدوت فريسة لمخبري هذه الصحف .

لم أكن أرتاب في الصحفيين ، ولا أضمر لهم في نفسي شيئاً .. وكنت والشاه نستقبل دوماً المراسلين الأجانب ، بحفاوة وإكرام . ذلك لأننا كنا نعلم ان لهم نصيباً من الفضل في الحفاوة القلبية التي كنا نلقاها في كل مكان نزوره من بلدان العالم .

وكان لنا فوق ذلك أصدقاء شخصيون من رجال الصحافة .. مثال

ذلك الصحفية الاميركية « فلوركولز » الذكية ، الخفيفة الظل ، التي كنت أسر حين ألقاها .

ولكنني كامبراطورة سابقة ، عرفت صنفاً من الصحفيين ، لم أعرفه من قبل .. وأحسب ان هذا الصنف يتألف من المعلقين الاجتماعيين من الجنسين .

وكان هذا الصنف من الصحفيين يعتبر حياتي الخاصة نوعاً من القصص المثيرة ، وان حدثاً جديداً ، لا بد أن يقع في حياتي ، كل أسبوع .. فإذا لم يكن ذلك ، عمدوا إلى وضع الأساطير ، ونشرها . وقد اختلقوا خلافات بيني وبين أهلي .. وزعموا انني لا أستطيع أن أتزوج دون اذن من الشاه ...واخترعوا عشاقاً لي — كالمليونير بابي بنيفاتاري — الذي لم أصادفه إلاّ مرة واحدة .

وأطرف من ذلك ، ان مجلة باريسية كبرى ، خلقت منصب « مخبر ثريا » ، ولم يكن للمخبر الشاب من عمل ، سوى أن يلاحقني . وأينما كنت — سواء في روما ، أو اثينا ، أو منهاتن — كان يدخل مسرعاً إلى باحة الفندق .. وقد كان في وسعه أن يوفر على المجلة تكاليف السفر ، لأن جميع ما ورد في مقالاته كان خطأ ، لا صحة له .

وفي يوم من الأيام ركبت المصعد الفضائي « تيليفريك » في « سان انطوان » ليحملني إلى ساحة التزلج .. وكان المصعد مزدحماً بالناس ، حتى لا يستطيعون حراكاً .. وحانت مني التفاتة ، فإذا بالمخبر الباريسي ، الذي يتبعني كالظل ، يقف إلى جانبي ، وأخذ يحدثني إلى أن التفت اليه ، وسألته في ضيق وحنق :

— « ماذا تريد مني ، بالضبط ؟ »

وفي تلك اللحظة شعّ نور مفاجئ من أعلى اليسار .. ولمحت زميلاً للمخبر وقد تعلق بهيكل المصعد الفولاذي ، والتقط صورة .

وظهرت الصورة بعد ذلك بقليل في الصحيفة الباريسية ، تحت العنوان

التالي : « مندوبنا في حديث ودي حار مع ثريا » .. وإلى جانب الصورة مقال تضمن كل ما زعم انني أفضيت اليه به .. ويرغب المصورون ، خاصة ، في ان يفاجئوني ، وأنا أرقص ، أو أجلس مع رجل إلى طاولة ... ومن هنا كان الشعور بأنني أتردد في كل يوم إلى مكان جديد ..

والحقيقة انني كنت أعتكف في الدار لأسابيع ، فلا أبرحها ، غير إن الجمهور يجهل ذلك ، لأن صوري ، وأنا في الدار ، لا تظهر .

وكثير من هذه الصور ، لم تلتقط في أندية ليلية ، ولكن في اجتماعات خاصة ، أو أثناء تناولي الطعام بالفندق .

وفي هذه الحال ، يكون على الطاولة عادة بين ستة عشر وعشرين شخصاً ، وبذلك يكون إلى جانب كل سيدة رجل .

غير ان الصور كانت دائماً تقص ، وتحذف منها وجوه جلسائي ، إلا واحداً ، يلوح للناظر انني أجلس اليه وحده .

ومن البديهي انه كان لي من حين إلى آخر معجبون صادقون ، سوف أتحدث عنهم فيما بعد .. وأحسب ان ذلك طبيعي ، بالنسبة لامرأة في سني وان عكس ذلك هو الشاذ .

ولكن ، كلما رقصت مع رجل واحد عدة مرات ، وتحدثنا عن حالة الجو .. تنبأت الصحف بخطبة وشيكة بيني وبين هذا الرجل .

وإني لأمقت ، في الواقع ، الاندية الليلية ، ولا أرتاد ، لو عاد الأمر إليّ ، هذا النوع من الأمكنة .. ولكن إذا ما كان المرء بين صحب له ، وأراد هؤلاء أن يذهبوا إلى مكان ما ، بعد تناول الطعام فليس من الممكن ، ولا اللائق ، أن يقوم واحدنا بدور منغص اللذات .

وحتى إذا ما أراد واحدنا أن ينسحب ، كان من اللياقة أن يمكث بعض الوقت .

وفي أحد الأيام لمحت صدفة على الشاطئ اللازوردي « كوت دازور »

رجلاً ، كنت قد عرفته ، معرفة عارضة في « سان موريتز » ، هو الفونسو توبون ، وكان صديقاً لزوج الأميرة أشرف ، شقيقة الشاه .

وبادرني الرجل بالحديث ، وهو يضحك :

— « أرى انكِ اليوم تعيرين اسمكِ ، ليكتب على غلافـات الاسطوانات . »

وخيِّل إليّ انني لم أسمع ما قاله ، فأمعنت النظر اليه ، دون أن أفهم شيئاً .

وسألني في دهشة :

— « ألا تعرفين شيئاً عما أقول ..؟ إن صورتكِ ، وصورتي ، قد رسمتا على اسطوانة للموسيقى الراقصة اسمها « ثريا » . »

ولم أكن قد سمعت أي حديث عن هذه الاسطوانة .. ولكننا تبيّنا بعد ذلك انها من انتاج مؤسسة الاسطوانات الباريسية « اوديون » .

وكان غلاف الاسطوانة مزيّناً بصورة ، أظهرُ فيها ، وأنا أراقص السيد توبون .. ويلوح انهم استساغوا تحقير الامبراطورة السابقة ، إلى حد أن يجعلوا منها وسيلة دعاية لاسطوانة دارجة .

وفي سخطي واستيائي من ذلك ، ذهبت إلى باريس ، بصحبـة والدتي ، لأقيم الدعوى على مصدر هذه الاسطوانات ، ضد الـذين أنتجوها .

وقد تذرع هؤلاء بأن اسمي الصغير لا يتمتع بالحماية ، شأنه في ذلك شأن اسم « مرغريت » ، أو سواه ... وتناسى هؤلاء ان ليس في أوروبا كلها سيدة تدعى ثريا ، وان صورتي كانت تبدو على غلاف الاسطوانة وحكم القاضي بأنني المقصودة في الاعلان ، دون سواي ، ومنع توزيع الاسطوانة .. ولكن بعد ان كانت قد بيعت نسخ كثيرة منها ، ولم يتسن لي ان أطلب مصادرتها .

وفي خلال ذلك كانت قد نشرت عن حياتي الخاصة تحقيقات ،

ومقالات ، فاضحة ، مدوّية .. حتى ان قوائم كاملة قد وضعت عن مغامراتي العاطفية ، المزعومة .. تظهرني ، وكأنني قد بززت في هذا المجال الامبراطورة كاترين ، الروسية ، وسبقتها بأشواط .

ومما يؤسف له ان عدداً كبيراً من القارئات قد صدقن هذه الاراجيف ذلك لأنهن كن في رتابة حياتهن ، يبحثن عن ملجأ في عالم بديل ، أو في حياة امرأة مثلي ، تحيا حياة حافلة . ويقيني ان ، في هذا ، ظاهرة من ظواهر مرض العصر ، الذي تقع جذوره العميقة في نطاق التحليل النفسي .

وقد تجلى لوالدتي نفسها ، كيف يمكن أن يتحوّل هذا المرض إلى عادة شاذة ، مستعصية .

فقد كان لها صديقة تلتقي بها كل عام تقريباً ، وكان حديثهما يتناولني بطبيعة الحال ، وتبيّن لوالدتي ان هذه الصديقة على علم بجميع حركاتي وسكناتي .

وبعد ظهر أحد الأيام ، جاءت هذه الصديقة لزيارتنا ، وتناول الشاي معنا ، وامارات الاضطراب بادية عليها ، وكانت تلوح في يدها بمجلة ، ألقتها إلى والدتي وقالت :

— « هل قرأتِ عما فعلتْ بنتكِ في روما ؟ »

وكان في هذه المجلة تحقيق ، زعم كاتبه انني بسبب متاعب غرامية ، قد ابتلعت كمية كبيرة من الاقراص المنومة ، وان الاطباء عمدوا إلى غسل معدتي كي لا أتسمم .

وسألت والدتي الصديقة في هدوء ، وسكينة :

— « ولماذا تطلعينني على هذا .. وأنتِ تعلمين ان ليس فيه ظل من الحقيقة ؟ »

والواقع ان هذه الصديقة كانت تعلم ، علم اليقين ، الاسباب التي تجعل هذا النبأ بعيداً عن الحقيقة ... غير ان اللهفة إلى ما يثير قد طغت

فيها ، هي الأخرى ، على شواهد الواقع الملموس .

قد لا يدرك أحد من الناس كم كنت أعاني من سيل الافتراء هذا ، إلا إذا تعرض لما تعرضت له .. ولم يعد شعوري ، ذلك الشعور بالذعر الذي عرفته في الاشهر الأولى ، ولكنه أصبح شعوراً عميقاً باليأس ، حتى انني صرت أشك في تفسي .. ترى من أنا في حقيقة الأمر ؟.. وهل سيتيحون لي يوماً أن أستعيد شخصيتي الحقيقية ، أم ترى قد قُدّر عليّ أن أكون إلى آخر العمر صنماً يغذي أحلام الجماهير ويهدهد خيالها !؟

* * *

لم يمض زمن طويل على استقراري في « ميونيخ » ، وذلك في ربيع عام ١٩٦١ ، حتى تعرف أهلي بالمحامي « اريش ليشتنستين » .

ولما كانوا في قلق ، وحيرة ، مما آلت اليه حالي ، فقد طلبوا اليه أن يعينني على اتقاء حملات جلاديّ ..!

ومع انه في الواقع كان مشرّعاً للصناعة ، فقد وعد بأن ينظر في الأمر ، وفي الشهور العشرة التالية ، لم يكفّ الدكتور « ليشتنستين » عن ملاحقة جميع الكتابات التي تحتوي معلومات خاطئة عني .

وقد طلب إلى العشرات من صحف المانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، وسواها من الصحف ، التي عرفت في أوساط المهنة بـ« صحف ثريا » ، تصحيح معلوماتها ، وتلافي أخطائها ، وفي الحالات المبالغ فيها ، كان يطلب من هذه الصحف التعويض .

وكانت النتيجة رائعة ، مدهشة ، فقد تجنّبتْ جميع هذه الصحف ما يصل بها إلى القضاء .. ودفعت بعض هذه الصحف من تلقائها ما ترتب عليها من تعويضات .. ونشر بعضها تصويبات طويلة لما كانت قد نشرت حولي .. ووعدت جميعها بأن لا تتعرض إليّ بما يسيء لسمعتي ولكرامتي

في المستقبل .

وهكذا .. تسنى لي أن أنعم بالراحة ، وبالأمن .

* * *

كان قد مضى على طلاقي ما يزيد عن ثلاث سنوات .. وكنت أشعر شيئاً فشيئاً بأن الزمن يشفي كل الجراح ، كما أسهم نجاح المحامي في رفع معنوياتي ، وفي إعادة الثقة إلى نفسي .

حتى إذا ما كان صيف عام ١٩٦١ ، أيقنت لأول مرة ، بأنني قد اجتزت العقبات فعلاً ، واستعدت لذتي في الحياة ، وروحي الوثابة إلى الطموح .

ولقد أصبحت أمضي عطلة نهاية الاسبوع ، من حين إلى آخر ، في « ميترسيل » ، قرب « سالزبورغ » ، حيث الفندق القصر ، الذي يديره الامير « هوهنلوه » وزوجته . وكان من بين زبائنهما الامير شارل، وارمان دارنبرغ ، المتحدران من أسرة فرنسية ، نبيلة ، شهيرة .

وقد دعانا « ارمان » لزيارته في شهر تشرين الأول القادم ، والاشتراك بموسم صيده في « مينتون – صالون » . وكانت هذه الدعوة تتفق تماماً ومشاريع سفري ، التي عزمت ان أقوم بها ، بعد ذلك بقليل ، إلى « بالم سبرنغ » ، حيث ينتظرني بعض الاصدقاء ، على أن أعرج على باريس ، لأشتري بعض الحاجيات .

وعلمت بعد ذلك ان الشاه ، وفرح ديبا سوف يزوران باريس ، زيارة رسمية في نفس الوقت ، الذي أزورها فيه .. وقد بدا أن ليس في ذلك حرج ، ذلك لأن أيام الزيارة الرسمية تقع قبل موعد افتتاح موسم صيد الامير دارنبرغ .

وكم كانت دهشتي كبيرة ، حين وصلت باريس ، لأمضي فيها ثلاثة أيام ، على اثر صيد البط .. فوقعت عيناي على عناوين كبيرة بالصحف

المعروضة في أكشاك البيع ، وقد كتب فيها :
هفوة كبيرة لثريا . أو : المبارزة بين امبراطورتين . أو : ثريا تتحدى فرح ديبا .
ترى ما هو الدافع إلى كل هذه الاثارة ؟
لقد بقي الشاه ، وزوجته الجديدة ، بعد انقضاء زيارتهما الرسمية لفرنسا كضيفين خاصين ، وأقاما في قصر « دوشان » بباريس .
وكنت قد حسبت انهما لن يعودا إلى المدينة ، وصدق حدسي ، فلم يزورا باريس بعد ذلك ، إلا مرة ، أو مرتين ، بينما كنت أقيم في فندق « بلازا أتينيه » .
غير ان تشابك المناسبات هذا ، اتخذ ذريعة لحملة جديدة شنت علي.. فاتهمت بقلة اللياقة ، وبأنني قد جئت باريس ، تحدوني غيرتي من فرح ديبا .
وكان أجرأ المعلقين وأوسعهم خيالاً ، ذلك الذي نشر في صحيفة « باري بريس » بياناً جاء فيه :

« ان شاه ايران ، والامبراطورة السابقة ثريا ، قد التقيا في خلوة بضواحي باريس .. ان هذا النبأ مؤكد وثيق .. وقد كانت هذه الخلوة في نهاية الاسبوع من يومي ١٤ و ١٥ تشرين الأول .

« فقد ترك الشاه بعد ظهر السبت الامبراطورة فرح ديبا في باريس ، وتوجه إلى « شيل » ، في سيارته « فاسل فيغا » . وقد أنبأنا مراقبونا بأن الشاه قد اجتمع في ذلك اليوم بثريا ، في مكان ما بين « شيل » ، و « ميتتون ــ صالون » » .

فبأي شيء كان علي أن أرد ؟.. ولدى الكثيرين من الناس أفكار ثابتة ، ليس من السهل ازالتها ، وتبديدها .

وحين ذكرت بعد قليل هذه الواقعة لاصدقاء لي من كاليفورنيا ، سألوني في رفق ، وعطف :

— « لم لا تكتبين كتاباً ، تضعين فيه هذه الامور في نصابها ، وضعاً حاسماً ؟ »

واجبت بأنني لا أميل أبداً إلى الدفاع عن قضيتي بالذات .. وعلى أية حال لن يصدق الناس ، إلا نصف ما سوف أقول ..

وكنت قد فرغت من قراءة سلسلة من المذكرات ، أعرف شخصياً مؤلفيها .. وقد صدمني فيها أن أكثرها قد صدر عن الغرور ، والمباهاة، بل عن بعض الهوس ، والطيش .

ويقيني ان لا قيمة لمثل هذه المذكرات ، إلا إذا ما كتبت بصدق ، واخلاص تامين .. ولم يكن من السهل علي وأنا في هذا الوضع أن أعزم على خطوة كهذه ، أو أن أقدم عليها .

وأصرّ أصدقائي .. وعمدوا إلى تأويل موقفي تأويلاً ، يتجاوز إلى حد بعيد مصيري الشخصي . وكان أصدقائي يعتقدون بأن كثيراً من متناقضات عصرنا تنعكس في مغامراتي .. حتى بلغوا من ذلك أربهم ، وأقنعوني بكتابة هذه المذكرات .

لقد كانت « شهرزاد » الاسطورية من قبلي ، تقود مستمعيها إلى مملكة الف ليلة وليلة السحرية .. أما أنا ، المرأة العصرية ، الفتية ، فليس في استطاعتي أن أقدّم للناس أقبية الكنوز ، أو المصابيح العجيبة ، المعجزة ، أو بساط الريح !..

غير ان زواجي قد أتاح لي ، أن أتابع ، من أرفع مقام ، مصير ايران . ولقد شهدت — شأن جميع النساء — أشياء كثيرة ، تخفى عادة على الناس .. إذن .. فلدي ، أنا كذلك ، قصة أرويها ، وأعتقد بأن الحقيقة البسيطة ، العادية ، أكثر متعة ، وطلاوة ، من كل ما ذاع ، وانتشر من قصص حولي ، وحول مصيري في الحياة .

أصدقاء السّعادة

من أول مشاهد طفولتي ، التي خلفت في نفسي ذكرى ، واضحة ، رحلة على ظهر حصان ، في صحراء أصفهان .

كانت سني ، حينذاك ، ست سنوات ، ولكني كنت قد تمرست على أن أستقيم فوق سرج الحصان . وكنت في هذه الرحلة امتطي مهراً عربياً ، نشيطاً ، أرعن .

وكنا قد برحنا قريتنا « غافاروغ » عند الساعة الثامنة صباحاً ، في نزهة مع أصدقاء لنا ، في واحة قريبة .. وبلغت الساعة الحادية عشرة ، ولم تلح الواحة لأبصارنا .

ومع اننا كنا نرتدي ملابس بيضاء ، ونعتمر قبعات كبيرة من القش ، فقد أخذ الحر يشتد ، شيئاً فشيئاً ، حتى أنني صحت بوالدي :

— « متى نبلغ الواحة يا أبي ، فقد أخذت أشعر بالظمأ ؟ »
واقترب مني والدي على ظهر جواده ، وقال :
— « إن فتاة من « البختياري » ، لا تشكو الظمأ أبداً .. وعليك أن تتحملي ، حتى نبلغ غايتنا . »

وكان العُرف في قبيلتنا « بختياري » أن لا يُحمل الماء للشرب ، في مثل هذه الرحلات ... وكلما كانت وطأة الحر شديدة ، كان محرماً على الفرسان أن يشربوا السوائل .

وعضضت على نواجذي تجلداً ، حتى لاح لنا من عل ، وبعد نصف ساعة ، حسبناها دهراً ، الحرج الذي تواعدنا على أن نلتقي فيه . وكان الخدم قد سبقونا إلى المكان ، وفرشوا في الظل بسطاً ، وسجاجيد ، قدم عليها الطعام .

واني لاستحضر الآن كيف أمسكت في لهفة كوب ماء الينبوع ، الذي قدّمه لي أحد الفرسان ، وكيف ردني والدي عنه ، وحرص على أن أشرب على مهل ، جرعة بعد جرعة .. وأشهد أني لم ألق في أي كأس من كؤوس الشمبانيا ، التي شربتها بعد ذلك ، ما لقيت في هذه الكأس من شعور بالراحة والانتعاش .

ولقد ذكرت هذه الواقعة ، لأنها أسهمت في تكوين طباعي ، ففي ذلك الحين ، وفي قلب الصحراء ، اكتسبت الصبر والجلد ، اللذين أعاناني فيما بعد في أوقات الحرج ، ومكّناني من التغلب على الصعاب .

غير انني ما زلت أذكر كذلك حدثاً من أحداث طفولتي ، لا صلة له بهذا الحدث .. كان ذلك في الكنيسة الانجيلية الالمانية في « أصفهان » ، على الضفة اليسرى من نهر « ساجان — رود » ، عشية عيد الميلاد .

وكنت أجلس بجانب والدتي ، أصغي إلى المراسم الدينية (القداس) .. فلما أنشد المنشدون لحن « الليلة الجميلة .. الليلة المقدسة » لمحت الدموع ، وهي تطفر من عينيها .

لم أكن آنذاك أدرك معنى الحنين إلى الوطن ، لذلك لم أدرك سبب حزنها ، فقد داعب الكاهن شعري بعد ان انتهى القداس ، وهو يخاطب والدتي ، فيقول :

– « عيد سعيد يا سيدة اصفنديارى ! إن الصغيرة ثريا سوف تدلل اليوم كثيراً ، وتكرم . »

وتصورت بصبر فارغ ، الهدايا التي كانت تنتظرني في البيت ، تحت شجرة الميلاد .

إن هذين المشهدين .. مشهد الصحراء ، ومشهد الكنيسة ، هما القطبان اللذان دارت حولهما حياتي ، حتى يومنا هذا . ذلك ان فيهما رمز الازدواجية ، الذي كان سبب الكثير من أشجاني ، في آن معاً ... وسأوضح ذلك فأقول :

إنني ، شأن جميع الايرانيين ، أحب بلادي ، حباً جماً عميق الجذور ، منوطاً بنياط القلب ، حتى ولو كنت في غربة عنها .

إنني أفكر بالفارسية ، وأكتب بها رسائلي ، وأسجل بها ملاحظاتي ، وأتحدث بها إلى والدتي ، في حديثنا اليومي ... وانني لم أتعلق بأي بلد أوروبي ، مع انني نصف ألمانية .

* * *

لم تكن ألمانيا تعني إلي شيئاً ، إلى ان كانت زيارتي الرسمية لها في عام ١٩٥٥ ، ولم أكن قد عدت لزيارتها ، منذ طفولتي الاولى .

إنني أقيم اليوم في « ميونيخ » ، لأن أهلي قد استقروا فيها ، وانني كنت أشعر بالراحة نفسها ، لو ان أهلي كانوا قد استقروا في باريس .

قد يدهش كثيرون من الالمان ، لما قلت ، ولكنني أرجو أن يدركوا ما أرمي اليه .. إنني سعيدة غاية السعادة بالمقام في « ميونيخ » ، غير انني كنت قد قطعت على نفسي وعداً في مطلع مذكراتي هذه أن أصف

الاشياء كما هي ، ولن يزحزحني عن وطنيتي الفارسية ، ولن يزعزعها في نفسي شيء أبداً .

تلك حقيقة ، والحقيقة الثانية انني لو شئت لبقيت امبراطورة ايران ، حتى يومنا هذا .. وذلك بأن أوافق على بعض التقاليد . وكثيرات من النساء الفارسيات ربما كن قد وافقن ، على أن يتزوج الشاه بفتاة ثانية ، وفضلن أن يمضين سائر حياتهن ، في شقاء ، ولا يتخلين عن مكانتهن الرفيعة .

غير ان تربيتي الأوروبية عصمتني من هذا المصير .. فلقد كانت لي مفاهيم أخرى لمكانة المرأة ، وللحب ، وللزواج ، الذي أعتبره الاتحاد الفردي لانسانين .

ومع ان هذه المفاهيم قد أساءت إليّ شخصياً ، فأنني أرى في ذلك مزية ، وفضلاً .. إنني اوثر أن أكون فارسية عصرية ، حرة ، على أن أكون امرأة مهملة ، بائسة ، في بلاط طهران ، ضُحي بها في سبيل مقتضيات مصلحة الدولة العليا .

وإني لأعيد الفضل في ذلك لوالدي ... وهناك أشخاص يـؤثر في تطورهم أستاذ ، أو صديق ، أو نموذج آخر من الناس . أما أنا فلم يكن شأني هذا الشأن .. ذلك ان الشخصين الوحيدين اللذين تركا أثراً في صباي هما والدي ، ووالدتي .

وكانت طباعهما مختلفة ، متباينة كل التباين .. فقد كانت والدتي ذات طبيعة عاطفية مندفعة ، كريمة ، قادرة على الاخلاص وبذل التضحيات الكبرى ، في سبيل الاقربين .. وكانت سهلة التأثر ، شديدة الأسى ، حين يخيب ظنها .

أما والدي فقد كان أكثر اتزاناً ، لا ينظر إلى الأمور نظرة التشاؤم المفرط ، ولا نظرة التفاؤل المسرف ، ولكنه كان يجد دوماً الحل العملي .. وأعتقد ان في طباعي مزيجاً من الطبيعتين . ومن العسير التأكد أيّـاً من

الاثنين قـد ترك في نفسي الاثر الابلغ .. ففي بعض مراحل حياتي كان أثر أمي أوضح ، وفي مراحل أخرى كان أثر أبي أكـثر وضوحاً .

وكنت وأخي ، طفلين ، سريعي البادرة ، ولا ريب في اننا قـد اكتسبنا ذلك من أمي ... التي كانت – شأنها شأن الامهات – توبخنـا أحياناً ، ولكننا لم نخشها في يوم من الأيام ، ولم نشعر حيالها بالرهبة ، لأننا كنا نشعر دوماً بأنها تحبنا ، قبل كل شيء .

والحقيقة انها كانت واحدة من أفضل الأمهات اللواتي عرفت .. فلم تكن تحيا إلا من أجلنا ، وقد تخلت عن الكثير ، لتيسر لنا سبل التربية الغربية .

وفي تلك المرحلة كان أبي بعيداً عن شؤوننا بعض الشيء ، وكان يوحي الينا الاحترام والمهابة ، ولم يكن يتدخل في تربيتنا ، إلا في حالات نادرة .

وكانت إشارة منه تكفي لنمتثل ، ونطيع دون جدال .

ولما بلغت الثانية عشرة أخذت عنايته بتربيتي تزداد .. مثال ذلك انه كانت لي دراجة ، وكنت أود أن تكون لي دراجة أكبر ، أتنزه بها مع شبان من لداتي .. ولمـا أبديت رغبتي هذه لوالدي ، أجابني بعنف :

– « انني لا أستطيع أن أسمح بذلك يا ثريا .. فلقد كبرتِ عـن ركوب الدراجة »

ولما سألته في دهشة عن السبب قال :

– « لأن ذلك لا يليق بفتاة ، تنتمي إلى أسرة عريقة .. فماذا يقول الناس لو شاهدوكِ فوق دراجة ؟ »

وكان أبي قد ربي على يدي رجال دين من الفرس ، وكانت النساء في عهد شبابه يتخذن الحجاب . وقد ألغى رضا شاه ، والد الشاه الحالي الحجاب ، حتى لم تبق امرأة في بيئتنا تحتجب .

غير ان بين رفع الحجاب .. والسماح لفتاة بركوب الدراجة ، اشواطاً لم يكن من اليسير على والدي أن يقطعها بهذه السرعة !

غير ان والدينا قد تركا لنا قدراً كبيراً من الحرية .. وكان همهما قبل أي شيء ان تكتمل شخصيتانا . ومع ان كلاً من والدي ووالدتي كانا ينتميان إلى عالمين مختلفين ، إلا انهما كانا يتمتعان بميزة مشتركة ، هي أكثر ما أقدره وأعجب به من مزاياهما ، وهي هذا النصيب الكبير من حرية الفكر .

وأفضل دليل على ذلك زواجهما . فقد كان الزواج في ذلك العصر بين شخصين من جنسين مختلفين غير مألوف ، إلا انهما تمكنا في جرأة من التغلب على جميع التقاليد والمفاهيم السائدة .

وقد تجلت حرية الفكر في والدتي ، حتى في إبان الحرب العالمية الثانية ، ذلك انها حين أقفلت الكنيسة الالمانية في « اصفهان » توجهت إلى الكنيسة الانكليزية ، ورضيت ان تتولى سيدات انكليزيات أمر تعليمي ، وتثقيفي . وكانت ، في أثناء اقامتهم بايران ، تشعر قبل أي شيء بأنها أوروبية ، بالرغم من تعلقها بوطنها المانيا .

أما والدي فقد كان كذلك متسامحاً إلى أبعد الحدود .. وحين تزوجت والدتي كان عليها بطبيعة الحال أن تتبع دين زوجها ، ولما رأت عيناي النور ، لم يكن لها الحق في أن تسميني اسماً مسيحياً .

غير ان والدي الذي كان يعلم مع ذلك بأنها ظلت بروتستنتية في صميم وجدانها ، لم يحاول أن يؤثر فيها ، أو أن يضغط عليها بأية حال .. فقد كان يرى من الخير ان يدع لها حرية التصرف كما تشاء ، وان لا يوفر أي جهد ، وهو الذي يحبها ، في سبيل راحتها وسعادتها .

وقد كان سلوك والديَّ حيالي هو هذا السلوك نفسه .. فحين كنت أحتاج إلى مساعدة كانا لا يبخلان بها ، دون أن يحاولا فرض مشيئتهما أو نظرتهما إلى الأمور علي .

فان لم أطلب اليهما النصح ، لم يقدما على التدخل في شؤوني لأن في ذلك ما يناقض المبادئ التي بنيا سعادتهما عليها .

لم يكن يثير قلقي ، وأنا فتاة صغيرة ، تحدري من جنسين مختلفين ، وكنت مثل سائر الأطفال راضية رضا المطمئن عن ظروف حياتي .

غير انني ما ان بلغت السن التي يبدأ الأطفال فيها بالسؤال ، والاستفسار ، حتى أخذت أُعنى عناية شديدة بأصل كل من والديّ .. وتملكتني الرغبة في الاطلاع على كل ما يعرفانه حول هذا الموضوع ، ذلك لأنه لم يكن يبدو لي أمر ، أكثر عاطفية ، ورومانتيكية من القدر ، الذي جمعهما .

* * *

كانت قبيلة « بختياري » من البدو الرحّل . ومعنى اسمها الفارسي « أصدقاء السعادة » قد استقرت منذ قرون بين اصفهان ، والاهواز ، إلى الجنوب الغربي من فارس .. وكان أكثر هؤلاء البدو الرحّل يسكنون الخيام ويعيشون من قطعان الماشية ، ويتحوّلون بتحوّل الجو ، والمناخ ... فإذا ما حلّ الشتاء ساقوا ماشيتهم واتجهوا نحو الجنوب ، واستقروا حيث وجدوا العشب والمرعى .. وفي الصيف يعودون إلى منطقة « أصفهان » .

وللأسف لم يتسن لي أن أتوغل في الجزء الجنوبي من بلاد « البختياري » الواقع وراء عدة سلاسل من الجبال ، التي لا يتيسر اجتيازها إلا على ظهور البغال .. وتعتبر هذه المنطقة في ايران فردوساً من الفراديس تنتشر فيه الوديان ، وغابات السنديان ، ويصنع سكانه خبزهم من ثمر السنديان . كانت المنطقة ، التي تسكنها قبائل « البختياري » منذ اثني عشر عاماً تحت سيطرة أسرتي .. وفي نهاية القرن الماضي ، واستناداً إلى ما كتب مؤرخو العصر ، كان يحكم البلاد إبنا عم في سن

واحدة .. وقد طلب أحدهما من الآخر الزواج ببنته التي كانت سنها تبلغ أربعة عشر عاماً .. وكان للخاطب نفسه ، ابناء مـن زوجـاته القديمات ، أكبر سناً من بنت ابن عمه .. غير ان ذلك كان مألوفاً في ذلك العصر ..

كانت الخطيبة ، اياها ، جدتي .. وبعد ست سنوات أنجبت والدي خليل .

وكان لجدي ، السردار أسعد ، جيشه الخاص من الفرسان ، والخدم.. وكان قد هجر حياة البدو الرحّل ، واستقر في قرية تقع إلى الجنوب من أصفهان .. وقد اقتفى اثره عـدد كبير من أهلي ، واستقروا حيث وجدوا الماء ، وبنوا الدور لهم ، ولحاشيتهم ، ولنسـائهم ، وخليلاتهم .

ثم انصرفوا إلى الزراعة ، وأخذوا يصدرون منتجاتهم الزراعية إلى أسواق أصفهان .

ومع ان جدي لم يزر أوروبا أبداً ، فأنه كان يحيط نفسه بمظـاهر الرفاه الأوروبي .. ولما كانت روسيا أقرب البلدان إلى بلده ، فقد كان يبعث في كل عام بعدد من رجاله إلى موسكو ، وإلى بطرسبورغ ، ليجلبوا له الاقمشة الثمينة ، والأثاث الغالي ، والادوات الزجاجية ، وسواها من أدوات الزينة ، والأبهة .. وليجلبوا لزوجاته الهدايـا ، ويسهروا على أن يكون منزله حافلاً بأحـدث الوسـائل التكنيكية العصرية . وكان نهر « القارون » النهر الوحيد ، الصالح للملاحة في البلاد ، يمر بدار جدي ، وكان على كل من يريد ركوب النهر ، أو قطعه ، أن يدفع له رسماً ، هو بمثابة ضريبة جمركية .. وقد بنى جدي بالمال الذي جمعه من هذه الرسوم عدة جسور معلقة من الحديد ، كما شقّ طريقاً للقوافل ، كانت في ذلك العهد الطريق الكبير الوحيد بـين الخليج الفارسي والمحيط الهندي .

وكان جدي يتقاضى رسماً كذلك عن كل حمار يحمل بضاعة ، ويمر في هذا الطريق .

وكان السردار أسعد يضمن مقابل ذلك سلامة القوافل .. وكان وحده قادراً على ذلك ، لأن حكومة طهران المركزية لم تكن تتمتّع عملياً بالسلطان على أراضيها .. وقد بعثت اليه الملكة فيكتوريا هدية تعرب فيها عن تقديرها ، وعرفانها ، هي عبارة عن ساعة ذهبية ، وجائزة كبرى .

وعلى هذا لم يكن جدي ، وجدي الاول ، على الفطرة حين أعلن الانكليزي جورج رينولدز زيارته في عام ١٩٠٤ .. وكان موفداً من أحد أغنياء لندن وليم كنوكس دارسي ، وكان يبحث عن البترول في ايران منذ ثلاثة أعوام ..

وبأذن من الشاه قام « دارسي » بالتنقيب عن البترول على الحدود الشمالية الغربية من البلاد .. ولكنه لم يجد قطرة واحدة منه ، مع انه أنفق في هذا السبيل مائة وسبعين ألف جنيه .

لذلك سعى دارسي ، ورينولدز ، إلى البحث عن البترول في جنوب ايران ، بعد أن أشار عليهما خبراؤهما في طبقات الأرض بالتنقيب قرب « ماماتين » و « مسجد سليمان » وهي قرية تقع حيث كان معبد سليمان في الماضي السحيق .

وقد اجتمع رينولدز بأمير البختياري في مخيم قريب ، فعرض عليه خططه وقال :

— « إننا نعلم يا صاحب السعادة اننا في حاجة إلى معونتك لتحقيق هذا المشروع .. ونرجو أن يقوم رجالك بحراسة حقول البترول .. واننا لمستعدون ، بطبيعة الحال ، أن ندفع لكم التعويضات المناسبة . »

وأجاب جدي فقال :

— « ان ثقتكم بنا تشرفنا ، غير ان مهمة نبيلة مثل هذه المهمة يجب أن تقوم على روح من الأخوة .. اننا لا نرغب في أن نكون خدماً لكم . بل شركاء . »

ثم افتر ثغره عن ابتسامة خفيفة ، وأضاف :

— « اننا نطلب نصيباً يبلغ العشرة في المائة من الأرباح . »

ومع ان هذا الطلب لا يثير اليوم دهشة أحد .. غير ان رينولدز دهش منه ، واعتبره ثمناً فاحشاً ، مجحفاً ... وصاح :

— « عشرة في المائة ! ان ذلك يؤدي إلى افلاسنا ، حتى قبل أن نبدأ العمل .. »

وتلفت السردار أسعد اليه ، وقد اتسعت حدقتاه ، وقال في لهجة رقيقة :

— « في هذه الحال ، قد يكون من الافضل أن تعيدوا النظر في مشاريعكم .. واننا نرحب بكم دائماً في أرضنا ، يا مستر رينولدز ... »

كان جدي رجل أعمال ذكي ، متفتح الذهن ، وكان يعتقد ان الزمن كفيل بتحقيق ما كان يطلبه .. غير انه توفي في العام نفسه ، كما توفي جدي الأول ، قبل أن تستأنف المفاوضات .

وتبدل الحال فجأة .. فلما وزعت ثروة الرجلين على عدد لا حصر له من الورثة — كان لوالدي وحده تسعة أخوة — لم يكن أي فرد من الاسرة يملك الثروة الكافية .. وكانوا جميعاً يعدون ثورة على الحكومة المركزية ، وكانوا في حاجة إلى المال لشراء الاسلحة ، والمؤن ، والمعدات .

وكان أكبر أعمام والدي حريصاً على الثبات في الموقف الذي وقفه جدي ، وجدي الاول من رجال النفط ، إلا ان ابناء جدي الأول أشاروا عليه بأن يرضى بالتسوية .

ولما أنشأ دارسي شركة « بختياري » للبترول برأس مال قدره اربعمائة الف جنيه قنع اعمامي أخيراً بنصيب بلغ ثلاثة في المائة ، وببدل سنوي عن حراسة حقول البترول .

وقد تحالف أفراد قبائل « البختياري » بعد قليل مع قبائل أخرى ، وأجبروا الشاه « ماسافار الدين » على اقامة نظام ديموقراطي .. ولما حاول خلفه « محمد علي » بعد عامين من ذلك ان يرجع عن هذا القرار ، طردوه ، ونصبوا ابنه « اشميد » ، وكان في العاشرة من سنه ، وعينوا له وصياً ... وهكذا اتسع نفوذ « البختياري » في ايران ، اتساعاً لم تعرفه البلاد من قبل .

واعتزازاً بنفوذها الجديد ، سعت أسرتي إلى الفوز بنصيب أكبر في شركة البترول ، ولكن لم تبلغ غايتها من ذلك .. ولما كان الانكليز غير راغبين في زيادة نسبة « البختياري » من أرباح البترول ، وهي ثلاثة في المئة صارح أحد أعمامي القنصل العام جون بريس بقوله :

— « في هذه الحال ، سوف تحصلون على البترول الخام ٩٧ يوماً ، ونحتفظ به في الايام الثلاثة الباقية . »

عند ذلك رفض الانكليز متابعة المفاوضات ما لم يستبدل هذا العم بأحد أبناء عمه .. ولم تتغير نسبة الثلاثة في المائة بعد ذلك .. ولم يتغير شيء كذلك حين تسلمت مهام الشركة ، الشركة الجديدة « شركة النفط الايرانية — البريطانية » في نيسان من عام ١٩٠٩ .

وهكذا بذرت بذور الخلاف ، الذي أثّر في المستقبل تأثيراً حاسماً في مصير والدي ، وجعله يهاجر إلى المانيا ، حيث لقي والدتي واقترن بها .

وقد أصبح كثيرون من « البختياري » خصوماً للانكليز إلى حد جعلهم يقفون إلى جانب امبراطور ألمانيا في الحرب العالمية الاولى .

كان والدي حديث السن في ذلك الحين ، غير ان الكثيرين من

أعمامه اشتركوا في ثورة على الانكليز .. غير ان ايران دفعت بعد الحرب ثمن هذه الثورة غالياً .. فقد رفضت شركة النفط أن تدفع العائدات طوال زمن الحرب ، وزادت ان طالبت بتعويض بلغ نصف مليون جنيه .

واستمرت المفاوضات عدة أعوام .. وفي عام ١٩٢٠ تم الوصول إلى اتفاق ، تخلت الشركة بموجبه عن طلب التعويض ، ولكنها لم تدفع سوى مليون ليرة من مجموع عائدات البترول المستحقة .. وكان ذلك دون ما كانت ترجوه ايران .

* * *

كانت هذه الاعوام أعواماً عجافاً بالنسبة « للبختياري » وبالنسبة لوالدي على الاخص ... وقد أدرك حين بلغ سن الرشد ان القسم الاكبر من ميراثه قد استولى عليه الوصي عليه ، وهو عم مسن من أعمامه .

ولم يبق لوالدي سوى بعض قطع من الارض ، ونصيب ضئيل من عائدات البترول ... مما كان يكفيه بعض الكفاية لمتابعة دروسه ، والتنعم ببعض الرفاه . ووقع اختياره على المانيا المهزومة ، التي كان أهله قد عودوه منذ نشأته على بعض الميل اليها ، وبعض العطف .

وصل والدي « خليل اصفندياري – بختياري » إلى برلين في خريف عام ١٩٢٤ ، وكانت فترة التضخم قد قاربت نهايتها ، وكان أهل برلين يستعدون لأن يحيوا الاعوام المجنونة ، التي كان الـ « كورفور ستاندام » يبدو فيها ، وكأنه محور الدنيا .

وانطلق الايراني الفتى وهو لا يلوي على شيء في عالم الملذات هذا حول كنيسة الذكرى ... ولم يكن يخالط نفسه شك في انه سوف يجد السعادة غير بعيد من هذا المكان .

وفي أثناء ذلك كانت والدتي تتردد إلى مدرسة من مدارس برلين .. كان اسمها « ايفا كارل » وكانت تزور بين الحين والآخر كلية « كلوكو»

وهي فتاة شقراء ، مشرقة الاسارير ، تعتبر نموذجاً لفتيات برلين .. غير ان لفظها لحرف « الراء » كان يكشف عن انها لم تستقر هنا إلا منذ سنوات قليلة ، وانها أتت من بلاد لا تقل بعداً عن البلاد التي جاء منها فتى « أصفهان » ...

كانت والدتي قد ولدت في موسكو ، من عائلة من النازحين الألمان، وكان جدي الأول لأمي صانع أسلحة ، من بلدة سول في « تورنج » ، وقد جاء به إلى روسيا في عام ١٨٦٠ القيصر اسكندر الثاني ، وعهد اليه بادارة مصنع الاسلحة .

أما جدي لأمي فقد ولد في بطرسبورغ ، وكان وكيلاً في روسيا للشركات الصناعية الالمانية : ا. ج. فاربن ، و ا. ا. ج. ، وقد تزوج بفتاة من « ريفا » بمنطقة البلطيك ، تتحدر من أصل ألماني تدعى « الماسيلمر » ورزق منها بثلاثة ذكور هم خالي فرانز ، ووالدتي ايفا ، وخالتي بربارا ، التي تزوجت منذ خمسة وعشرين عاماً بتاجر ، وعاشت وإياه في التشيلي .

وفي إبان الحرب العالمية الأولى نقل اجدادي إلى سيبيريا ، ومكثوا فيها أربعة أعوام ، في « سارنسك » بمقاطعة « بنشاه » .

ولم تكن « سارنسك » معتقلاً ، بل قرية حشدت فيها عدة أسر المانية ، لم يكن لافرادها الحق في الخروج ، والتجول في الشوارع بعد الساعة السادسة مساء .. غير ان الرقابة لم تكن صارمة ، وكان الرجال يكسبون من عملهم بعض المال .

ولما نشبت الثورة ، فر أجدادي إلى الغرب مع بعض الأسر .. وكانت والدتي في الحادية عشرة من عمرها .

واليك روايتها لهذه المغامرة من مغامرات حياتها :

« كانت مؤونتنا من الخبز الذي صنع على شكل مخدات ، وكنا نغلفه بقطع من القماش .. ونحمل

بعض ما لدينا من فراش .. وقـد اجتزنا ، في عربة صغيرة يجرها حصان ، روسيا من أقصاها إلى أقصاها ، تحت أمطار غزيرة عاصفة ... ولما وصلنـا إلى منطقة استراتيجية اختبأنا عدة أسابيع في كوخ من الاكواخ .

« حتى إذا مـا بلغنا حدود البلطيك أخيراً ، كانت هدنة « برست – ليتوسك » قد أبرمت ... وجاءت لجنة عسكرية المانية ، فاستقبلت أسر اللاجئين ، وبعثت بها في قوافل متعاقبة إلى برلين .

« وما ان وصلنا إلى المدينة حتى حشدنا في سجن « مواتيت » الاحتياطي ، لأنه لم يكن في ذلك الحين مأوى سواه ... ولحسن الطالع أتى والتر راتينو ، مدير مصلحة اللاجئين ، وأخرجنا من هذا السجن ... واستأجر لنا شقة في شارع « وستفاليا » ، واشترى أثاثاً له ، وتولى بنفسه نفقات تعليمي واخوتي ، واخواني . »

ويلوح ان والدتي قد ألفت بسرعة بيئتها الجديدة .. وبعد عام واحد توفيت جدتي بداء السرطان .. فتزوج جدي بعد ذلك بقليل بامرأة ثانية من برلين ، طلباً للابناء .

وفي إحدى الليالي ، تعرفت والدتي بوالدي في بيت أصدقاء لهـا ، وكانت في السادسة عشرة من عمرهـا ، شقراء الشعر ، بارعـة الحسن ..

وكان والدي في الثالثة والعشرين من عمره ، أسمر اللون ، طويل القوام ، عريض المنكبين ... وكان تقارب الاضداد .. وكان الغرام من النظرة الأولى !..

كانت والدتي تتردد على المدرسة حين خطبت إلى والدي خليـل

اصفندياري .. واجتمع الشمل بعد خمسة عشر شهراً من ذلك ، في دار جدي ، وعقد القران على يد إمام فارسي ، على سنة الاسلام .

وأقام والدي ووالدتي في برلين عامين ، أنجز والدي بعدهما علمه في الاقتصاد السياسي ، ثم ارتحلا إلى بلاد فارس .

وكان رضا بهلوي ، الضابط في فرق القوازق ، قد خلع أسرة « كاجار » المالكة ونصب نفسه « شاه » في ١٣ كانون الأول من عام ١٩٢٥ ... وكانت محنة لامراء البلاد ، لأن رضا كان واثقاً بأن ايران لا يمكن أن تساير خطوات العصر ، إلا بحكومة مركزية قوية .

ونشبت ثورات في مناطق « فاس » و « جيلان » ، و « بلوخستان » .. وتمردت قبائل « بختياري » على الشاه الجديد وحكمه ، بعد عودة والدي إلى البلاد بقليل ، لأنها اعتبرته دخيلاً يعتزم اضطهادها والقضاء عليها .

ولم يشترك والدي في التمرد ، لأنه كان في ذلك الحين قليل العناية بالسياسة ، لذلك اعتكف مع والدتي في « غافاروك » ، وهي إحدى القرى التي كان قد ورثها ، وأخذ يتابع تطور الاحداث . وقد مد الالمان يد العون لقبيلتنا خفية ، عرفاناً منهم بما كانت قد أسدت اليهم من عون خلال الحرب العالمية الأولى ، كما ان بعض الاوساط في المانيا كانت تحسب ان في امكان المانيا ان تقضي على نفوذ الانكليز في ايران .

وعلى أية حال ، فقد شاهدت والدتي طيارين من الالمان يحلقون فوق منطقتنا ، ويلقون بالاسلحة ، وبأكياس النقود ... غير ان ذلك كله لم يمنع رضا بهلوي من القضاء على التمرد بالدم . كانت هذه الاعوام بالنسبة لوالدتي فترة رهيبة ، ذلك انها لم تكن قد نسيت مآسي الحرب في روسيا ، فوجدت نفسها في أتون حرب جديدة ، وهي بعد عروس ، في مطلع عهد زواجها ... وكانت هذه المحنة بالنسبة اليها ، صدمة عنيفة ، لم تستطع بعدها أن تألف الحياة في ايران أبداً ..

لقد كانت ضحية الحنين إلى الوطن ، وكانت ترقب بصبر نافد اليوم

الذي يتيسر لها فيه أن تعود إلى أوروبا ، ونحن معها .

ولما انتصر الشاه على أعمامي ، بعث اليهم ببرقية دعاهم فيها « بأبنائه العصاة » ، ومنحهم العفو على ما اقترفوا .

لم أكن أعلم ما إذا كان صادقاً ، مخلصاً في عفوه ، أم انها كانت خدعة لجأ اليها ليستدرجهم إلى أراضيه ، لأنه يعجز عن الوصول اليهم ، والايقاع بهم ، وهم في معاقلهم المنيعة .

ومهما يكن من الامر ، فقد عرف الشاه كيف يزيل الريبة من نفوسهم ، حتى ان كثيرين من أعمامي ذهبوا إلى طهران ، وتولوا فيها مناصب مرموقة .

* * *

وفي الذكرى السادسة عشرة لزواج والدتي ، يوم ٢٢ حزيران من عام ١٩٣٢ رأت عيناي النور في مستشفى الارسالية الانكليزية .. وكانت علاقات الصداقة تربط بين والدتي وطبيب الارسالية الدكتور « شافر » ، لأنها كانت الأوروبية الوحيدة في تلك الديار .. وعلى هذا فقد سمح لها ان تضع في غرفة الضيافة .

واختاروا لي اسم « ثريا » ، وهو اسم مجموعة من سبعة كواكب ، تدعى في المغرب – الدب الاكبر – وهي في العالم العربي بمثابة تاج من الجواهر ، ويزعمون هناك بأنها تؤثر في الجو ، والمناخ ، وبأنها تسطع وتتلألأ عند الفجر .

وفي الشرق يعتبر رقم ٧ رقماً مقدساً ، يشمل عجائب الدنيا السبع ، وأيام الاسبوع السبعة ، والابواب السبعة لعرش الطاووس ..!

وكان اسمي على جماله ، الصفة الشرقية الوحيدة تقريباً ، التي رضيتها والدتي لي . فبعد خروجنا من المستشفى بقليل ، قالت والدتي لوالدي :

– « يا خليل ، انني أرى من الأفضل أن أعود وثريا إلى برلين ..

لأننا لا نستطيع أن نضمن لها العناية الصحية اللازمة ، وأخشى أن يصيبها مرض في الجلد ، أو في العينين ، كما يصيب الكثيرين من أطفال ايران ... » .

وأجاب والدي بقوله :

— « انني للأسف ، لا أستطيع ان أصحبكما الآن ، فإذا شئت اذهبي مع الطفلة ، وسألحق بكما حين تسنح لي الفرصة ... » .

وبعد ثمانية شهور تقريباً من رؤيتي النور ، أصبحت قادرة على تحمّل مشاق السفر ، فحملتني والدتي ، وركبنا سفينة اجتازت بنا بحر قزوين ، ثم استقللنا القطار ، فاجتاز بنا أراضي روسيا ، حتى وصلنا برلين .

وبقينا هناك ستة شهور في ضيافة جدي ، وجدتي ، حتى لحق بنا والدي ... فقد آن الاوان ليهجر ايران .. ذلك ان رضا شاه قد عقد في ربيع عام ١٩٣٣ معاهدة جديدة مع الشركة البريطانية — الايرانية للبترول ، ومنذ ذلك الحين لم يعد ينال ستة عشر في المائة من الربح الصافي ، بل اربع شلنات على الطن الواحد من البترول ، بالاضافة إلى بعض التعويضات السنوية ، التي تتباين قيمتها .

وإذا ما كانت المعاهدة قد حسنت وضع ايران ، فقد كان ذلك على حساب قبائل « البختياري » .. ولما كانت الشركة قد امتنعت عن أن تدفع نصيبنا الذي يبلغ ثلاثة في المائة ، فقد استدعى الشاه ممثلي عائلتنا ، وقال لهم :

— « إن تطور ايران ، يقتضي أن أضع يدي على جميع حقول البترول ، وعلى هذا ، قررت شراء انصبتكم . »

وكان العرض مجحفاً ، مما دفع أحد أعمامي ، وكان وزيراً للحربية آنذاك ، إلى ان يرد على الشاه بقوله :

— « ان البختياري يا صاحب الجلالة لا يسعهم قبول العرض ، لأنه

يعني ترحيلهم عن أراضيهم . »

فما كان من الشاه إلا أن أمر حرسه بسوق عمي ، وزير الحربية ، إلى السجن . ثم أصدر أمراً باعتقال أعمامي جميعهم .. وقد توفي وزير الحربية بعد ذلك بقليل ، وهو في سجنه ، وحكم على شقيق والدي الاكبر بالاعدام ، ونفّذ فيه .

وعلى اثر ذلك أطلق الشاه رسله في الخلايا التي كان فيها أعمامي الباقون ، ليقولوا لهم : « ان الشاه قد اضطر آسفاً إلى ان يقدم مثلاً ، وموعظة .. وبين أيدينا عقد شرعي قانوني للبيع ، فهل أنتم مستعدون الآن للتوقيع عليه ؟ »

وكنت في ذلك الحين أخطو خطواتي الأولى على أرض برلين .. وكنا نسكن داراً ذات اربع حجرات في الرقم ١٢ من شارع « نستور » في عمارة نموذجية ، بحي « هالنسي » .

وأذكر فيما أذكر بعض وقائع تلك الفترة ... ومن ذلك انني نتيجة للزواج المختلط كنت أكثر حساسية وعصبية من سائر البنات من لداتي .

وكانت والدتي تروي لي ، انني كنت ، في طفولتي ، قليلة الإقبال على الطعام حتى ان الاطباء نصحوا والدتي بايداعي في احدى دور الحضانة ، علني أقبل على الطعام وأنا بين اترابي .

غير ان النقيض هو الذي حصل .. فقد كان الاطفال يفرغون دائماً من الطعام قبلي ، مما دفع المعنيين بي ، إلى نصحي بعدم المضي في تناول الطعام ، لأنه كان يبرد ، ولا يعود صالحاً .

ولما كنت أحب الحيوانات ، فقد كان جدي يذهب بي في يوم الاحد من كل اسبوع إلى حديقة الحيوانات ، حيث يسمح لي بتقديم الطعام للفيلة ، والقردة .. وقد علمت بعد ذلك انني كنت أشد ميلاً إلى عصافير الدوري ، وكان في ذلك خيبة أمل للجميع .. لقد كانت أفضل ما ألفته ، وما أستطيع ان افهمه .

وذكرى أخرى ما زالت عالقة في ذهني ، تلك هي ذكرى عيد الاطفال « كرومن لانك » .. وكان في مكان الاحتفال لعبة اليانصيب ، ومنصة للرماية ، وعلى المسرح الصيفي كنت أقوم بدور فتاة الاحلام البريئة ، وكان دوري يقتصر على ان أستفيق من النوم على قبلة أحد الامراء ... كان ذلك كله في الزمن الحلو ، الزمن السعيد .

وكنا في الصيف نذهب عادة إلى بلدة « بانسان » على بحر البلطيق .. وتروي والدتي ان الصور كانت تلتقط لي يومياً ، لأنني لم أكن أشبه سائر الاطفال .

حتى مصوري الصحف كانوا يلاحقونني ، ويطلبون إلي أن القي بنفسي في الماء ، ليلتقطوا لي الصور الحية .

وكان هناك ذراع داخلي للبحر كان يعجبني إلى أبعد حد ، وكنت أصيح :

— « لا .. لن ألقي بنفسي في المحيط الكبير .. ولن أفعل ذلك إلا في هذا البحر الصغير . »

وكانت هموم أهلي تزداد في ذلك الحين مع الايام .. فمنذ ان استولى الشاه على أسهمهم ، لم تعد لندن تبعث بالعائدات ، فضلاً عن ان حصاراً قد ضرب على تحويل النقد في فارس ، حتى ان والدي لم يعد يتسلم دخل ممتلكاته هناك .

وكانت حاجته للمال تزيد باستمرار ، ووصل الضيق به ، في عام ١٩٣٧ إلى أن يقول لوالدتي :

— « لم يعد في استطاعتي بعد الآن أن نبقى طويلاً في برلين .. واني لأرى من الخير أن نعود إلى أصفهان . »

وفي أصفهان كانت العاصفة قد هدأت بعض الشيء .. فقد خفض الشاه عقوبة السجن على أعمامي ، بعد أن كانوا قد تنازلوا له عن حقوقهم .. ولم يفرج عن بعضهم إلا بعد أن تعهدوا بأن لا يعودوا

أبداً إلى ديارهم .. وكان على احد أفراد الاسرة ان يقايض ممتلكاته العقارية ، بأراضي زعيم قبيلة من « رامسار » على بحر قزوين .

وكان رضا شاه يسعى بذلك ، إلى اضعاف نفوذ مختلف القبائل ، وإلى تخفيف شوكتها ... غير ان ذلك لم يقلق والدي ، لأنه كان يملك مساحة لا قيمة لها من الأرض .

وفي خريف عام ١٩٣٧ أخذنا طريقنا ، عائدين إلى ايران . وقطعنا من جديد أراضي روسيا ، ثم ركبنا السيارة بعد ذلك من « بهلوي » ، إلى « أصفهان » ... وكانت الطرق وعرة ، فاستغرق مسيرنا أياماً كاملة .

وكانت والدتي تروي لي — حين يحلو لها ان تذكرني بدرجة عنادي في ذلك الحين — انني جعت جوعاً رهيباً ، في أثناء رحلتنا هذه، وأخذت أصيح :

— « ان ثريا تشتهي الحنكليس !.. »

وحاولت والدتي أن تفهمني ان من العسير ان نجد « الحنكليس » في قلب صحراء ايران ، وقدّمت لي بدلاً عن ذلك الحلوى ، والشوكولاته ولكن منذ استجامنا على ساحل بحر البلطيق ، كان الحنكليس الطعام المفضل عندي ، وكنت أصيح في عناد :

— « لا .. ان ثريا تشتهي الحنكليس .. »

وعند المساء توقفنا في مدينة صغيرة ، لنبيت فيها .. ونزلنا في النُزل الوحيد في تلك المنطقة ، وقالت والدتي وهي تطمئنني :

— « سوف يقدّمون لنا الحنكليس . »

ولم يكن للأسف في هذا المنزل ، شأنه شأن أمثاله في إيران ، سوى الطيور طعاماً .. وقد قدم لنا الدجاج .. وما ان وقعت عيناي عليه حتى صحت :

— « ولكن هذا ليس الحنكليس .. ان ثريا تريد الحنكليس . »

ومع انني كنت جائعة ، فقد رفضت ان أمد يدي إلى الطعام . وفجأة التمعت في ذهن والدتي فكرة عبقرية وقالت :

— « ولكن هذا هو الحنكليس الفارسي ، انهم يسمونه دجـــاج الحنكليس ، أو حنكليس الدجاج ... انه لذيذ الطعم مثـــل حنكليس المانيا . »

وأخيراً ملت إلى الاقتناع ، وذقت لقمة منه ، ثم أجهزت على الدجاجة بكاملها ؟..

وبعد مسيرة أربعة أيام لاح لنا فجأة في الافق البعيد نور ذهبي .. ولما اقتربنا ظهرت لنا معالم مدينة كبيرة تتلألأ في سمائها عند المغيب عشرات القباب الزرقاء المائلة إلى الخضرة ، والمآذن .. لقد كانت « أصفهان » بلد أبي .

لم يستقبلنا الناس هناك بعقود الزهر .. فلقد كان أهلي شبه معزولين سياسياً ، وخاضعين لرقابة السلطات .. ولم يكونوا يستطيعون الخروج من المدينة إلا بأذن من سلطات الشرطة .

وما عدا ذلك فلم يعكر صفوة حياتنا أحد ، ولم أشعر بهذا كله .. لقد كنت في شغل باكتشاف هذا العالم الجديد .



دسائس القصر

كان والدي قد قص علي في برلين قصص الف ليلة وليلة . وما لبثت حتى وجدت نفسي وقد انتقلت فجأة إلى مسرح أحداث الف ليلة وليلة ، وألفت سريعاً البيئة الجديدة .. لقد استيقظت طبيعتي الشرقية مع ان سني لم تتجاوز الخمسة الأعوام .

وقد أعجبني « ميدان الشاه » ، أكبر ميدان في العالم ، بفسيفسائه ، وبمساجده الضخمة .. وكنت أرافق بنات اعمامي إلى السوق ، وارقب صناع السجاد ، والحلي الفضية .. واشهد كيف تعبأ مواسير المياه ، وكيف تعلف الحمير والجمال .

وفي المساء كانت مرضعتي تزيـد الصورة وضوحاً ، فتقص علـيّ أساطير لا تنتهي ، وملاحم ، وحكايات فارسية كثيرة .. وهي من

بقايا تقاليد الفرسان القديمة ، التي زالت في أيامنا هذه .

وكانت روائع الخيال الشرقي هذه ، تنطبع في نفسي بكل غناها ، مع انني لم أكن أشعر إلا شعوراً مبهماً بجمالها ، ولم أكن أدرك بعد ، الحكمة الكامنة فيها .

ولما بلغت سن المراهقة ، ظللت وفية لهذا كله ، وكنت لا أكف عن قراءة الشعر الفارسي .

وقد قدمت جدتي لنا أحد منازلها الريفية ، ولم تلبث عينا أخي أن رأتا النور بعد ذلك بقليل .. وكان والدي في هذه الاثناء قد بنى دارة ، وضع تصميمها بنفسه ، وكانت لها جدران ، سميكة تقينا الحر .

أما في الشتاء فقد كانت تدفأ بالمواقد ، وأفران الحطب ، لأن التدفئة المركزية لم تكن قد عرفت في أصفهان .

وكان في الدارة حمام يجري فيه الماء الحار ، مما كان يعتبر آنذاك ترفاً في ايران .

وقد بنى والدي ، فيما بعد ، دارة أكبر ، سكناها حتى يوم عودتنا إلى أوروبا .

وتولى والدي بعد ذلك ، ادارة مدرسة مهنية ، وكنت قد بلغت سن الدراسة . وفي ذلك العهد لم تكن العناية الصحية متوفرة في مدارس ايران .. وكان كثيرون من الاطفال عرضة للقمل الذي يعلق في أجسامهم ويكون مصدراً لأخطار المرض المختلفة .. مما جعل والدتي تكره أن أذهب إلى المدرسة .

ولحسن الطالع كانت قد نظمت دروس خاصة لابناء الالمان المقيمين في اصفهان ، تديرها الآنسة ايللي ، وهي من مقاطعة « رينانيا » . وكان ذلك بالنسبة الينا الحل ، الذي نترقبه ، وأخذت أتردد على هذه المدرسة حتى حزيران من عام ١٩٤١ .

غير ان جيوش الحلفاء احتلت ايران ، ورحل الالمان الرجال إلى

استراليا ، ورحلت النساء والاطفال إلى المانيا ، فلم تبق منهن سوى الآنسة ايللي مانتيل .

ومنذ ذلك الحين كنت أذهب اليها كل صباح ، لاتلقى العلم ، والتدرب على عزف البيانو ... واني وان لم أبلغ خلال سنوات درجة كبيرة من المهارة في هذا المجال ، الا ان هذا التمرين العملي قد أشاع في نفسي السعادة ، وعمّق حسي بالموسيقى ... وللموسيقى علي فضل ، وأدين لها بأجمل مشاعر وانطباعات حياتي وأصفاها .

ولما عدت بعد ذلك إلى أصفهان امبراطورة ، دعوت ايللي مانتيل إلى حفل استقبال رسمي ، وتبادلنا معاً ، بتأثر ، ذكريات تلك العهود .

وكان والدي حريصاً على أن أضيف إلى ثقافتي الالمانية ، دراسة البرنامج المدرسي الايراني ... وعلى هذا أخذت معلمة فارسية تزورني بعد ظهر كل يوم لتلقني كل ما يفيدني في هذا المجال. غير انني كنت كثيرة الحركة ، كثيرة الضوضاء ، مما حز في نفس هذه المعلمة الطيبة ، وسبّب لها الضيق ، والاذى .

ومن ذلك انني كنت أحب تسلق أشجار حديقتنا ، والاختباء في أعلى الفروع ... وكانت المعلمة المسكينة تبحث عني ، فلا تجدني .. وما أزال أذكر وقوفها تحت الاشجار ، وهي تناديني نداء فيه اللياقة ، وفيه الاشفاق معاً :

— « مدموزيل ثريا .. أرجو أن تتلطفي بالهبوط من فوق الشجرة .. إذا كنتِ لم تكتبي وظائفكِ فلا بأس عليكِ ، وكل البأس في ان تسقطي من الشجرة ... »

ومع هذا كله فقد كنت أتابع بدقة البرنامج الرسمي ، وادخل كل عام الامتحان لانتقل إلى صف ارفع ... وبذلك كنت أستفيد من أفضل ما في العالمين .

كانت طفولتي جميلة إلى أبعد الحدود ، وكنت أدرك بوضوح ، عاماً بعد عام ، قيمة هذه الفترة من حياتي ... ويقيني ان الطفولة السعيدة تهب قوة خفية لا تضيع أبداً ، ولو طرأ عليها موقتاً بعض الوهن ، والفتور .

وقد كان لاحتكاكنا بالطبيعة أثر كبير في حياتنا ... ففي خلال العطلات كنا نذهب إلى « غافاروك » التي يملك والدي فيها مزرعة ، ومنزلاً . وكان الكثيرون من أبناء وبنات عمي يعيشون هناك ، مما لم يحرمني من أصدقاء اللهو والمرح .

وكنت كل يوم تقريباً أقوم بجولات على حصاني ، أزور فيها المغاور ، والواحات المجاورة ، بصحبة والدي أحياناً ، وأحياناً بصحبة بعض الاصدقاء ...

وكانت المخاطر الكثيرة تتهددنا في الصحراء من أفاع ، وذئاب ، وفهود ، ولكن ذلك كله كان يشوقنا إلى المغامرة ، عوضاً عن أن يخيفنا ، ويثبط عزائمنا .. زد على هذا انني قد أتقنت الرماية ، ولما بلغت التاسعة من عمري كنت لا أخطئ أي هدف ثابت ، أو متحرك ، وأرمي أي طائر عابر ، ومع حداثة سني ، فقد كنت أدعى في أحيان كثيرة إلى رحلات لصيد الغزلان ... غير انني في بداية الأمر كنت أجهش بالبكاء كلما صرع الصيادون غزالاً ، ولكنني تعودت ذلك وألفته مع الايام ... ولا أزال حتى اليوم بارعة في الرماية ، والصيد .

وفي عام ١٩٤٤ قرر والداي أن يبعثا بي إلى مدرسة لاحدى الارساليات الانكليزية ، تعلّم الأطفال الايرانيين .. وكانت تدير هذه المدرسة الآنسة « ايدين » ، وكانت النظافة فيها تزيد عن نظافة سائر مدارس أصفهان .

وكانت دراستي السابقة تؤهلني لأكون في الصف الرابع .. غير ان القيّمين على المدرسة تبينوا ان الدروس الخاصة ، التي تلقيتها ، قد

جعلتني أخطو خطوة واسعة إلى الأمام .

وهكذا تمكنت منذ دخولي المدرسة أن أتجاوز ثلاثة صفوف . وفي سن الرابعة عشرة كنت أتقدم لامتحان نهاية الدروس ، الذي يعادل الامتحان الثانوي في البلدان الغربية .

وكانت الحرب العالمية الثانية قد بلغت نهايتها ، وأخذ يراود والدتي الحنين إلى أوروبا ، وكانت السنوات العشر التي أمضتها في ايران تبدو لها طويلة لا تنتهي ... أضف إلى هذا انها كانت تأمل دائماً في ان يكتسب ولداها ثقافة أوروبية .

ولما كان دخل والدي من ممتلكاته قد ارتفع ارتفاعاً كبيراً فقد أخذت تحثه على العودة إلى أوروبا .. وفي مطلع عام ١٩٤٧ توجهنا جميعاً إلى سويسرا ، واستأجرنا شقة في « زيوريخ فوليشوفن » بشارع « زياغل » .

وبعث بي أهلي إلى مدرسة « لابرقتانير » الداخلية في مونترو ، لكي أتعلم اللغة الفرنسية .. وبقيت في هذه المدرسة حتى خريف عام ١٩٤٨ ، ثم التحقت بمعهد « لي روزو » في لوزان .

كان هذا العهد عهداً جميلاً .. فقد رافقت والدي ، ووالدتي في اجازة إلى « لوغانو » ، وفي الشتاء كنت امارس التزلج على الجليد في « غستار » و « سان موريتز » ... غير ان أهم ما كان في حياتي كتلميذه داخلية انني اكتسبت سلسلة صداقات دائمة .

ففي « لا برنتانير » كانت أقرب صديقاتي الفتاة البرتغالية « ماريا انطونيو ببيلو دو ماغالهاس » ، والفتاة الايطالية « ماريا غارتسيا بيغوري » التي تقيم عادة في روما ، حيث تمتهن الهندسة .

وفي معهد « لي روزو » كانت أقرب الصديقات إلى نفسي الفتاة اليونانية « واندا بابانيكولاس » ، التي تقيم اليوم في أثينا مع زوجها ، وكذلك الفتاة الاسبانية « سيلفيا ماتان » ، التي تقيم اليوم في نيويورك .

ولم تنقطع علاقاتي مع هؤلاء الفتيات طول السنوات السبع التي أمضيتها

في ايران .. وكن ، ما عدا أهلي ، الوحيدات اللواتي ارتفعت بيني ، وبينهن ، الكلفة ، حتى انهن كن يكتبن إلي باسمي دون لقبي ، لأنهن لم يرين فيّ الامبراطورة ، بل ثريا اصفندياري الصغيرة ، التي عرفنها عند بحيرة جنيف ... وظللن وفيات لي حتى بعد طلاقي من الشاه .

كنا نشكل في سويسرا جماعة مرحة من الفتيات ، وكنا نحصل أحياناً ، بعد ظهر أيام الاحد ، على اذن بالذهاب للرقص ، ولست أذكر حفلتي الراقصة ، الكبيرة ، الأولى في مدرسة « لابرانتانير » الداخلية ، فقد ارتدينا فيها فساتين طويلة ، وسمحنا لطلاب خجولين ، من الصف الاول ، في المدارس الخاصة ، المجاورة ، بالتودد الينا .

وكانت كل منا طبعاً ، تشعر ببعض الميل إلى أحد مراقصينا ، وتجده « بديعاً » . ولكنها لم تكن سوى خلجات غرامية ، عابرة ، حتى اني لا أستطيع أن أتذكر اسماء الذين راقصوني .

الا ان طلبات الزواج ، التي بدأ بعض الايرانيين يقدمونها إلي كانت أكثر جدية .. وكانوا يذهبون إلى « زيوريخ » لمقابلة والدي وطلب يدي منهما .

وكان بعضهم يقابلونني ، عندما آتي في اجازة ، بينما كان الآخرون يعرفونني ، من العهد الذي كنا فيه في اصفهان . وكانوا واثقين بأني سأصبح صبية جميلة .

كان جميع طلاب يدي من عائلات عريقة ، وبينهم واحد من سلالة أسرة « كاجار » ، المالكة . وكان شائعاً ، في أوساطهم ، ان « يضمنوا » لأنفسهم ، بأسرع ما يمكن ، فتيات من نوعي ، لأننا لم نكن كثيرات في ايران ، ولم يكن والداي يطلعانني على هذه الطلبات ، لأنهما كانا يريدان ان اكمل دراستي ، أولاً .

وقد شاركتهما هذا الرأي تماماً . فلم أكن أفكر في الزواج ، وكنت أريد دراسة تاريخ الفن ، وتعلم عدة لغات أجنبية أولاً . وهكذا

سافرت إلى لندن ، في صيف عام ١٩٥٠ ، لتحسين لغتي الانكليزية .
ولكن ، في هذه المرحلة تقريباً ، بدأت تنتابني مشاعر غريبة ، وشعرت ، في أعماق نفسي ، بأني سأواجه مصيراً خاصاً ... وكان ذلك يبدو لي سخيفاً جداً ، حتى اني لم أجرؤ على مصارحة أحد به .
ولكن هذا الشعور أخذ يزداد قوة . وبعد مدة قصيرة وقعت أحداث حقيقية ، وجّهت حياتي في اتجاه مختلف تماماً .
في أحد أيام شهر ايلول من عام ١٩٥٠ ، جاءني ابن عمي « غودارس بختياري » ، في غرفتي في لندن ، وسألني :
— « هل تستطيعين تخصيص ساعة لي يا ثريا ؟ أود أن ألتقط بعض الصور لكِ . »
وصحت به :
— « صور أخرى ؟! ولكنك صورتني مرتين هذا الاسبوع . »
وقال وهو يهز كتفيه :
— « لم تكن الصور ناجحة تماماً » .
وكان « غودارس » وابن عم آخر لي يدعى « مالك شاه » آنذاك يدرسان ، في نفس المعهد اللغوي ، الذي كنت أدرس فيه . وكنا نقيم مع العمة « شوكت » ، والدة غودارس ، في نزل عائلي صغير في « سانت جيمس بارك » . وكنت أعرف ان « غودارس » مصور بارع ، ولكن حماسته المفاجئة أثارت شكوكي :
وقلت له :
— « هناك سر في هذا الأمر ، فأنت لا تهدر كل هذه الافلام عادة . »
وابتسم ابن عمي بارتباك ، وأجاب :
— « لقد كتبوا إلى والدتي في طهران ، وطلبوا منها هذه الصور » .
— « من كتب اليها ؟ »
— « أختها « فروغ صفر » ، وقد قالت انه ليست لديها سوى صور

قديمة لكِ ، وانها تريد صوراً أحدث . »

كان هذا الطلب لطيفاً من « فروغ صفر » ، ولكنني لم أكن أذكر اني قابلت هذه السيدة قبل ذلك الحين ، فلماذا اذن أخذت تبدي هذا الاهتمام المفاجئ باحدى قريباتها البعيدات ؟

وأخيراً أوضح « غودارس » لي الحقيقة ، فقال :

— « أظن انها تريد عرض هذه الصور على الامبراطورة الوالدة .. انهما صديقتان ، وتعتقد عمتي بأنكِ قد تصبحين زوجة الشاه . »

وأضاف قائلا : « انه علم بأن محمد رضا بهلوي يشعر كثيراً بالوحدة منذ طلاقه من الامبراطورة فوزية ، وانه يبحث بالحاح عن زوجة جديدة » .

وسألته :

— « ما سبب هذا الشرف الذي يصيبني ؟ »

— « كانت لدى العمة « فروغ صفر » صورتان لكِ ، وأنتِ بثياب التزلج ، عرضتهما على جميع معارفها . وقد عرضت الصورتان على الشاه ، فطلب المزيد من صوركِ . »

ولم أهتم كثيراً بكل ذلك ، ولكنني تلقيت ، بعد يومين ، رسالة مستعجلة من أبي من « زوريخ » ، لم أحتفظ بها بكل أسف ، وكان نصها كما يلي تقريباً :

« وعدتكِ ، كما تعرفين ، باصطحابكِ إلى طهران في الخريف ، وقد نضطر للقيام بهذه الرحلة قبل ذلك بقليل .. فقد وصل ابن أخي رستم إلى هنا ، وطلب مني ، باسم الشاه ، أن أقدمك في البلاط ، بأسرع ما يمكن . وبما ان هذه الدعوة لا تربطنا بأية صورة من الصور ، فقد قبلتها » .

ومنذ تلك اللحظة لم يدع أبناء عمي فرصة تمر ، دون أن يسخروا

بي .. وكانت فكرة أن أصبح امبراطورتهم تبدو لهم مضحكة ، إلى أقصى حد . وكان « غودارس » مثلاً يقترب مني وهو ينحني مراراً ويسألني :

— « هل يحلو لجلالتكِ أن نذهب مساء غد إلى « كوفنت غاردن » ؟ لدينا ثلاثة مقاعد ممتازة في الشرفة الرخيصة . »

وفي هذه الاثناء كانت صوري قد أرسلت إلى طهران . وبعد بضعة أيام وصلت الاميرة « شمس » ، شقيقة الشاه الكبرى ، مع زوجها إلى لندن .

ونظراً لمعرفتها الجيدة بـ« مالك شاه » ، فقد اتصلت به هاتفياً ، ودعتنا جميعاً إلى تناول العشاء معها في السفارة الايرانية .

كانت « شمس » امرأة أنيقة ، في الثالثة والثلاثين من عمرها ، جميلة ولطيفة . وقد تفاهمت معها فوراً ، وقالت لي خلال الطعام :

— « علمت بأنك آتية قريباً إلى طهران مع والدكِ يا آنسة « اصفندياري » ، ألا تودين أن ترافقيني بضعة أيام إلى باريس ؟ يمكننا بعد ذلك أن نستقل جميعاً الطائرة إلى طهران » .

ووافقت على اقتراحها ، دون أن أفكر طويلاً . وبعد ، فأية فتاة في الثامنة عشرة كانت ترفض لو وجدت نفسها مكاني ؟

وفي باريس نزلنا فندق « كريون » في ساحة « الكونكورد » . وفي الايام الاولى زرنا محلات الخياطة الكبيرة ، وذهبنا كثيراً إلى المسرح .

وكانت أحاديثنا تدور ، بصورة خاصة ، حول الفساتين والكلاب ، إذ ان « شمس » كانت مغرمة جداً بها . وكان كثيرون يدعون انها كانت تحب كلابها ، أكثر من أولادها .

ومر أسبوع تقريباً دون أن تطرق « الاميرة شمس » الموضوع الهام . وأشعر الآن بأنها كانت تجد صعوبة في اختيار الكلام المناسب .

وأخيراً ، وأثناء سيرنا في شارع « ريفولي » ، في صباح أحد الأيام، تحدثت عن أخيها . وروت لي كم يشعر بالوحدة ، ويتمنى السعـادة العائلية .

ثم أضافت قائلة بلهجة عفوية :

— « سيكون بديعاً طبعاً ، لو كانت فتاة مثلكِ مستعدة لمشاركة محمد رضا حياته !.. »

ولعله كان واجباً أن يزداد خفقان قلبي في تلك اللحظة ، فما كان حتى الآن ، مجرى اتصال غير رسمي ، أصبح فجأة عرضاً صريحاً .

إلا انني لم أشعر بشيء معيّن ، فقد كان اختياري امبراطورة لايران يبدو لي خيالاً .

واكتفيت بالرد بضحكة ، وبدا لي ذلك أحسن موقف ، لأني لم أكن أستطيع آنذاك اتخاذ أي قرار . وكانت تربيتي كلها تمنعني من أن أعطي وعداً لشخص لا أعرفه ، حتى لو كان شاه ايران !..

واشتركت الاميرة « شمس » معي في الضحك .. وبـدا عليهـا بوضوح انهـا مسرورة ، لاجتيازها المرحلة الاولى .. وسرعـان ما اكتشفت ان دور « كشاف الغرام » ، الذي قامت به ، لم يكن متجرداً تماماً .

وقد قالت :

— « لقد أصبح لكِ مكان في قلبي يا ثريا . وإذا تزوجتِ أخي ، فسأصبح أحسن صديقة لكِ ، بكل طيبة خاطر . لقد تألمت كثيراً في البلاط ، في عهد الامبراطورة فوزية » .

وسألتها بلباقة :

— « وكيف ذلك ؟ »

— « كانت فوزية تفضل أختي أشرف .. وقد كانتا معاً دائمـاً .. وانتهت « أشرف » بهدم زواج الامبراطورة ، ويجب أن تحذري من

شقيقتي لأنها طموحة . . »
وهكذا ، سمعت لأول مرة ، بالنفور العميق القائم بين الشقيقتين .. وسأتحدث في مكان آخر عن الاسباب العميقة لهذا النفور . وكل ما فهمته آنذاك ان « شمس » تريد أن تجعلني امبراطورة لكي تكسب نفوذاً أكبر في البلاط .

وكانت تأمل باقصاء « أشرف » إذا قادتني بنفسها إلى الشاه وأصبحت أقرب كاتمة أسرار إليّ .

والواقع اني لم أكن أعرف آنذاك ، إلا القليل عن حياة البلاط الداخلية . وقد تعلمت في المدرسة تاريخ ايران الرسمي ، ورأيت طبعاً صور الشاه ، ولكنني لم أكن أعرف تماماً سائر أفراد العائلة ، لأنهم كانوا يعيشون منفيين في جنوب افريقيا خلال سني دراستي . ولم أكن أعرف عدد إخوة الشاه ، وأخواته ، أو أسماءهم .

وأرتني « شمس » صور ذويها وأهم شخصيات بلاط طهران ، ووصفت لي اطباعهم ، وجعلتني أحفظ أسماءهم .

وقد أظهرت لي قضيتان ، حتى في باريس ، أهمية دسائس البلاط . وكانت القضية الأولى تتعلق بزوج الاميرة ، وهو رجل ذكي ، وسيم من عائلة موسيقيين .

وأسرّت لي « شمس » قائلة :

— « عندما وقعت في غرامه ، أراد أخي ان يحول دون زواجنا ، إذ ان الموسيقيين في ايران لا يتمتعون بأي مركز في المجتمع ، وقد هربنا أخيراً إلى القاهرة ، وتزوجنا سراً .. »

وعاش الزوجان عدة سنين في المنفى . وبعد ولادة طفلهما الثاني ، كتب الشاه إلى شقيقته يقول :

— « اني مستعد للسماح لكما بالعودة إلى طهران ، ولكن بشرط واحد : هو أن يغيّر زوجك اسمه ، وكنيته . »

وقد أطلق زوجها على نفسه اسم « مرداد بهلبود » ومنع ، منذ ذلك الحين ، من معاشرة ، حتى أفراد عائلته ، وأجبر على انكار أصله ، رغم ان ذلك كان سراً شائعاً في أوساط البلاط .

وحدثت القضية الثانية امام عيني . فقد كانت الاميرة « فاطمة » ، وهي أخت « شمس » الصغرى ، غير الشقيقة ، تنزل هي الأخرى آنذاك في فندق « كريون » . وكانت قد تزوجت ، في شهر نيسان ، من الاميركي « هيلاير » ، رغم معارضة الشاه أيضاً .

وكنا نخرج معهما . وكان « فنسنت » شاباً اشقر الشعر ، لم يخلف في نفسي أي انطباع خاص . وكان يردد دائماً انه يؤلف كتاباً ، ولكن الكتاب لم يصدر أبداً .

ولم يكن « فنسنت » أو زوجته يعرفان شيئاً عن مشاريع « شمس » بشأني . وقد قدمتني اليهما على اني الآنسة « اصفندياري » ، واعتبراني مجرد طالبة ايرانية في باريس . وكانا مشغولين تماماً بقضيتهما .

وكان المستر « هيلاير » قد تصادق ، في جامعة « هارفارد » مع محمود رضا ، شقيق الشاه الاصغر ، وقد اصطحبه محمود إلى الصيد في ايران وهناك قابل الشاه ، وفاطمة ، لأول مرة . وقابل الاميرة في ما بعد في روما وعرف كيف يغزو قلبها .

ولم يجد الشاه هذا الصهر مناسباً للعائلة الامبراطورية فمنع الشابين من دخول بلاده .

ولكن شمس ، التي لم تنس أيام بؤسها ، أشفقت عليهما فأطلعتهما على الدور الذي ينتظرني ، وقالت :

— « سأحاول أن أساعدكما . وإذا عقد الشاه زواجاً سعيداً فسأنجح دون شك ، في مصالحته معكما . »

ومنذ ذلك الحين أخذ الزوجان ينظران إليّ كأني أمسك بمصيرهما بين يدي . ولكنني كنت مترددة كثيراً . فقد بدت لي حياة البلاط معقدة

جداً ، بعد كل ما روته لي شمس ، بالاضافة إلى اني لم أكن أستطيع أن أنسى ان عائلتي كانت ، حتى عهد قريب ، مشتبكة في نزاع حاد مع عائلة بهلوي .

وفيما كانت الاميرة ملازمة فراشها ، لاصابتها بالكريب ، اتصلت هاتفياً بأبي وقلت له :

— « لا أعرف ما يجب أن أفعل يا أبي . وأخشى ألا نستطيع التراجع بعد وصولنا إلى طهران . »

وأجابني :

— « لا ، هذا غير صحيح يا ثريا . انكما تحتفظان ، أنتِ والشاه ، بحق اتخاذ قراركما بحرية . »

— « وماذا يحدث لو رفض أحدنا ؟ »

— « لن يعلم أحد بذلك ، ولن تصاب سمعتكِ بأية شائبة ، وسأرسلكِ إلى أميركا لقضاء سنة أو سنتين ، حتى يكون الناس قد نسوا هذه القضية . »

وقد طمأنني هذا الكلام . وبعد قليل لحقنا جميعاً بأبي في روما . وبقيت أمي في « زوريخ » رغم انها كانت تود لو ترافقني ، ولكن أخاها جاء لزيارتها فجأة ، ولأول مرة منذ سبع عشرة سنة .. وكانت تترقب مجيئه .

وفي السابع من تشرين الاول ، استقللنا طائرة ليلية إلى طهران . وكانت شركة الطيران قد أعدت سريرين ، لشمس ولي . وقبل ان ننام قرأنا في احدى صحف روما المسائية النبأ التالي :

« الطالبة الايرانية الشابة ثريا اصفنديار ي ، موجودة في روما . ويقال انها ستصبح خطيبة شاه ايران الجديدة . »

ورغم اني لم أقض في روما سوى اثنتي عشرة ساعة ، فقد أثبت

صحافيو العاصمة الايطالية انهم أبرع من زملائهم الباريسيين . وكانت هذه أول مرة في حياتي أرى فيها اسمي مطبوعاً في جريدة .

وضايقني ذلك ، فأسرعت باخفاء الصحيفة ، حتى لا يرى النبأ عمي « اسد بختياري » ، الذي كان يسافر صدفة في نفس الطائرة . وكان عائداً من اجازة في سويسرا ، ولا يعرف شيئاً عن سبب سفري إلى طهران .

ولم يخطر لي آنذاك ان هذا العم نفسه ، هو الذي سيحمل إليّ في « بون » ، بعد سبع سنين ، وثيقة الطلاق ، التي وضعت حداً لجزء من حياتي ، كان يشاهد بدايته .

وعندما هبطت الطائرة في مطار « مهراباد » كنا قد اتفقنا على تجنب لفت الانظار الينا ، وبقيت في الطائرة ، حتى نزل جميع الركاب الآخرين .

ووجدت الأميرة شمس اخوتها في استقبالها ، وانتظرتني في سيارة خارج المطار .

وعند ذاك صعدت امرأة قصيرة القامة ، بدينة ، إلى الطائرة ، ورحبت بي .. وقد كانت السيدة « فروغ صفر » المرأة التي « اكتشفتني » .

وقد اصطحبتني إلى دارة شقيقها الامير حسين ، والد مالك شاه ، واقمت عندهما ، إذ ان حسين ، كان يتمتع بأرفع مكانة بين أفراد عائلة بختياري ، المقيمين في طهران .

وكان البرنامج يقضي بأن يتم في الغد تقديمي إلى الشاه في البلاط ، ولكن ما كدت أفرغ حقائبي ، واستعد قليلاً حتى وردت مخابرة هاتفية من القصر جاء فيها :

— « هل يمكن للآنسة « اصفندياري » ان تأتي هذا المساء لدى الامبراطورة الوالدة ؟.. لقد أعدت هذه الاخيرة عشاء عائلياً بسيطاً . »

ولم يكن باستطاعتي أن أرفض طبعاً ، رغم اني كنت متعبة جداً ، بعد هذه الرحلة الليلية بالطائرة .

وفي حوالى الساعة السابعة ارتديت أحد فساتيني المصنوعة في باريس واستعددت ..

والغريب اني لم أكن أشعر بأي وجل .. ولعل السبب هو اني لم أجد الوقت الكافي للتفكير ، والتساؤل ... وقبل أن أستطيع التفكير ، وجدت نفسي في الطريق إلى منزل الامبراطورة الوالدة مع والدي ، و « فروغ صفر » .

وكانت السيدة المسنة تنتظر في إحدى صالات الاستقبال . وكان هناك أيضاً إخوة الشاه ، وأخواته ، وإحدى الوصيفات .

وقد حيتني بلطف ، وتبادلنا عبارات المجاملة ، مدة ربع ساعة .. ومن حسن حظي اني كنت أعرف منذ صغري هذه العادة الايرانية ، التي تتألف من أسئلة مفصلة ، عن صحة محدثنا ، وصحة أقاربه ، ومن أجوبة منمقة ... وقد أتاح لي ذلك تبادل هذه العبارات دون صعوبة .

وبعد ذلك دخل أحد الخدم وأعلن :

— « جلالة الشاه . »

ونهضنا جميعاً ، بما فينا والدته ، وظهر محمد رضا ، وهو يرتدي بزة العرض ، برتبة جنرال في سلاح الطيران الايراني ، وقد عرفت في ما بعد ، انها البزة المفضلة لديه .

وقبّل والدته ، بينما كانت اخواته ينحنين أمامه ، وبعد ذلك جرى تقديمي اليه ، وانحنيت بدوري أمامه .

وكانت جميع التصرفات متحفظة ، ولاحظت ان الشاه يحدث والدته بصيغة الجمع ، وان اخوته يدعونه « صاحب الجلالة » .. وكانوا يستعملون هذا اللقب ، حتى عندما يكونون مختلين به . وإذا قلت منذ الآن ،

اني والشاه ، لم نتبادل أبداً الحديث بصيغة الفرد ، فقد يلقي ذلك ضوءاً على جو البلاط بكامله .

كان الشاه لطيفاً ، متواضعاً ، وعندما انتقلنا لتناول الطعام دعاني إلى الجلوس بجانبه على المائدة التي تضم خمسة عشر شخصاً ، رغم ان البروتوكول لا يعطيني الحق باحتلال هذا المكان ، نظراً لأننا لم نكن مخطوبين بعد .

واذكر انه استفسر بالتفصيل عن دراستي في انكلترا ، وسويسرا . ثم تحدثنا عن منطقة « مونترو » ، وعن لوزان ، التي كان يعرفها بقدر معرفتي بها ، إذ انه هو الآخر قضى مدة في مدرسة داخلية سويسرية .. ولاحظت بعد قليل انه كان يشعر بالميل نحوي ، واني استجيب بصورة عفوية لهذا الميل .

وبعد الطعام تخلت كل العائلة عن تحفظها قليلاً ، ولكنني كنت ازداد تعباً ، فانصرفنا في الساعة الحادية عشرة .

وعندما وصلنا إلى المنزل سألني أبي :

– « هل أعجبكِ ؟ »

– « نعم . »

– « وهل أنتِ مستعدة للزواج منه ؟ »

– « هل يتحتم عليّ أن أقرر الآن ؟ »

وأجاب أبي :

– « هذا أفضل .. فقد طلب مني الشاه أن أرجوكِ الاجابة الليلة . »

تزوجت وأنا بين الحياة والموت

تطورت الامور بأسرع مما كنت أتوقع ، ولكن شعوري بالسرور لم يترك مكاناً للدهشة ، أو الاضطراب . وبدت لي هذه الخطوة ، بين دقيقة وأخرى ، أمراً طبيعياً جداً . وقد أعلنت موافقتي ، دون أن أتردد لحظة واحدة .

وفي صباح اليوم التالي ، نشرت صوري في جميع الصحف ، وجرت الخطبة الرسمية ، بعد ثلاثة أيام في القصر الامبراطوري ، وتقرر أن يعقد القران في ٢٧ كانون الاول .

وقد يوحي كل ذلك ، بأني تعرضت للضغط ، وأجبرت على التسرع ، ولكنني أعتقد بأني اخترت بحرية . ولم يكن مركزي المقبل يشغلني إلا في الدرجة الثانية ، كتجربة ساحرة ، من النوع الذي يتقبله الشباب بسرور .

وكانت شخصية الشاه تحتل ، بالنسبة إليّ ، مركز الوسط ، وكنت أجده جذاباً ، وذكياً جداً . ورغم اني لم أكن أستطيع التحدث عن حب فوري ، فقد نشأ بيننا نوع من الرباط الفوري ، وكان هذا يبدو لي أهم شيء .

أما إذا كنت اليوم مستعدة لاتخاذ قراري بمثل هذه السرعة ، فهذا أمر آخر . وعلى كل حال ، كانت موافقتي آنذاك أمراً طبيعياً ، ولم أندم عليها ، رغم كل ما حدث .

وبعد الخطبة تقرر أن أقيم في منزل خاص بي حتى الزواج .. وتم استئجار دارة أقمت فيها مع والدي .

وكانت والدتي ، في هذه الاثناء ، قد لحقت بنا ، وأظن انها كانت تراقب الاحداث بمشاعر متضاربة ، مثل أية أم في مكانها : فمن جهة كانت سعيدة لسعادتي ، ومن جهة أخرى كانت تتساءل ، بكل تساؤل الام وقلقها ، هل تستطيع ابنتها ، مواجهة الواجبات التي تنتظرها ؟

ومنذ ذلك الحين أخذت أقابل الشاه كل يوم تقريباً . وكانت كل مقابلة تزيد في التقريب بيننا .

وكنا نقوم بنزهات على الجياد ، وفي الطائرة ، اذ أنه كان فخوراً جداً بطائرات الرياضة ، التي يقودها بنفسه .

وفي المساء كانت شقيقاته يقمن حفلات استقبال ، واجتماعات صغيرة ، وكنت أدعى دائماً ، تقريباً ، إلى المائدة الامبراطورية .

إلا ان هذه الحياة لم تكن خيالية ، بالقدر الذي يتصوره قراء كثيرون ... فقد كان الطعام مثلاً غير جيد ، وكان الطهاة يعدونه دون عناية أو اهتمام ، حتى اني قررت ، بيني وبين نفسي ، ان أدخل تعديلات كثيرة ، في ميدان المطبخ .

وكانت العمة « فروغ صفر » أيضاً غير راضية عن الطعام ، وما نكاد نعود إلى الدارة حوالى منتصف الليل حتى تسأل هذه السيدة البدينة :

— « ماذا لدينا في البراد يا ثريا ؟ »

وكان الطاهي ، الذي أستخدمه ، هو الآخر يشفق علينا ، ويعد لنا بسرعة طعاماً يعجبنا .

* * *

إن كل شيء نسبي في الحياة ، وهكذا كانت منازل الشاه تبـدو كالقصور ، إذا قورنت بالاكواخ التي يسكنها معظم رعاياه ، إلا انها كانت ، وفقاً للمفهوم الغربي ، دارات كبيرة غير أنيقة كثيراً . وقد رأيت في أوروبا وأميركا منازل أفخم منها بكثير .

ونظراً لأن « المرمر » موجود بكثرة في ايران ، فقد بنى الشاه السابق منازله منه . وكان الترف ، بالنسبة اليه ، محصوراً بأكبر عدد من قاعات المرمر ، والمرايا . إلا انه لم يكن في قصره سوى حمام واحد ، ولم يكن للتدفئة المركزية وجود .

ويقال ان الشاه السابق كان يجلس على السجاد ، في السنين الاولى من حكمه ، وبعد ذلك صنع الاثاث الداخلي ، بواسطة النجـارين المحليين .

وعندما جئت إلى البلاط ، كان جزء من هذا الاثاث لا يزال موجوداً ، ويمكن القول انه لم يكن هناك أي أثر للفن المنزلي ، حسب المفهوم الأوروبي .

وكان محمد رضا يقيم في « اختصاصي » ، وهي دارة حديثة ، بنيت في مطلع سنة ١٩٤٠ . وكانت هذه الدارة واقعة امام قصر المرمر ، وتضم منشآت صحية أحسن . ولكن كان واضحاً ، ان أية امرأة لم تشرف منذ سنين على هذا المنزل ، فقد كانت مقاعده كثيرة مهترئة ، والستائر ممزقة ، والمطابخ مهملة ، وغرف الخدم مجرد جحور بدائية .

وفي الايام الاولى ، التي مضت على خطبتنا ، سألت الشاه ، بأقصى قدر

من الحذر عن سبب ذلك ، فقلت :

— « ألا تعتقد بأنه يجب تجديد منزلك قليلاً ؟ »

وسألني بدهشة :

— « لماذا ؟ ألا يعجبك ؟ »

وشرحت له ملاحظاتي ، ثم أحضرنا من باريس خبير الزخرفة «جانسن» ... وقد جاء وشاهد المنزل وأعد مشاريع ، ولكن عندما استلمنا مخططه وجد الشاه انه يمكن ارجاء هذه النفقات مدة .

ولم يكن هذا التدبير الوحيد ، الذي قام به للتوفير ، فقد أمر بأن يعقد قراننا في حفلة بسيطة جداً ، وكان يريد تجنب كل بذخ ، حتى انه منع شقيقاته من خياطة فساتين ثمينة لهذه المناسبة .

وحسب التقاليد أرادت كل مدينة في البلاد إقامة حفلة يوم زواجنا ، وتقديم هدايا ثمينة الينا ، ولكن الشاه أمر بالغاء الحفلات ، وطلب ارسال الاموال ، التي كانت ستنفق على الهدايا ، إلى مؤسسات المعونة الاجتماعية .

وفي ذلك الحين لم أكن أعرف شيئاً تقريباً عن السياسة الايرانية ، ولكنني سرعان ما شعرت بأني جئت في مرحلة دقيقة جداً .

وكان هناك جو مغطى يحيط بالبلاط ، كما لو انهم كانوا يخشون هبوب عاصفة ، في أية لحظة .

وقد اكتشفت أول مرة ان الامور ليست على ما يرام تماماً ، عندما كنت ، في مساء أحد الايام ، على المائدة مع الشاه ، وشقيقاته ، وكانت الاميرات يداعبهن شقيقهن ، ويهتفن :

— « ان خطيبتك أصغر منك سناً بكثير ، انها ما تزال فتاة صغيرة ، بينما أصبحت أنت رجلاً مسناً !

وأجاب محمد رضا ، الذي كان آنذاك في الثلاثين من عمره ، بابتسامة حزينة :

— « ان الامبراطورات يتقدمن بالسن بسرعة ، وستجعل الحياة ، التي تنتظرها ، شعرها يشيب باكراً . »

وأقر بأنني شعرت ببعض الخوف لدى سماعي هذا الكلام ، وقد شعرت بغريزتي ، بأن الشاه أراد أن يطلعني على الحقيقة ، بلهجة خفيفة .

وبعد بضعة أيام ، فيما كنا نتنزه وحيدَيْن في الحديقة ، قال لي بوضوح :

— « لا تظني اني أستطيع أن أقدّم إليكِ حياة سهلة يا ثريا .. ستكون واجباتكِ قاسية ، صعبة ، وأرجو ألا تكوني قد خدعتِ نفسكِ ، حول هذا الموضوع . »

وأدركت في تلك اللحظة ان هذا الرجل يعتبر عرشه ، وبلاده ، أهم من كل شيء ، حتى أهم من حياته الخاصة . ولكن قبل أن أستطيع التفكير بما يعني ذلك ، بالنسبة لمستقبلي ، أصبت بمرض خطير .

* * *

في اليوم الثامن عشر ، بعد وصولي إلى طهران ، عدت ملهبة الخدين من نزهة على الجواد . وكنت أرتجف من الحمّى ، وأسرعت أمي إليّ مذعورة ، وهتفتْ :

— « ماذا أصابكِ بحق السماء ، يا ابنتي ؟ »

وأجبت بصوت ضعيف :

— « أشعر بأني مريضة جداً . وأظن اني سأصاب بالاغماء . »

واستدعي الاطباء ، فوجدوا اني مصابة بالتيفوئيد .. ونظراً لأن مرحلة ظهور أعراض الداء تتراوح بين أسبوع ، وثلاثة أسابيع ، اتضح اني أُصبت بالجرثومة فور وصولي إلى ايران . وقد قالوا لي : اني مصابة

بالتهاب معوي ، حتى لا يثيروا مخاوفي .

وترددتْ شائعة في أوروبا بأن أعداء الشاه سمموني ... وقيل حتى ان الاميرة « أشرف » أرادت التخلص مني ، لأنها كانت تخشى أن تفقد سلطانها على الشاه .

وكان كل ذلك سخيفاً ، طبعاً . فقد كان وباء التيفوئيد متفشياً في طهران ، وكانت إحدى شقيقات الشاه ، وأشخاص عديدون في البلاد ، مصابين أيضاً بالمرض .

وفي هذه الاثناء لم يكن الأطباء متفقين على طريقة معالجتي ، وكان كل منهم يريد أن يعالجني بطريقته الخاصة .. وأخيراً انتصر طبيب الشاه الخاص ، الدكتور كريم عيادي ، وأعطاني « الاوريومايسين » الذي وصل لتوه إلى السوق ... واضطررت ، كما كانت العادة آنذاك ، لملازمة الفراش ، مدة ثلاثين يوماً . وهكذا اضطررنا لارجاء الزواج .

وأظهر محمد رضا صبراً وعطفاً كبيرين ، وبذلك اكتشفت ناحية أساسية في طباعه ، زادت من ميلي اليه .. ووضع بتصرفي أبرع ممرضة في البلاد ، وهي الممرضة الايرانية الوحيدة ، التي درست في اميركا ، وبالاضافة إلى ذلك أتاني بأسطوانات ، ووضع في غرفتي آلة عرض سينمائية .

وكان يعودني بنفسه بعد ظهر كل يوم ، بينما كانت شقيقاته يتنازعن الاذن بزيارتي . وبلغ من غيرة كل منهن من الأخرى ، ان « شمس » كانت تعاتبني إذا استقبلت « أشرف » كثيراً ، والعكس بالعكس ، وأخيراً أفهمتهما انهما تتعبانني .

* * *

وقد اغتنمت الفرصة لازيد من اطلاعي على الاوضاع السياسية في

البلاد ، وكانت تحذيرات الشاه قد أثارت فضولي فأخذت أطلب جميع الصحف كل صباح ، بينما راح أصدقائي ، وأقاربي ينقلون إليّ أنباء ما يجري خلف الستار .

بدا لي ان كل شيء يدور حول البترول ، فقد كانت شركة « انغلو ايرانيان » للبترول ، التي كانت وزارة البحرية البريطانية المساهمة الرئيسية فيها ، تدفع لحكومتنا حصة سنوية ، بنسبة ١٥ بالمائة . ولم يكن هذا كافياً لبلد كبير مثل ايران ، وكان ذلك أحد الاسباب الرئيسية لفقر الجماهير .

وكان البؤس العام قد ازداد أثناء إقامتي في أوروبا ، وكان ثلث السكان دون عمل ، وفي ضواحي طهران كان عدد لا يحصى من المتسولين ، المرتدين خرقاً بالية ، والاولاد الكسحاء ، يتنقلون شبه عراة بين الاكواخ المبنية من الطين .

وكانت شركات البترول الاميركية قد منحت للمملكة العربية السعودية حصة تبلغ خمسين بالمائة . وطالب ايرانيون كثيرون بزيادة العائدات إلى مستوى مماثل ، ولكن مديري شركة « الانغلو ايرانيان » اصموا آذانهم عن هذا الطلب .

وقال لي أحد أعمامي ، وكان قد تباحث في الماضي مع انكلترا ، باسم جماعة البختياري ، موضحاً :

— « لقد تعهدت الشركة بأن تقدم بترولنا إلى الاسطول البريطاني ، بأقل من السعر العالمي .. وهذا هو السبب الحقيقي ، الذي يتيح لانكلترا أن تبقي في البحار عدداً من السفن ، أكثر مما تستطيع الدول البحرية الاخرى » .

وسألت عمي :

— « وإلى متى يستمر تعاقدنا مع هذه الشركة ؟ » .

— « حتى سنة ١٩٥٤ .. ويريد الانكليز أن يجعلونا ننتظر حتى ذلك

الموعد ، وهم ليسوا مستعجلين ، لأنهم يعتقدون بأن رئيس الوزراء « رازماره » في جيبهم . »

وكان « علي رازماره » قد قُدِّم إليَّ ، وكان رجلاً جميل الشكل ، في الاربعين من عمره ، له عيناه تشعان ذكاء ، وقد قيل لي انه بلغ من اعجابه بنفسه انه زين جدران منزله بصوره .

وعلى كل حال أوحى لي بأنه رجل طموح جداً ، ولم أشعر بثقة تامة فيه ، وكان من الاعيان ، الذين يقال عنهم في طهران : « انهم يحملون الختم الانكليزي . البعض منهم يحملونه على جباههم ، والباقون في مكان آخر ... »

وبدا على لندن انها راضية عن ذلك ، ولم يكونوا يكترثون هناك ، بما تفكر به الجماهير الايرانية . وكانوا يهتمون بالاحتجاجات بقدر اهتمام النظارة بدمدمة الجمهور على مسرح الاوبرا .

وكان هذا خطأ وخيم العواقب . ففي نيسان من عام ١٩٥٠ ، انتخب محمد مصدق عضواً في البرلمان .. ولم أكن أعرفه شخصياً ، ولكنه كان من أصفهان ، وصديق عائلتي منذ سنين .

وقد ربط بينه وبين عائلة البختياري ارتيابه الشديد بالاحتكارات البترولية ..

وكان ينتمي إلى الارستوقراطية الايرانية الرفيعة ، فهو ابن الاميرة « نجم السلطنة » ، وقد تزوج حفيدة شاه كاجار ، مظفر الدين .

ورغم ذلك كان يشعر بنفسه مرتبطاً ارتباطاً عميقاً بالشعب ، ويتمنى بحرارة أن يقوم بدور المدافع ضد « المستثمرين الاجانب » .

وقد وصل صدى حملته إليَّ ، وأنا على فراش المرض ، وأدركت لأول مرة مدى الدور الذي يقوم به « البازار » ، أي حي التجارة ، في حياة طهران العامة .. ففي هذه الازقة التجارية تنتشر أنباء معظم الاحداث ، قبل حدوثها بمدة طويلة .

وكان هناك مطعم صغير ، يلتقي فيه أنصار مصدق .. وكان صاحبه « حسن شمشيري » من مشجعي الحركة .. وقد جاء إليّ كثيرون من أصدقائي ، من الذين اعتادوا تناول الطعام هناك ، متنكرين ، وأخبروني :

ـ « ان « البازار » يراهن على مصدق ، ويزداد نفوذه في البلاد ، بين أسبوع وآخر ، كما ان استلامه الحكم لم يعد إلا قضية وقت . »

ولم يكونوا يخفون عطفهم على هذا الديك المقاتل العجوز . وقد ذكروني بفرسان بلاط الملك لويس السادس عشر ، الذين كانوا يرقبون اقتراب الثورة بفارغ صبر .

وقد سألت الشاه خلال إحدى زياراته لي :

ـ « هل يعلم الانكليز بما يفعل مصدق ؟ »

وأجابني :

ـ « أجل .. لقد نبهتهم مراراً ، وناشدهم السفير الاميركي هنري غريدي نفسه ان يتنازلوا لنا عن بعض الامتيازات ، قبل أن يفوت الاوان .. ولكن كل ذلك كان عقيماً حتى الآن لسوء الحظ . »

وأدركت اني أصبحت في وضع متأزم ، وبدت لي سنوات الدراسة كأنها جزء من ماض بعيد جداً . ولكنني لم أكن أشعر بأي ندم . بل ان مشاكل البلاد كانت ، بعكس ذلك ، تثير اهتمامي ، وحتى صعوبة مهمتي كانت تجتذبني .

وأخذت أتخيل ، بتفاؤل الشباب ، اني سأعرف كيف أهدئ النزاعات المحيطة بي ، بالثبات ، وبالنية الحسنة .. فقد أعطيت وعداً ، وأريد أن أبذل كل ما في طاقتي ، للقيام بواجباتي بجدارة .

وبعد شهر تعافيت إلى حد اني استطعت مغادرة سريري ، وفي الغد اشتركت في نزهة ، وكانت تغذيتي قد اقتصرت على السوائل ، خلال

الأسابيع الاربعة التي قضيتها في السرير ، ولهـذا أقبلت على الطعام بشراهة .

ونظراً لأن التيفوئيد داء يصيب الامعاء ، فلم يكن بامكاني ارتكاب خطأ أخطر من ذلك ، وأصبت بنكسة هائلة ، زادت من خطورتها اصابتي ببداية احتقان رئوي .

وارتفعت حرارتي إلى أكثر من ٤١ درجة ، وظللت ثلاثة أيام معلقة بين الحياة والموت ، واضطر الدكتور عيادي مرة للحضور في الليل ، لاعطائي بعض الحقن .

واني واثقة بأني لم أنج إلا بفضل براعته ، وأصبحت طبعاً أضعف من السابق ، وبدا صبر محمد رضا ينفد شيئاً فشيئاً ، فقد كان يريـد الزواج مني بأسرع ما يمكن ، لأسباب شخصية وسياسية .

وكنا نقترب من مرحلة حداد ديني ، لا يمكن الزواج فيها ، وتبدأ هذه المرحلة في منتصف شهر شباط ، وتستمر عدة شهور . وإذا لم نتزوج قبل ذلك ، فسيتأخر الزواج إلى أيار ، أو حزيران ، وهي فكرة لم يكن الشاه يستطيع تحملها .

وقد استشار رجال الدين فقالوا له :

— « ان ١٢ شباط هو آخر مهلة . وفي ذلك اليوم تكون الكواكب مناسبة لزواج جلالتكم . »

وعند ذاك عقد الشاه مجلساً من الاطباء ، فأظهر هؤلاء شكوكاً قوية ، لأنهم كانوا يعرفون اني لن أشفى حتى ذلك الموعد ، ولكنه وعد بأن يجعل الاحتفال بسيطاً ، وانتصر رأيه في النهاية .

وبعد ثلاثة أيام من مغادرتي السرير مجدداً ، أي في ١٢ شباط سنة ١٩٥١ ، ارتديت فستان العرس ، المصنوع لدى كريستيان ديور ، والذي ينتظرني منذ كانون الاول .

وقد كنت طبعاً ضعيفة جداً ، ولا أظن اني كنت أستطيع احتمال هذه

الاحتفالات المرهقة ، لو لم تملأ السعادة قلبي ، وتشد من عزيمتي ، بعد مرحلة الانتظار ، والأمل الطويلة .

وكان فستان العرس مثالاً للأناقة ، مصنوعاً من التول ، والبروكار الفضي ، ويزن حوالى أربعين رطلاً .. وكنت أستطيع ارتداءه بسترة ، أو بدونها . لأنه كان علي أن أغطي كتفي ، وذراعي خلال الاحتفال الديني ، واضفت تاجاً ، وحلية من الزمرد أخذتهما من كنوز التاج .

وفيما كان المزينون ، ووصيفات الشرف يستعدون ، كانت المناقشات لا تزال جارية حول من سيأتي لاصطحابي .. وجرت اتصالات هاتفية متتابعة ، بين القصور ، لتسوية هذه القضية البروتوكولية .

قال الحرس القديم :

ـ « كبير أعيان البلد . »

وقالت دوائر البلاط :

ـ « أحد أشقاء الشاه . »

وصاحت الاميرة شمس ، التي كانت تعتقد بأن لها الافضلية ، بصفتها شقيقة الشاه الكبرى .

وأخيراً استجيب طلبها ، وحوالى الساعة الرابعة ، وصلت إلى دارتي في سيارة مدفأة ، وذهبنا إلى قصر المرمر ، يواكبنا حملة الرماح ، عبر الشوارع المغطاة بالثلج .

وعندما وصلنا حدث تردد جديد .. فقد كانت أربع فتيات شرف صغيرات ، واقفات عند قدم السلم ، لحمل ذيل فستاني ، ولكن الفستان كان ثقيلاً جداً عليهن ، ولذلك احضرت سيدتا شرف بسرعة فساعدتاني بجهد على ارتقاء الدرج ، المؤدي إلى قاعة المرايا .

وكانت القاعة مزينة بمائتي زهرة اوركيديا ، ومائتي غصن كرز مزهرة ، وألف قرنفلة حمراء ، وألف ومائتي غصن من الزنبق .

وقد اشتركت عائلتانا طبعاً بالحفلة الدينية ، وكان الضيفان الوحيدان

هما : الآغا خان ، والبيغوم ، التي كانت بين أجمل النساء الحاضرات وأكثرهن أناقة .

ونظراً لأن القصر كان غير مزود بالتدفئة المركزية ، فقد وضع الشاه مدافئ في كل مكان ، وأمر بابقاء الأبواب مغلقة .

وقد اقتادني إلى اريكة ، وقدّم إليّ كأساً من الكريستال مليئة بمسحوق السكر ، كتقدمة رمزية للصباح .. وفي نفس اللحظة جاءت الامبراطورة الوالدة من خلفنا ، ونثرت السكر أيضاً على رأسينا ... ولا أعرف معنى هذا الرمز ، ولكن التقاليد الفارسية تقول انه يضمن السعادة لحياتنا الزوجية ...

وقام بعقد القران الإمام جمعة ، وهو واحد من أكثر رجال الدين شعبية في طهران ، وقد كان ، رغم لحيته ، شاباً عصرياً ، تلقى علومه في لوزان مع أحد أعمامي ، وكان ، في أوقات فراغه ، يربي البلابل والبيغاوات ، ويرتدي الثياب المدنية ، عندما يقضي اجازاته في أوروبا . وقد أصبح ، في ما بعد ، صديقاً ، ومستشاراً ثميناً بالنسبة إليّ .

وعندما قلت «نعم» بالعربية ، بواسطة عبارات تقليدية طويلة ، لم أكن أدرك بعد كل الادراك ، العبء الذي سأحمله .. وأعتقد بأني لا أختلف بذلك عن جميع الفتيات . فلا شك بأن قليلات جداً منهن يستطعن الادعاء ، في ما بعد ، انهن أدركن حقاً جميع نتائج زواجهن على حياتهن بكاملها .

ولم أكن أتزوج رجلاً ، وعائلته فحسب ، كما يقال ، بل كنت أرتبط بشعب من عشرين مليون نسمة ، وأبـدأ مقاسمته مسؤولية رفاهيته .

وبعد تهانئ الدبلوماسيين ، القينا نظرة على هدايا الزواج ، وقد ظنت نساء كثيرات آنذاك اننا تلقينا كنوزاً خيالية .

واذكر من بين الهدايا ، بيانو جاءنا من النمسا ، واناء من باريس ،

وشمعدانين من الفضة ، أرسلهما ملك انكلترا ، وقد وضعت كلها في جناحنا الخاص ... ولكن رغم كثرة الهدايا ، التي تلقيناها ، حدث لنا ما يحدث لكل عروسين ، فقد وجدناها غير عملية ، ولا مفيدة ، واختفت في أحد الاقبية ، ولم أرها بعد ذلك أبداً .

وبدأت شيئاً فشيئاً أئن تحت ثقل فستاني ... وتشاور محمد رضا ، والدكتور عيادي حول كيفية مساعدتي .

وأخيراً وجد الشاه حلاً عملياً وهتف :

ـ « لماذا لا نقص التنورة الداخلية ؟ »

واستطاعت وصيفة شرف بارعة قص حوالى عشرة أمتار من قماش التنورة ، دون أن أحتاج إلى خلعها .. ولكن أهمية تخلصي من هذه الامتار ، لم تكن بقدر أهمية الشعور المطمئن بأن زوجي يأتي لنجدتي فعلاً ، ومنحني ذلك المزيد من الشجاعة ، ولم يلاحظ أهلي أي فرق في فستاني .

وخلال مأدبة العشاء لم يلاحظ أحد اني ألبس جوارب سميكة من الصوف ، بسبب البرد .

وبعد المأدبة ، اضطررنا لتحية ألفي شخص ، كانوا ينتظروننا في قاعات الاحتفالات ، في قصر « غولستان » ، ولم نصافح أحداً ، طبعاً ، بل سرنا جنباً إلى جنب ، بين صفوف المدعوين .

وعندما وجدت نفسي بين الناس شعرت بدوار قوي ، حتى اني خشيت أن أعدل في آخر لحظة ... وأعتقد بأن ابتسامتي بدت باهتة قليلاً أثناء هذا الجزء الأخير من الحفلة ، قبل أن أستطيع الذهاب إلى غرفة مجاورة لاستريح مع أفراد عائلتي . وقد تنفسنا جميعاً بارتياح عندما وجدنا ان النهار مر بشكل أحسن مما كنا نتوقع .

وقد اضطررنا للعدول عن السفر إلى أوروبا ، للقيام بشهر العسل ، بسبب الحالة السياسية ، وبقينا في الايام الاولى في طهران ، واستطعنا

قضاء بعض الاوقات بهدوء ، مع الآغا خان ، والبيغوم .

وكان الآغا خان رجلاً جذاباً ، كثير الاطلاع على الادب الفارسي ، الذي كان يطالعه ، ويستشهد به ، بينما كانت البيغوم تأسرني بلطفها ، ونعومتها .

وذهبنا بعد ذلك إلى « بلبوسار » على بحر قزوين ، حيث بنى الشاه السابق دارة صغيرة . وقد استرحنا هناك مدة اسبوعين ، ولكن حتى خلال هذه المدة ، كان الرسل ، والوزراء يأتون من طهران ، كل يوم تقريباً ، لاطلاع الشاه على تطور الازمة .

وفيما كنا نتناول الفطور ، بعد ثلاثة أيام من عودتنا إلى العاصمة ، دخل أحد مرافقي الشاه وهمس بشيء في أذن محمد رضا ، وامتقع لونه ، وقال لي بصوت جامد النبرات :

– « لقد قتل رئيس وزرائي في الجامع ، أثناء الصلاة .. وكان القتلة من أعضاء جمعية فدائيان . »

وقد كانت « فدائيان » جماعة متعصبة ، سياسية ، دينية ، تعتبر رازماره ، الانكليزي الميول ، خائناً ...

ومنذ هذه اللحظة تسارعت الأحداث .. فتولى وزير البلاط حسين علاء رئاسة الحكومة ، ولكن الجميع كانوا يعرفون انه ليس سوى سد ثغرة .

وفي ١٥ آذار قدّم الدكتور محمد مصدق إلى البرلمان مشروع القانون التالي :

« في سبيل ضمان سعادة الشعب الايراني ، وازدهاره ، نقرر بهذا القانون تأميم كل الصناعة البترولية في البلاد .. وستقوم الحكومة الايرانية بعد الآن باستثمار جميع منابع البترول » .

وبعد شهر انتخب الدكتور مصدق رئيساً للوزراء ، بأكثرية ٧٩ صوتاً ضد ستة .. وفي الثالث من شهر ايار أصبح قانون التأميم نافذ المفعول .
وكانت أصعب سنتين في حياتي تقتربان مع الأيام .

* * *

مثل جميع العرائس لم أهتم ، في البداية ، بالعالم الخارجي ، بقدر اهتمامي بزوجي ، وبيتي ، وبعائلتي الجديدة . وكان أهم شيء لدي تأثيث دارتنا .. ولكنني اصطدمت ، منذ الاسابيع الاولى ، بمقاومة خفية .

كان منزل الشاه ، قبل مجيئي ، تحت إشراف إحدى شقيقات الشاه ، التي يقع منزلها بجوار الحديقة الامبراطورية مباشرة .. ولكن نظراً لأن لديها عائلتها لم تكن تستطيع تكريس وقت كاف للاهتمام بجميع التفاصيل في منزل شقيقها . وهكذا ازداد اهمال خدم الشاه ، وأخذوا ينفقون مبالغ متزايدة من المال .

وأطلق الشاه يدي في الأمر ، فاغتنمت هذه الفرصة ، لكي أثبت حسن تدبيري .. وبدأت باستبدال بعض الافران ، التي لم تعد صالحة للاستخدام ، إلى جانب أجهزة أخرى ، ثم طردت الطاهيين : نسيم ، وسليمان ، بعد اكتشاف قذارتهما .

وبعد بضع ساعات اكتشفت بدهشة ان شقيقة الشاه ، التي كنا مدعوين لديها في ذلك المساء ، عرفت بنبأ الطرد .

وسألتها باستغراب :

– « كيف اطلعتِ على ذلك ؟.. إنه لم يحدث إلا بعد ظهر اليوم . »

وأجابت بتهرب :

– « لقد وصل النبأ إلى سمعي . »

وما لبثت أن اكتشفت سرّ هذا اللغز .. فقد اقترحت الاميرة ، بعد أيام من عودتنا من بحر قزوين ، أن أستخدم إحدى مرافقاتهـا مساعدة لي .. ونظراً لعـدم وجود مكان في دارتنا ظلت هذه المرأة تقيم لدى الاميرة ، وتعود إلى منزلهـا كل مساء بعد انتهاء عملها .

وهكذا كانت شقيقة زوجي تطلع بانتظام على كل ما يجري في منزلنا. ورغم انه لم تكن لدي أسرار أخفيها ، لم يعجبني وجـــود دائرة الاستخبارات هذه ، وكنت أريد طبعاً أن أتصرف في منزلي دون تدخل أجنبي !..

وحدّثت الشاه بذلك ، فأمر فوراً بطرد هذه المرأة .

وكانت مهمتي الثانية الاهتمام بالطعام ، مع السعي إلى تنويعه ، أكثر من السابق .. وأعطيت الطهاة بعض الوصفات الأوروبية ، وكنت أعلق أهمية كبيرة على كون الاطعمة سهلة الهضم ، وأصررت على استخدام أنواع جيدة من السمن ، وهو أمر صعب غالباً في ايران .

وأظهرت أيضاً اهتماماً خاصاً بالحليب ، ومنتجاته ، لأنه كان هناك اشتباه بأن جزءاً كبيراً من أبقارنا في «سعد آباد» مصاب بداء السل . وعند سنوح الفرصة استوردنا أبقاراً جديدة ، أخضعت لمراقبة طبيـة مستمرة .

وكان المجال واسعاً للتجديد ، رغم ان قصر «اختصاصي» لم يكن قصر «باكنغهام» .. ولم تكن فيه سوى اثنتي عشرة حجرة : قاعـة للحراس ، وغرفة للطعام ، وثلاث صالات استقبال ، في الطابق الأرضي ، بالاضافة إلى صالتين ، وغرفتي نوم ، وحمامات ، وغرف جلوس في الطابق الاول .

وكان جميع أفراد حاشيتنا يقيمون في المدينة ، ولم تكن لدينا حتى غرفة لضيافة الأصدقاء . وعندما يأتي أفراد عائلتي لزيارتنا كنا ننزلهم في

قصر صغير ، بني ليكون منزلاً لابنة الشاه ، الاميرة « شاهناز » في طفولتها .

ولم تكن لدي وسائل شراء أشياء جديدة ، ولذلك اجريت اصلاحات بقدر الامكان ، في الأثاث الموجود لدي ، وأحضرت من القبو أواني ، وستائر قديمة ، وحاولت تجميل الغرف قليلاً ، مستعينة بالزهور ، والوسائد ، والستائر .

في هذا الاطار ، الذي لم يكن أفخم مما يعيش فيه كثيرون من أصحاب الدارات ، بدأت أتدرب على مهنة الامبراطورة . وكنت أتخيّل ، مثل كثيرين ، أن تعلّم هذه المهنة سهل ، ولكنني سرعان ما أدركت انها ليست مجرد التلويح بمنديلي ، برقّة .

وهلّ عيد وطني في الأسابيع الأولى ، واضطررت لالقاء كلمة بالاذاعة .. وكانت هذه أول مرة أتحدث فيها من الاذاعة .. وبدلاً من تسجيل الخطاب على شريط ، جازفوا بجعلي أُذيعه مباشرة .

وحدث ما كان متوقعاً ، فقد تلعثمت ، وكافحت برهة لكي أستّرد هدوء أعصابي ، وسمع ألوف الأشخاص ضحكة مكتومة من امبراطورتهم .

وقد أكدوا لي ، في ما بعد بلطف ، ان هذا الحادث كان مضحكاً جداً ، ولكنني أدركت في تلك اللحظة ، أول مرة ، مدى خطورة دوري .

ويحدث غالباً ان الاشياء الناقصة تكون غريزية ، أكثر من الاشياء التي تمر دون أي حادث .. وهكذا قررت أن أعدّ نفسي بشكل أدقّ .

* * *

كان نهاري يبدأ في الساعة التاسعة صباحاً ، وكان الشاه ينهض في السابعة ، ويذهب إلى مكتبه ، في قصر « المرمر » دون أن يوقظني .

وقد اعتدت أن أتناول الفطور وحيدة ، وحوالى الساعة العاشرة يصل مساعدي محسن غراغوزلو ، ليبحث معي برنامج الأيام التالية .. وفي هذه الاثناء تنتظرني وصيفاتي في قاعة الاستقبال ، في الطابق الأرضي ، عادة ، لكي يرافقنني في مهامي الرسمية المختلفة ..

وكنا ، في البداية ، نختار الوصيفات من بين زوجات السفراء وكن يعرفن البروتوكول جيداً .. وبعد ذلك أحطت نفسي بصديقات شخصيات ، مثل السيدة غراغوزلو ، والسيدة الانك ، زوجة مدير الاملاك .

ولم أكن أرى الشاه عادة إلا على الغداء .. وبعد تناول القهوة نستمع إلى الأنباء معاً ، ثم نطالع الصحف ، ونتبادل الحديث عن آخـر الاحداث .

وعندما لا تكون لديه أعمال كثيرة ، نقوم بنزهة ، وكنا مغرمين بركوب الجياد .. وفي الأيام التي يتحتم عليه القيام بجولات تفتيشية عسكرية ، كنت أستقبل الدبلوماسيين بعد الظهر على الشاي .

وبدا لي ، في البداية ، ان عدد الدبلوماسيين الراغبين بتناول الشاي معي لن ينتهي ، وسبب ذلك انهم جميعاً كانوا مجبرين على القيام بزيارة اولى للامبراطورة الجديدة .

وعندما انتهيت من هذه القائمة الطويلة كان عدة سفراء قد غادروا طهران ، واضطررت لدعوة خلفائهم .. وبما ان عملية تبديل السفراء لا تنتهي كنت أستقبل ، في ما بعد ، اثنين من الدبلوماسيين ، على الأقل في الاسبوع .. وكان كثيرون من هؤلاء لطفاء جداً ، حتى غالباً مـا دعوتهم من تلقاء نفسي .

وعهد إليّ ، بصفتي امبراطورة ، بأمر الاشراف على مصح الدولة ، ومنظمة « الام والطفل » .. وقد كانت هاتان المؤسستان في الاصل باشراف الامبراطورة فوزية ، ولكن مرت عليهما سنوات عديدة ، وهما محرومتان من الاشراف ، وقد حان الوقت لكي أهتم بهما .

وطلبت التعرف فوراً إلى جميع الاطباء العاملين في هاتين المؤسستين .. ومنذ ذلك الحين أصبحوا يأتون لمقابلتي كل أسبوع ، لتقديم تقاريرهم .

وأصبح هذا الميدان الاجتماعي يحتاج إلى عنايتي ، أكثر من أيـة مهمة أخرى ، من المهام الملقاة على عاتقي ، كما أصبح أحب مشاغلي إلي .. وسأعود إلى الحديث عنه في ما بعد .

كنا نتناول العشاء في الساعة السابعة والنصف في قصر « اختصاصي » وكانت العائلة بكاملها تأتي لزيارتنا ، كل يوم تقريباً .. وبعد العشاء نشاهد أفلاماً سينمائية ، كانت إحدى صالات المدينة أو « دار اميركا » تعيرنا إياها .. وكنا ، في أيام أخرى نلعب البريدج ، وقد اكتفيت في البداية بالتفرج لأني لم ألمس ورق اللعب قبل ذلك .

استطعت ترويض فهدة القصر الشرسة

شعرت ، في البداية ، بأني غريبة بين هذه الجماعة . كان لدى أفراد عائلة بهلوي ، مثل معظم العائلات ، كلمات سرية ، ونكات خاصة للسخرية من الناس .. وكان ذلك يشكل شبه لغة سرية لا يفهمها ، إلا الذين تعلموها ، وكانت هذه الملاحظات تثير ضحك الجميع ، وأبقى أنا وحدي جاهلة سبب ضحكهم !..

وقد اعتدت ان أسأل الشاه ، كلما وجدت نفسي وحيدة معه ، عن المعاني الخفية لهذه الدعابات .. وما لبثت أن تعلمتها ، واستطعت ابتكار عدد جديد منها .. وبلغ من اعتيادي هذا النوع من الدعابة اني ما زلت استعمل حتى مع أقاربي بعض هذه العبارات .

إلا انني أذكر اني غالباً ما افتقدت الحرارة

القلبية ، التي كنت معتادة عليها في منزل والدي . كنت أحنّ إلى الأحاديث الصادقة ، ولم أدرك إلا بعد زمن ان الاسرة الخاصة تعيش في ظروف مختلفة تماماً عن حياة عائلة البلاط ، التي لا تعرف إلا المنافسة الدائمة .

كانوا جميعاً يكافحون ، لترسيخ نفوذهم ، ومراكزهم ، ولم يكن الود الصادق ، الذي أتوق اليه ، ممكناً ، رغم كل اللطف الذي يظهرونه لي . ولم أعتبر ، وأنا أراقب الوضع مع مرور السنين ، هذا النقص فتوراً ، بل حالة مرتبطة بالظروف .

وكان لدي صديقان حقيقيان آنذاك ، هما العمة « فروغ صفر » ، والدكتور عيادي .. فقد اعتنيا بي ، أثناء مرضي ، ليلاً ونهاراً ، وبقيا مخلصين لي .. وكانا يزورانني كل يوم ، ولا يترددان في مصارحتي بالحقيقة ، إذا ارتكبت أخطاء .

وفي الايام العصيبة كانت العمة « فروغ » أحسن من يستطيع رفع معنوياتي ، فهي دائمة الاستعداد لالقاء الدعابات ، ولا تمالئ في كلامها . ولهذا لم أصدق أذني ، عندما قال لي الشاه ، بعد ستة أسابيع تقريباً من زواجنا ، ونحن نتناول الغداء :

— « أتمنى ألا تأتي العمة « فروغ » بعد الآن إلى البلاط » .

وسألت بذهول :

— « ماذا تعني ! وماذا فعلتْ ؟ »

— « اننا نشتبه بأنها جاسوسة . »

وأخذت أضحك من هذه المحاولة لإظهار عمتنا الطيبة بمظهر الجاسوسة . وهتفت :

— « ولكن هذا سخيف ، يا محمد رضا .. أخبرني بحق السماء ، جاسوسة لحساب من ؟ »

— « لحساب بعض الاوساط في طهران . »

وصمت لحظة ، ثم قلت :

— « إن « فروغ صفر » أحسن صديقة لي . لقد أسهمتْ في انقاذ حياتي . »

وأجاب الشاه :

— « لا يمكنني ، بكل أسف ، أن أناقش هذا الموضوع ، أكثر من ذلك . »

وأوقفنا النقاش عند هذا الحد . ولم يعد « لفروغ صفر » أن تزورني وقد قابلتها بضع مرات سراً ، ولكن الشاه منعني من ذلك أيضاً .

وقد علمت بأن والدة الشاه أصرت على ابعاد وصيفتها السابقة ، وأعتقد بأنها كانت ناقمة على عمّي قيامها بتقديمي إلى الشاه ، وانها تدعي ان العملية كلها كانت من امرأة من عائلة البختياري .

ودعمت الاميرة شمس رأي الامبراطورة الوالدة ، واستطاعت المرأتان اقناع الشاه .. وقد كان لا يحب « فروغ صفر » شخصياً من جهة ، كما كان يغار من جميع المقربين مني في ذلك الحين ، من جهة أخرى .

وكان هذا الفراق القسري ضربة قوية بالنسبة إلي . فقد شعرت بنفسي معزولة أكثر من أي وقت مضى ، بعد حرماني فجأة ، من أقرب صديقة إليّ .

ولحسن الحظ حدث ، بعد بضعة أيام ، شيء من التغير ، شغل تفكيري . فقد انتقل البلاط ، بسبب الحر الشديد في موعد ابكر من المعتاد إلى « شمرام » ، عند سفح جبل البرز .

وفي الطريق إلى « شمرام » تعرفت إلى ناحية جديدة من الحياة الايرانية .. ففي جميع القرى التي اجتزناها بسياراتنا ، كان السكان يحتشدون على جانبي الطريق ، ويذبحون الحيوانات تكريماً لنا .

وكانت هذه العادة ، القديمة جداً ، ذات قسوة لا مثيل لها ، ففيما كنا نمر ببطء كان السكان يذبحون خروفاً ، أو جملاً ، كل أربعة أمتار

في وسط الشارع .. وغالباً ما كانوا يذبحون بقرة ، أو عجلاً .

وكانت الحيوانات تصيح ، وتتلوى أمام عيوننا ، كما كان الدم يلطخ سياراتنا أحياناً .

وحاول الشاه أن يشرح لي ، ان لحم هذه الحيوانات سيوزع في ما بعد ، باسمه على الفقراء . ولكنني لم أكن أصغي اليه ، فقد كنت أ صعوبة كبيرة في المحافظة على هدوئي .

وقد قدّم السكان لنا ذبائح مماثلة ، خلال الرحلات الرسمي قمنا بها في ما بعد ، في ايران ، ولكنني لم أستطع أبداً الا هذا الامر .

فقد كنت أحب الحيوانات ، ولا أستطيع مشاهدة ذبح هذه الضحاي المذعورة .

* * *

تبعد « شمرام » خمسة عشر كيلومتراً عن طهران ، ويملك جميع سكان طهران ، القادرين ، تقريباً ، دارات هناك لقضاء اجازاتهم . وقد بنى الشاه السابق أيضاً لنفسه قصراً في « شمرام » أطلق عليه اسم « سعد آباد » ، واعتاد أفراد عائلة بهلوي الانتقال إلى مقرهم الصيفي هذا عندما يشتد الحر .

وكان منزلنا يستند إلى إحدى تلال البرز ، ويطل على حديقة فسيحة جداً ، مليئة بأشجار الزيتون ، والصنوبر ... وكانت دارات إخوة الشاه وأخواته مخفية بين الأشجار ، وكانوا هناك أيضاً يأتون لزيارتنا كل يوم تقريباً . ولم نستقبل في ذلك الصيف زواراً آخرين لأن مصدق أصدر الأوامر التالية :

« لا حفلات ولا رقص ولا لهو » .

ولم يزعجني ذلك أبداً ، بل انه أتاح لي فرصة دراسة الشاه وذويه ،

بحرية تامة ، واكتشاف طبيعتهم الحقيقية .

وقد أخذنا نذهب كل يوم للسباحة ، وركوب الجياد ، ولعب كرة اليد ، ورأيت محمد رضا يتحوّل إلى رجل آخر .. ولو لم يرث عرش الطاووس ، لأصبح دون أي شك ، رياضياً عظيماً ، ولكسب عدة مداليات أولمبية لايران .

والواقع ان الشاه رياضي بالفطرة ، وكان أيضاً موهوباً في جميع الميادين ، وكان عندما يبدأ رياضة جديدة يتقنها إلى حد الكمال .. وقد تعلمنا مثلاً رياضة التزلج على الماء معاً .. والمعروف ان هناك رياضات كثيرة لا يمكن اتقانها بعد سن الخامسة والعشرين ، ولكن سن الشاه لم تكن يوماً عقبة في طريقه .

وكان يتمتع أيضاً بالميزات اللازمة للرياضي ، فهو لم يتناول إلا القليل من الخمر ، خلال هذه السنين التي عشتها معه . ويمكن القول انه كانت له طبيعة النساك تقريباً .

وفي أحد الأيام نصحه الأطباء بعدم تدخين أكثر من عشر سكاير في اليوم ، وفوراً وضع نظاماً لنفسه ، وأصبح ينظر إلى الساعة دائماً قبل أن يشعل سيكارة .

وكانت شجاعته الشخصية أكثر ما يؤثر بي ، فقد كان يظهر شجاعة كبيرة في جميع الظروف ، وغالباً ما كان يقوم ، في طائرته ، بألعاب بهلوانية جريئة جداً ، ويسخر من الخائفين .

وهو أيضاً رجل واسع الثقافة ، فقد قرأ كثيراً ، ويتابع باستمرار جميع الاحداث في العالم ، وكان يطالع كل يوم كبريات الصحف الانكليزية ، والاميركية . وعندما يمنح مقابلة لصحافيين أجانب كان هؤلاء يدهشون لمدى اطلاعه على سياسة بلادهم .

وكان يهتم بصورة خاصة بالزراعة ، ولو كان مواطناً عادياً ، لزاول دون أي شك مهنة الزراعة ، إلى جانب الرياضة ، وينسجم هذان الميلان

تماماً مع شخصيته الأساسية ، وأعتقد بأن كل مـا تبقى كان نتيجـة تربيته .

وكثيراً ما كان يتحدث عن صباه ، أثناء نزهاتنا على الجيـاد ، في سعد آباد ، ولا شك بأنه كان تعيساً جداً ، إذ ان والده كان يضطهده منذ طفولته .

وقد قال لي :

— « كان رضا شاه شخصية عظيمة جداً ، ولكننا كنا جميعـاً نخشاه ، وكانت نظرة واحدة من عينيه الثاقبتين ، تجمدنا احتراماً . وعلى مائدة العائلة لم نكن نجرؤ على ابداء رأينا . والواقع انه لم يكن يحق لنا الكلام ، إلا عند توجيه أسئلة الينا . »

وعومل محمد رضا ، وهو في الثامنة ، بقسوة خاصة ، في المدرسة الابتدائية ، بناء على أمر والده .

وعندما أرسل ، في ما بعد ، إلى كلية « لو روازي » في لوزان ، اضطر الاساتذة أيضاً للتشدد معه ، أكثر من سائر الطلاب .

وروى لي قائلاً :

— « من حسن حظي اني اكتشفت في سويسرا معنى كلمة الحرية ، ورأيت بنفسي ميزات التربية الديموقراطية ، ومنذ ذلك الحين بـدأت أثور ، في قرارة نفسي ، ضد أبي ، وأقسمت على ان أعمل بشكل مختلف عنه حالما أتسلم الحكم . »

وقد نفّذ الشاه قسمه . وعندما ارتقى العرش في ايلول من عام ١٩٤١ سلك طريقاً جديدة تماماً .

فألغى زواجه من الاميرة فوزية ، الذي فرضه عليه والده ، لأسباب سياسية ، وتصالح مع عائلة البختياري ، وعائلات ايرانية كبيرة أخرى ، كما تفاهم مع رجال الدين ، ووزع أراضي كثيرة ، كان والده قد وضع يده عليها .

وكان الرجلان ، حتى في طباعهما ، مختلفين اختلافاً أساسياً . فقد كان رضا شاه معروفاً بنوبات غضبه ، أما ابنه فانني لم أره يوماً مستسلماً لغضب شديد ، وكان لطيفاً ، وحتى خجولاً ، وهو أمر لم يكن لصالحه دائماً .

وكان من الصعب عليه مثلاً ان يرفض طلباً ، وعرف كثيرون من المقربين اليه كيف يستثمرون نقطة الضعف هذه ، لأغراضهم الخاصة .

ولا يحب محمد رضا أيضاً ، ابلاغ كبار الشخصيات قرار اقالتهم ، وكان يفضل ارسال النبأ مع رسول .. والسبب النفساني لهذا التصرف هو بعض الضعف ، فقد كان لا يحب رؤية خيبة الامل ترتسم على وجه محدثه .

وغالباً ما أضعف هذا التصرف شعبيته ، وكثيراً ما حدث انه أظهر الود ، في إحدى المناسبات الاجتماعية ، لشخص قرر أن يقيله من منصبه في اليوم التالي .. وكان هذا الاخير طبعاً يصاب بصدمة قوية ، عند ابلاغه قرار الاقالة .

إلا انني أريد أن أوضح ، ان الشاه لم يكن يتصرف وفقاً لنزواته ، بعكس والده ، وعندما يتخلى عن أحد معاونيه يكون متأكداً بأن لديه أسباباً وجيهة لذلك .. وكان ، قبل أن يتخذ قراراً ، يدرس القضية من جميع وجوهها ، ويطلب المشورة ، من أكبر عدد من الناس .

وقد وجه اليه اللوم كثيراً ، كما يحدث عادة لجميع رؤساء الدول ، لتأثره بآراء مستشارين معينين .. وكان من السهل قول ذلك ، ولكنني لم ألاحظ شيئاً كهذا ، فقد كان يصغي دائماً إلى وجهات نظر متباينة ، ثم يتخذ قراره .

ولم يكن تأثيري بالقدر الذي تخيله كثيرون ، وقد كان لرأيي تأثير ، طبعاً ، عندما يتعلق الامر بشؤون البلاط الداخلية .. وكنا نتحدث كل يوم تقريباً في الوضع السياسي .. إلا انني لم أكن يوماً قوة خفية خلف

العرش ، ولم أستخدم نفوذي ، كما سيتضح في ما بعد ، إلا في حالات خطيرة معينة .

وكان الشاه أحياناً يجد صعوبة في اتخاذ قرار ما ، ويحب مناقشة القضية معي ، ولكنه كان يتمسك بالقرار الذي يتخذه ، حتى لو اكسبه ذلك أعداء كثيرين ، وكانت شجاعته المعنوية توازي جرأته كطيار .

وهناك موضوع لم يبحثه محمد رضا معي أبداً ، هو موضوع النساء ، اللواتي عرفهن قبلي ، وكل ما أعرفه سمعت به من أصدقائي ، وأفراد عائلتي .

كان زواجه بفوزية تعيساً منذ البداية .. فقد تربت في الترف ، ولم تكن تستطيع الاعتياد على الحياة البسيطة ، نسبياً ، في بلاط آل بهلوي .

ولم تتعلم اللغة الفارسية تماماً لأنها كانت تعتبر طهران مدينة ريفية ، وظلت طول مدة زواجها من الشاه تحن إلى صالونات القاهرة !..

وعرف الشاه ، بعد طلاقه من فوزية ، مثل جميع الرجال ، سلسلة من المغامرات ، بينها مغامرات مع أوروبيات ، واميركيات .. وكان يحب النساء الأوروبيات ، ولكنه لم يفكر يوماً ، حسب ما اعلم ، بالزواج من احداهن .

فقد كان أحكم من أن يفعل ذلك ، إذ ان مصلحة بلاده كانت أهم من كل شيء ، ولم يكن يقبل بعقد زواج ، لا يتفق من جميع الجهات مع مركزه في العالم الاسلامي .

والواقع ان الشاه كان أكثر ايماناً من والده ، وكان يتحدث دائماً عن الرؤيا التي ظهرت له وهو في السابعة من العمر .. فقد ظهر له الإمام علي مرة ، أثناء اصابته بالحمى .

وفي مرة أخرى ، مرّ الإمام علي أمامه ، وحوله هالة من نور ، ولم ير مرافقه شيئاً ، ولكن الشاه ظل ، رغم تقدمه في السن ، مؤمناً بهذه الرؤيا .. ولعل ميله للأمور الروحانية يفسر ايمانه الراسخ بمصيره ،

الذي لا يزال يحتفظ به حتى اليوم .

والشاه ذو شخصية متعددة الجوانب ، ولكنني كنت كلما ازددت معرفة به ، ازددت تعلقاً به . ولعل تعلقي به ازداد ، بسبب المصاعب التي كان يواجهها .. وقد وجدت انه رجل يستحق الاعجاب ، وشعرت بأن عليّ أن أساعده .

ولكنني أدركت في نفس الوقت ، وخاصة في « سعد آباد » ، انني لم أتزوج الشاه وحده ، بل جميع عائلته .. وقد أطلعتني رفقتي اليومية لأفراد أسرة بهلوي على أشياء كثيرة ، تلقي ضوءاً جديداً على تصرفاتهم .

وكانت « تاج ملوك » ، والدة الشاه ، زعيمة هذه الأسرة ، دون منازع .. كانت امرأة متكبرة ، لا تنسى أبداً ان زوجها هو مؤسس الاسرة المالكة .. ولهذا كانت تعتقد بأنها أرفع مقاماً من أن تأتي هي لزيارتنا ..

ورغم اني كنت أحتل مركزاً أرفع منها ، بصفتي امبراطورة ، فقد كان علينا دائماً أن نزورها ، حتى في « سعد آباد » .. ولم يكن ذلك يضايقني ، فقد كنت أحترم هذه المرأة الكبيرة السن ، ولكننا لم نتقارب أبداً على الصعيد الانساني ، فقد كان هناك فارق كبير في السن ، والاصل ..

وكان والد « تاج ملوك » قد تولى قيادة فرقة « القوزاق » التي ارتقى فيها رضا خان من جندي بسيط ، إلى ضابط .. وكان رضا أرمل ، فتزوج وهو في السابعة والثلاثين ، ابنة رئيسه .. وفي تشرين الاول سنة ١٩١٦ ولدت شمس ، وبعد ثلاث سنين ولد محمد رضا ، واخته التوأم ، اشرف .

ولكن ذلك لم يمنع رضا من اتخاذ زوجتين اخريين له ، الواحدة تلو الأخرى ، بعد استلامه الحكم .

ومثل جميع ايرانيات ذلك العهد ، وجدت « تاج ملوك » الأمر طبيعياً ، إذ انها بقيت « الزوجة الرئيسية » ، نظراً لأنها والدة البكر .

وقد اكتشفت انها ما زالت تعيش بافكار عالم الحريم .. ولا يعني ذلك انها لم تكن تتمتع بأي نفوذ . بالعكس ، فقد فوجئت عندما اكتشفت مدى النفوذ النسائي على بلاط طهران . ومع ان النساء كن محرومات رسمياً من حقوقهن فقد كن يعرفن الف حيلة ، لفرض ارادتهن .

ومن الخطأ التصور انهن يتدخلن في السياسة العليا ، فقد كان أفقهن أضيق من أن يتيح لهن ذلك ، كن يهتممن بدسائس البلاط ، وكانت « تاج ملوك » بارعة جداً في ذلك .

فقد كانت تستطيع قضاء ساعات مع صديقاتها في تناول الشاي ، والتحدث عن فضائح طهران .. ولعلها كانت تأخذ عليّ انني لم أستطع ، أو لم أشأ ، الاشتراك في ذلك .

ولم تكن شقيقات الشاه أيضاً قادرات على التخلص من ماضيهن ، فقد بقين ، رغم تحررهن الخارجي ، بنات رضا خان ، الذي فرض عليهن طاعة عمياء ، حتى في زواجهن .

ولا يمكن فهم « شمس » و « أشرف » تماماً ، إلا بعد الاطلاع على مراحل صباهما .

فبعكس الشائعات المنتشرة ، لم تكن أشرف أبداً ابنة الشاه السابق المفضلة ، ولم يقل أيضاً عن ابنه محمد انه مائع ، وأن أشرف هي « الرجل الوحيد في العائلة » ، ولم يكن هـذا الامر وارداً ، لانه كان على الفتيات أن يبقين في عزلة تامة ، عندما كن صغيرات .

والواقع ان أشرف لقيت الاهمال من والديها ، وكان رضا شاه يفضل « شمس » ، ويدللها في كل مناسبة .. وأستطيع حتى ضمان صحة الرواية التالية :

في أحد الأيام ، عندما أصبحت الفتاتان في سن الزواج ، استدعاهما

رضا إلى مكتبه ، وقدّم اليهما شابين قائلاً :
- « هذان هما زوجاكما ، آمل أن يسعداكما . »
وكان احدهما علي غافان ، وهو ابن ملاك كبير ، والثاني علي جام .
وتقرر أن تتزوج شمس غافان ، وأشرف جام .. ولكن قبل يومين من الزواج ، ذهبت شمس إلى أبيها وقالت له :
- « إن جام يعجبني أكثر ، ألا يمكن أن نتبادل خطيبينا ؟ »
وأجاب رضا شاه :
- « حسناً . سأرتب الأمر . »
وفي اللحظة الأخيرة اضطرت أشرف للتخلي عن خطيبها لشمس ، والزواج من خطيب شقيقتها بدلاً من خطيبها .. وقد كان الزوجان فاشلين في ما بعد .
وعندما هربت شمس إلى مصر سنة ١٩٤٦ مع الموسيقي مرداد باهلبود استمرت العجلة في الدوران .. ونظراً لأن الامبراطورة فوزية اختفت بعد ذلك بقليل ، أصبحت أشرف ، فجأة ، السيدة الاولى في البلاط .
وقد اغتنمت هذه الفرصة طبعاً ، للانتقام من كل الاهانات التي عانتها ، واستطاعت ، لأول مرة ، القيام بالدور الرئيسي في طهران ، وأصبح صالونها مركز المجتمع الايراني ، وتمكنت من تثبيت مركزها .
ولما عادت شمس من المنفى ، وجدت مركزها السابق محتلاً ، وأخذت تسعى إلى تغيير هذا الوضع . وهكذا رسمت خطة ، لاسترداد نفوذها ، بأدخالي إلى البلاط ، كحصان طروادة .. ولكنها أصيبت بخيبة أمل جديدة ، لأنني لا أحب هذه المناورات .
والواقع انني وجدت شقيقتها أقرب إلى القلب منها ، وقد وصفت أشرف كثيراً بأنها « فهدة » ، تحاول دائماً التآمر ضدي ، ولكنني ، منذ البداية ، تفاهمت معها أكثر من شمس ، ووجدت فوراً ان علاقتي بها أسهل .

وكانت المنافسة بين الشقيقتين حادة جداً ، خلال أول صيف قضيته في سعداباد .. وكانت « شمس » لا تأتي الينا عندما تعرف ان أشرف مدعوة أيضاً .

وغالباً ما كانت تعدل عن الحضور ، لأنني في اليوم السابق لم أكن « لطيفة كفاية » معها ، أو لأنني « لم أقل كلمة اعجاب بقبعتها الجديدة !.. »

أما أشرف فكانت بالعكس ، تأتي دائماً ، وغالباً ما قامت بنفسها بتنظيم اجتماعات لنا .

وأستطيع ان أقول منذ الآن ، انني لم أتشاجر أبداً مع الأميرة أشرف وكنت أشعر طبعاً بأنها تغار مني هي الأخرى ، وبشكل أقوى من أختها .

فقد كانت « شمس » لا تطلب إلا رضاي ، اما أشرف فكانت تريد مكاني .. ولكنها كانت أذكى من أن تخاصمني علناً ، كما ان تعلقها بشقيقها منعها من التآمر ضدي ، من خلف ظهره .

وهكذا بقينا صديقتين ، حتى نهاية زواجي .. اما ما عدا ذلك ، فلم يكن سوى مجرد اختلاف .

* * *

تحدثت آنفاً عن فاطمة ، شقيقة الشاه الصغرى .. إنها لم تبق طويلاً في طهران ، بعد زواجنا ، بل سافرت مع زوجها إلى كاليفورنيا .. وقد انفصلت في ما بعد عن السيد هيلاير ، وتزوجت الطيار الايراني محمد ختام .

وكنت طبعاً أقابل كثيراً أشقاء الشاه ، في سعداباد .. وما عدا الثلاثة الكبار ، لم يكونوا يحتلون مراكز هامة ، بل كانوا يديرون ممتلكاتهم ويمارسون الرياضة ، ويذهبون كثيراً إلى الصيد .

وكان علي رضا ، وهو شقيق الشاه الوحيد من نفس الاب ، والأم، طويل القامة ، يبدو عليه الجد . وقد تلقى علومه في كلية « لو روزاي » مع الشاه ، ثم أقام في باريس ، حيث تزوج كريستيان شوليفسكي ، وهي بولونية مطلقة ، وقد رزق منها ولداً ، ولكنه عاد في ما بعد إلى طهران ، دون زوجته وولده .

وعندما تعرفت اليه كان يعيش مع صديقة لم تقدّم إليّ أبداً .. فلم تكن الامبراطورة الوالدة تقبل بأن يحضر الامراء عشيقاتهم إلى البلاط ، إلا ان علياً لم يكن زير نساء ، كما انه لم يكن يهتم بالتسليات الاجتماعية .. كان يعيش منعزلاً جداً ، ويبدو دائم الاستياء ، لأن الشاه كان يعامله مثل سائر اخوته .

وترددت شائعة مرة بأن بعض المتآمرين أرادوا خلع الشاه وتولية « علي » العرش ... ولكن علياً كان يحب الشاه كثيراً ، ولم تكن لديه أية مطامع سياسية .

كان الصيد هو غرامه الوحيد ، وقد امتلأ منزله بالحيوانات المحنطة وبالجلود التي جمعها خلال رحلات الصيد الكبرى ، في أفريقيا ، والهند ، وافغانستان .

أما الأخ الثاني فكان غلام رضا ، وهو ابن رضا شاه الوحيد ، من زوجته الثالثة التي طلقها ، بعد سنة من ولادة غلام .. وكان هـذا الاخير ، بصفته رئيس اللجنة الاولمبية ، يهتم كثيراً بالرياضة في ايران .

وكنا نقابل غلام ، وزوجته « همه » ، يومياً تقريباً ، نظراً لأنهما كانا يقيمان بجوارنا في سعداباد .

وكانت « همه » من عائلة أطباء ايرانيين معروفة ، وقد رزق الزوجان بولد وبنت .

وقد أصيب غلام بصدمة قوية ، لأنه كان يحب ولديه حتى العبادة . وانهار زواجهما بعد مدة قصيرة .. فقد ازدادت أخلاق غلام سوءاً ،

فأخذ يعامل « همه » معاملة سيئة جداً ، فهجرته في أحد الايام . وبعد الطلاق تزوجت ابتي حاج ، الذي كان يشرف ، في ذلك العهد ، على بناء السدود الايرانية .

ولكن نظراً لأن « همه » كانت صديقة حميمة لأشرف ، فقد استمرت في زيارة البلاط ، مع زوجها الجديد .. وقد وجدتها لطيفة ، واستقبلتها مراراً . وتزوج غلام بعد مدة فتاة ايرانية .

ويأتي بعد ذلك في القائمة الامير عبد الرضا ، الذي درس الاقتصاد السياسي في اميركا ، والذي يعتبر ، بعد الشاه ، أذكى اخوته . وقد تزوج ابنة سفير مطلقة ، تدعى باريسيا ساند .

وكانت باريسيا واحدة من أجمل النساء في البلاد ، وكان زواجهما سعيداً جداً .. والواقع ان عبد الرضا هو الوحيد في عائلة بهلوي ، الذي لم يتزوج سوى مرة واحدة ، والذي عاش بسعادة ... ولا أزال أعتبر باريسيا ، وهي امرأة ذكية جداً ، حتى اليوم ، من صديقاتي .

ولم تكن لاخوة الشاه الصغار الثلاثة أهمية كبيرة ، وهم : أحمد رضا ، ومحمد رضا ، الذي يعتبر جميل العائلة ، وحامد رضا .. وكان الثلاثة ، رغم صغر سنهم ، مطلقين . وقد تم طلاق حامد رضا بناء على طلب زوجته « مينو » .

وكان هذا الأمر حديثاً بالنسبة لايران ، فالمعروف ان الرجل وحده يتمتع ، وفقاً للعادات الاسلامية القديمة ، بحق الطلاق .. وكان يكفي أن يقول لزوجته « أنتِ طالق » ، ليصبح الطلاق ناجزاً .

ومنذ بضع سنين أصبح بامكان الفتيات المخطوبات الاحتفاظ لأنفسهن بنفس الحق في عقد الزواج ، ولا شك بأن الزواج ، الذي يمكن للطرفين حله بسهولة ، ليس زواجاً حقيقياً ، ولكن هذا الأمر أخذ ينتشر .

وكانت الاميرة مينو ، وهي ابنة أخ مصدق ، من أولى الايرانيات اللواتي تمتعن بهذا الامتياز .. وقد وضعت بند احتفاظها بالعصمة في عقد

الزواج ، نظراً لمعرفتها بأن اخلاق حامد لم تكن حسنة .

وبعد مدة قصيرة تعرفت ، خلال إحدى رحلاتها إلى أوروبا ، إلى الدبلوماسي ليلاند روزنبرغ ، وهكذا بعثت «مينو» برسالة إلى أميرها تبلغه انهـا ألغت زواجهما ، وتزوجت السيد روزنبرغ .. وقد جاء الاثنان ، بعد ذلك ، مراراً إلى طهران ، واستمرا في التردد على البلاط .

وكان جميع هؤلاء الاخوة ، والاخوات ، والاصهار ، والكنّات، والازواج ، والازواج السابقين ، على علاقات طيبة تقريباً في ما بينهم .

وكنت أجد صعوبة في التفاهم معهم ، لأن كلاً منهم كان يقف مني موقفاً مختلفاً عن موقف الآخر ، وهكذا وجـدت من الحكمة أن أبقى متحفظة قليلاً مع الجميع ، ولكنهم غالباً مـا أساءوا تفسير هذا الموقف .

والشخص الوحيد الذي تفاهمت معه أكثر من الجميع كـان الاميرة شاهناز ، ابنة الشاه ، البالغة من العمر احد عشر عاماً .. فقد أحضرها الشاه ، الذي كان قد أرسلها إلى مدرسة داخلية في سويسرا ، إلى سعداباد في صيف عام ١٩٥١ ، لقضاء العطلة .

وكان واضحاً ان المسكينة تعيش محرومة من حب والديها ، ولم تكن قد رأت أباها منذ خمس سنين .

وأنزلنا شاهناز في منزل واقع داخل حديقة سعد اباد ، كانت قـد أقامت فيه في طفولتها . وبذلتُ أقصى جهدي لأدللها .

ورغم اني لم أكن أكبرها بأكثر من سبع سنين فسرعان ما أخذت تدعوني : أمي ..

وخلال الصيف ازداد الشاه انشغالاً بالازمة السياسية ... فقد أقلق تأميم حقول البترول الايرانية الغرب كثيراً ، وجاء عدد كبير من مبعوثي أوروبا ، واميركا ، بينهم الدكتور افريل هاريمان ، إلى سعد اباد ،

للبحث في تسوية مع الشاه .

وفي هذه الاثناء كنت أرسم المخطط لتوسيع نشاطي الاجتماعي ، وأردت إنشاء سلسلة من مستشفيات التوليد ، والمصحات ، في المدن التي ينتشر فيها البؤس بصورة خاصة .

وكان أحد مساعدي الدكتور مصدق ، ابن رئيس الوزراء . إلا انني لم أستطع اقناع المدينة بتمويل هذه المشاريع ، وقام أشخاص في البلاط ، لا يضمرون لي الخير ، بعرقلة جهودي .

وكان أقواهم وزير البلاط ، حسين علاء ، البالغ من العمر ٦٥ سنة .. لقد كان مخلصاً جداً للشاه ، وكان يعهد اليه برئاسة الحكومة ، كلما لم يتوفر رئيس وزراء مناسب .

ولم تكن لديه آراء خاصة . وكان يقال في البلاد انه من رأي آخر من يتحدث اليه .

وكان علاء خاضعاً لنفوذ زوجته ، ولم تكن هذه الاخيرة تعرفني أبداً ، ولكنها أصبحت عدوتي منذ البداية .. فقد توقّع الزوجان أن يتزوج الشاه ابنتهما ، ولم تستطع السيدة علاء أبداً التغلب على خيبة الأمل هذه ، فقاطعت حفـلة زواجي ، ولم تأتِ إلى البلاط بعد ذلك ... وكانت الوحيدة ، بـين زوجات كبار الرسميين ، الـتي لم تقدّم احترامها إليّ .

وقد أظهر علاء لي الاحترام اللازم ، ولكنه كان يتآمر عليّ خفية .. وكان بامكانه تأمين الوسائل اللازمة لمؤسساتي الاجتماعية ، ولكنه عمل ، بدلاً من ذلك ، على عرقلة جميع مشاريعي .

وكان هناك متـآمر آخر أثار لي المتاعب في البداية .. انه « ارنست بيرون » ، السويسري الاصل ، وهو أغمض شخصية قابلتها في طهران . وكان كثيرون يسمونه « راسبوتين الايراني » .. ورغم ان في هذه التسمية مبالغة ، فقد كان يقوم بدور مقلق في حاشية الشاه .

وكل ما استطعت معرفته ان « بيرون » كان ، في الاصل ، بستانياً في كلية « لو روزاي » .. وعندما أنهى محمد رضا دروسه أحضره معه إلى طهران ، ولم يكن الشاه السابق يقبل بوجود أجانب في البلاط ، ولكنه استثنى هذا السويسري من ذلك .

ولم يعد بيرون أبداً إلى بلاده ، ولم يكن يحتل أي منصب رسمي ، ولكنه كان يعيش في البلاط ، كصديق شخصي للشاه .

ورغم أصله المتواضع فقد كان يعتبر أقرب المستشارين إلى محمد رضا ، وكان يأتي في كل صباح إلى غرفته ، لتبادل الأحاديث معه .

ولم يكن هناك من يعرف ماذا يفعل . وكان يدعي انه شاعر ، وفيلسوف .. كما كان ، في نفس الوقت ، نوعاً من الوسيط بين الشاه ، والسفيرين الانكليزي ، والاميركي .

وقبل قليل من وصولي إلى طهران أصيب بيرون بحادث ، في ظروف غامضة ، وبقيت إحدى ساقيه مشلولة ، وقال كثيرون انه تسمم .

وعندما أصبحت امبراطورة حاول بيرون التدخل في حياتي الخاصة أيضاً .. وكان يأتي كثيراً إلى غرفتي ، ويثير مواضيع خاصة ، لا دخل له فيها .

وفي مساء أحد الأيام ، عندما بدأ يستجوبني عن علاقاتي الزوجية ، فقدت صبري ، وقلت له :

— « أرجوك ألا تنسى مع من تتكلم ، يا سيد بيرون ، وليس من اللائق أن تلقي علي أسئلة كهذه . »

وانصرف مستاء .. ومنذ تلك اللحظة لم يترك فرصة تمر دون أن يفتري علي .

ولم أكن طبعاً ضحيته الوحيدة ، فقد كان يحرّض شقيقتيْ الشاه ، الواحدة على الاخرى ، فيهاجم شمس يوماً ، وبعد يومين يهاجم أشرف

ولم يكن ممكناً تبين أي جانب يؤيد .
وقد توفي بيرون سنة ١٩٦١ ، وحمل سره إلى القبر .
وهذا مثال على طابع بلاط طهران المميز : لم أستطع أبداً ، حتى وانا امبراطورة ، معرفة حقيقة العلاقات بين الشاه ، وهذا الرجل ..

* * *

وبعد ابعاد « فروغ صفر » أصبح الدكتور عيادي كاتم الاسرار الحقيقي الوحيد لدي . وكان يأتي كل يوم لزيارتي ، حتى في سعداباد ، نظراً لأني كنت لا أزال أعاني من ذيول حمى التيفوئيد .
وفي صباح أحد الأيام لم يحضر الدكتور عيادي ، وانقطعت أخباره ، تماماً عني .. وشعرت بالقلق ، فسألت الشاه عما حدث لطبيبي الخاص..
وهزّ محمد رضا كتفيه بارتباك وأجابني :
— « انني آسف ، ولكن عليكِ أن تستغني موقتاً ، عن خدمات الدكتور عيادي . »
ونظرت اليه باستغراب ، بينما تابع قائلاً :
— « إن الدكتور عيادي من عائلة بهائية ، وكانت أمه من زعماء هذه الطائفة .. ومن الافضل ، لأجل سلامته ، ألا يأتي إلى البلاط موقتاً . »
وفعلاً كان الملا الكاشاني ، وهو أكبر زعيم ديني في ايران ، قد أعلن مجدداً الثورة ضدّ البهائيين ، فقُتِل مئات منهم ، وأحرقت منازلهم .
وكان ميرزا حسن علي قد أسس هذه الطائفة في سنة ١٨١٣ .. وهي تعتمد على كتب الإمام علي ، وتعلن ان هناك وحدة روحية بين جميع الاديان الكبرى .

وقد اعتبر رجال الدين هذا المذهب إلحاداً. وكانوا يخشون أن يفقدوا نفوذهم ، إذا ما لقيت هذه النظرية الاقبال .

ولهذا كانوا يحرّضون الشعب ، بين وقت وآخر ، ضد البهائيين .. وكان ذلك يسفر دائماً عن اضطرابات دموية .

وقال الشاه :

— « انني آسف طبعاً لهذه الاضطهادات ، ولكننا عاجزون عن عمل أي شيء ، في القضايا الدينية ، وعلينا أن ننتظر حتى تهدأ العاصفة . »

وحزنت كثيراً لذلك ، وبدا لي انه يستحيل عليّ أن أتحمّل طويلاً حياة البلاط ، دون مساعدة الدكتور عيادي .. وقد وضعوا بتصرفي عدة أطباء آخرين ، ولكنني لم أقم باستدعائهم ، إلا عند الضرورة القصوى .

وزاد كل ذلك في تدهور حالتي الصحية ، وحدث أيضاً ان الشاه أصيب ، في شهر آب ، بنوبة الزائدة ، وأجريت له عملية مستعجلة .. وكنت أسهر عليه ليلاً نهاراً .

ولكن ، حالما استرد صحته ، ألحّ عليّ الاطباء بأن أسافر إلى سويسرا للراحة .

وكان على « شاهناز » ان تعود إلى مدرستها ، في ذلك الموعد ، فقررت أن أرافقها .. وفي ٢٧ ايلول ركبت الطائرة معها إلى جنيف ، ثم اصطحبتها إلى « غستاد » في إحدى سيارات السفارة .

وبعد بضع ساعات وصلت إلى زوريخ ، حيث كانت والدتي تنتظرني .. وارتمت كل منا بين ذراعي الأخرى ، وأظن ان هذه كانت من المرات النادرة في حياتي ، التي انفجرت فيها باكية ..

وسألتني مذعورة :

– « ماذا بكِ يا ابنتي ؟.. وما سبب كل هذا النحول والشحوب ؟ »

إنها لم تكن مطلعة على الاحداث التي وقعت منذ زواجي ، إذ اني لم أكتب لها سوى بضع رسائل عادية ، لأنني لم أكن متأكدة من أن رسائلي لن تفتح ، ثم تلصق مجدداً .

واستطعت أخيراً أن أطلعها على كل مشاكلي .. وأصغت والدتي بدهشة إلى روايتي .. وكانت هي الأخرى قد تصورت حياة امبراطورة ايران بشكل مختلف .

وقد دعتني إلى التمسك بالشجاعة .. وخلال الاسابيع الثلاثة التالية ، اكتسبت قوى جديدة من هواء الجبال السويسرية المنعش .. ولحسن الحظ لم أكن أعرف ان ما تحملته كان مقدمـــة ، وان المستقبل سيكون أكثر صعوبة .

نصحت بالانقلاب على مصدق

بعد عودتي إلى طهران في تشرين الاول من عام ١٩٥١ ، شعرت بالجو يتغير .. وكنا نتجه نحو مأساة تاريخية قائمة ، لا تترك مكاناً للمشاغل الشخصية ، وجاء وقت لم نكن نستطيع النوم فيه ، إلا وبجوارنا مسدسات .

وقد رحبنا ، مثل جميع الايرانيين ، بتأميم صناعتنا البترولية ... وكنا سعداء بالتخلص من الشركات الأجنبية ، التي استثمرت ثروات أرضنا طوال نصف قرن .

وفي نفس الوقت ، أدركنا انه ليس لدينا فنيون قادرون على تكرير البترول ، ولا سفن صهاريج لنقله ، أو منظمة لتصريفه في الاسواق العالمية .

وعندما هدأ الانكليز قليلاً ، اقترحوا علينا

ان يستثمروا منشآتنا البترولية ، مقابل خمسين بالمئة من الواردات .. وشعرنا بأنهم أخذوا يعقلون ، ولو جاء ذلك متأخراً ، ولكن الدكتور مصدق أصر على رفض التعامل معهم ، وقد منع الايرانيين في « عبادان » من العمل بادارة الانكليز .

وفي تموز من عام ١٩٥١ توقفت شركة البترول الانكلو - ايرانية عن العمل ، وأعادت موظفيها إلى بلادهم .

وفي نفس الوقت عرض النزاع على محكمة العدل الدولية في لاهاي ، ولكن الدكتور مصدق رفض مسبقاً الانصياع للحكم ، اذ انه كان واثقاً بأنه يستطيع إعادة تشغيل المصافي ، بمساعدة العمال الايرانيين ، وبيع بترولنا في العالم بسهولة .

كانت الاوضاع قد وصلت إلى هذا الحد عندما عدت من زوريخ ، وكان الدكتور مصدق قد سافر إلى نيويورك ، ليدافع عن وجهة نظره أمام مجلس الامن الدولي التابع للأمم المتحدة ... وقرر المجلس الامتناع عن اتخاذ أي قرار ، بانتظار حكم لاهاي .

وعند ذاك سافر مصدق إلى واشنطن ، وطلب قرضاً قدره ١٢٢ مليون دولار ، لكي تستطيع بلاده الصمود ، ولكنه لم يحصل إلا على ٢٣ مليوناً و ٤٠٠ ألف دولار .

كان هذا المبلغ نقطة في بحر ، وأخذ الوضع في ايران يزداد سوء يوماً بعد يوم ، وأثبت مهندسونا انهم عاجزون عن استئناف العمل في « عبادان » .. وأخذت المنشآت تتعطل ، ببطء ، نظراً لعدم توفر الصيانة لها . وغطى الصدأ الانابيب ، وأصبحت أرصفة الميناء فارغة ، وتحول المرفأ إلى مدينة مهجورة .

وكان الدكتور مصدق قد وعد الشعب بأن التأميم سيزيد في رفاهيته .. ولكن بدلاً من ذلك أخذت صناديق الدولة تفرغ ، وكان على الموظفين أن ينتظروا مدة قبل أن يقبضوا رواتبهم ، وأصبحت البلاد كلها مهددة

بالمجاعة .

وعندما عاد رئيس الوزراء من اميركا ، في ٢٣ تشرين الثاني استدعاه الشاه وقال له :

– « إذا واصلنا السير في هذه الطريق ، فسنوصل ايران إلى حافة الهاوية ... ويجب أن نحاول الوصول إلى تسوية مع الانكليز . »

وصاح مصدق بحدّة :

– « أبداً يا صاحب الجلالة ، لن أبيع أبداً حقنا الموروث بصحن من الارز . »

وفي كانون الثاني عام ١٩٥٢ ، نظّم مظاهرات معادية للانكليز ، وأغلق جميع القنصليات البريطانية .. وجاء افريل هاريمان وعدة اختصاصيين اميركيين في البترول إلى طهران ، ليعرضوا عليه وساطة بنك الانعاش الدولي ، ولكنهم عادوا خائبين .

وأخذ الامير القبلي العجوز يزداد تصلباً . ولكي يغطي فشل سياسته بدأ يحرض الشعب على الشاه ، وبلاطه .

وفجأة أصبحت أسرة بهلوي سبب كل شيء .. فهي ، كما زعم ، « متفقة مع الانكليز ، والاميركيين » .. وإذا كان الشاه يوزع أراضيه على الفلاحين ، فانه لا يفعل ذلك إلا « لأسباب دعائية » ..

وجد محمد رضا نفسه أما معضلة .. كان يريد الدفاع عن نفسه ، ولكن الشعب كان آنذاك يعتبر كل احتجاج علني ضد مصدق ، نوعاً من الخيانة .. وبالاضافة إلى ان وطنيته منعته من معارضة رئيس وزرائه طوال مدة استمرار المباحثات مع الدول الغربية .

وهكذا لم يفعل شيئاً في البداية ، واستمر في الذهاب إلى مكتبه كل يوم ، ولكن ذلك لم يكن سوى عملية شكلية ، إذ ان وزراءه لم يعودوا يستشيرونه ، وأصبحوا يعتبرونه امبراطوراً صورياً انتزعت السلطة من

يديه .

وفي حياتنا الخاصة لم نعد نقابل سوى أشخاص نادرين .. وكان الشاه دائماً ، بعد الاستقبالات الرسمية ، يوجه إليّ أسئلة من النوع التالي :

ـ « هل انحنى فلان أمامكِ ؟ »

ـ « هل قبّل فلان يدكِ ؟ »

ـ « هل كان انحناء السيدة كذا ، عفوياً ، أم مفتعلاً ؟ »

ولم أكن أعلّق أيّة أهمية على هذه الشكليات ، ولكن محمد رضا كان يعتقد بأن هذه الدلائل تتيح له اكتشاف مدى اخلاص المحيطين به .

* * *

وعند بدء فصل الحر ، انتقلنا إلى « سعد اباد » .. وهناك حاول الشاه تناسي السياسة بالاهتمام بجياده ومزارعه .. وكان يربي نوعاً من الجياد أثبت أهليته في الممرات الجبلية الوعرة .

وكنت أعيش أنا الأخرى في عزلة ، ولم أكن أقابل تقريباً سوى ياوري القصر : محسن غرازوغلو ، وابن أخيه منوشهر .. وكانت زوجة محسن نصف هولندية ، ونصف مصرية .. وكنت أحبها لأنها تشاركني أفكاري الأوروبية .

وارتبطت أيضاً بصداقة مع امرأة أخرى ، تحدثت عنها قبل الآن هي باريسيما ساند ، زوجة الامير عبد الرضا .. وكانت هي الأخرى تأتي كثيراً لتناول الشاي معي ، وتعرف كيف تبدّد وجومي بأحاديثها المسلية .

وبدأت في نفس الوقت أدرس علم النفس ، فقد شعرت بأن عليّ أن أتعلّم كيف أفهم الناس ، المحيطين بي .. ونظراً لانهم جميعاً كانوا يتكلفون مظاهرهم ، فقد أردت ان اكتشف أسباب تصرفهم .

وطالعت كتب اختصاصيين كثيرة ، واستعنت مدة بمعلم ، وكان واحداً من علماء النفس النادرين في ايران ، الجديرين بهذا الاسم ، وقد شرح لي مؤلفات شاركو ، وفرومير ، ويونغ .

وساعدتني معلوماتي الجديدة على تعزية الشاه ، لأنه ازداد تعرضاً لنوبات اليأس .. كان حزيناً لرؤية المتعصبين ، يهدمون عمل حياته ، دون أن يستطيع التدخل ، وقد بذلت كل جهدي لكي أعيد اليه شجاعته .

وفي أحد أيام شهر أيار من عام ١٩٥٢ استقبل ، في قصر سعد اباد ، السفير الاميركي لوي هندرسون ، الذي عرض عليه مشاريع تسوية جديدة ..

وبعد المقابلة ، أعلن ان « حكومته ستجري دراسة دقيقة لهذه الاقتراحات » . وكان هذا كافياً لإثارة غضب مصدق .

وقد صاح العجوز ، بثورة :

— « ماذا يتخيّل جلالته ؟.. إن الشاه يتولى الملك ولكنه لا يحكم . »

وزعم ان محمد رضا خاضع « لنفوذ شرير » ، وكانت هذه التهمة موجهة إلى الامبراطورة الوالدة ، والاميرات ... والواقع ان الامبراطورة الوالدة لم تكن تخفي حذرها من ديك القتال العجوز .. فهي تعرفه منذ عشرين سنة ، كرجل ذي تصرفات مفاجئة ، وقد اضطر والد الشاه لنفيه إلى شرق ايران .

ولم تكن الاميرة أشرف أيضاً تتحفظ في كلامها عندما تتحدث عن مصدق . ولكن ، لا هي ، ولا والدتها ، كانتا تستطيعان فرض رأيهما على الشاه ، فهو لم يكن يقيم وزناً إلا لآراء الخبراء الدوليين ، الذين كانوا جميعاً يتكهنون بأن ايران سائرة إلى الخراب .

وفي ١٣ تموز من عام ١٩٥٢ ، ضرب الدكتور مصدق ضربة جديدة ، فطلب سلطة مطلقة لمدة ستة شهور ، ومنصب وزير

الحرب .

وكان يريد ، بهذه الطريقة ، أن يمنع الضباط المخلصين للامبراطور من القيام بانقلاب ضده . وعندما رفض الشاه التخلي عن القيادة العليا للجيش استقال مصدق .

واختير الملاك أحمد غافان خلفاً له ، وارتكب غافان خطأ معارضته تأميم الصناعة البترولية ، وقد اضطر للاستقالة ، بعد أربعة شهور ، واستدعى البرلمان مصدق ، ومنحه بالاجماع السلطات المطلقة ، التي طلبها .

وحدثت الثورة في نفس الاسبوع في القاهرة ، وقام أبطال الثورة بخلع الملك فاروق ، الذي اضطر لمغادرة البلاد .. وقد خلفت هذه الاحداث تأثيراً في ايران ، واهتز « عرش الطاووس » أكثر من أي وقت مضى .

وفي ٣ آب وجه مصدق انذاراً نهائياً : إما ان تغادر الامبراطورة الوالدة ، والاميرة أشرف البلاد في غضون ٤٨ ساعة ، أو يعتقلهما بتهمة التآمر ...

ولا يمكنني أن أتصور انه كان هو نفسه يصدق وجود مؤامرة ... ولكنه كان يريد الانتقام من الاهانات التي تعرّض لها في السابق ، وذلك بتعكير حياة أسرة بهلوي .

ونظراً لأن الشاه كان عاجزاً عن مساعدة والدته وشقيقته ، فقد قامتا بحزم أمتعتهما بسرعة .

واستقلت الامبراطورة الوالدة الطائرة إلى كاليفورنيا ، برفقة الاميرة شمس .. ورغم ان هذه الاخيرة لم تتلق أمراً بالرحيل ، فانها لم تشأ أن تترك أمها العجوز .

وقد استأجرت مع زوجها وأولادها دارة في « بيفرلي هيلز » وأقامت العائلة كلها فيها ، بينما هربت أشرف إلى باريس .

ومنذ تلك اللحظة أصبح مصدق مسيطراً على الاوضاع .. وعندما عرض عليه الرئيس ترومان ، ورئيس الوزراء تشرشل تسوية جديدة في ٢٧ آب كان جوابه سلبياً .

ورفض استقبال الدكتور هيالمار شاخت ، الذي عرض عليه رأياً حيادياً ، في ١١ ايلول ، وبدلاً من ذلك عيّن عدو الانكليز حسين فاطمي وزيراً للخارجية .. وفي ١٧ تشرين الاول قرر قطع العلاقات الدبلوماسية مع لندن .

والامر الخطر في تصرفاته المتهورة ، انه كان يزداد اعتماداً على موسكو .. وأراد الروس ان يثبتوا له ان الاتحاد السوفياتي هو المنقذ الوحيد لايران ، فزادوا مشترياتهم من ١٦٤ مليون ريال في سنة ١٩٥١ إلى ٤٣٥ مليوناً في سنة ١٩٥٢ .

وقد أدى ذلك طبعاً إلى شل تدابير ضد « توده » ، المنظمة الشيوعية السرية في ايران .

ورغم ان هذه المنظمة لم تكن تضم سوى عشرة آلاف عضو ، فقد كانت تستطيع توزيع مئات الوف المناشير كل شهر .

وفي قرى شمال ايران وضع أنصار « توده » مكبرات للصوت ، أتاحت لاذاعة اذربيجان السوفياتية أن تبث بواسطتها دعايتها بكل أمان .

وفي الجيش عارض ضباط كثيرون هذه السياسة ، فأرسل مصدق إلى الصحراء ٨٧ منهم ، كان بينهم الجنرالان : فضل الله زاهدي ، وبهارماست .

وقد حرم هذا التدبير الشاه من آخر أسلحته ، وجعله يتساءل عما بقي لديه أن يفعله في ايران .. وكان بقاؤه يزيده تورطاً ، يوماً بعد يوم ، إذ انه يدفع إلى الاعتقاد بأنه يؤيد سياسة رئيس وزرائه .

وفي شباط ١٩٥٣ قرر قضاء بعض الوقت في الخارج ، ووافق مصدق فوراً ، ووضع بتصرفنا احد عشر ألف دولار ، لتسديد نفقات سفرنا .

ولكي لا نثير الانتباه اضطررنا للسفر إلى بيروت ، بطريق البر .. فأرسلنا حقائبنا مسبقاً في احدى سيارات القصر ، وتظاهرنا أمام الخدم ، بأننا ذاهبان لممارسة رياضة الشتاء .

ولو انني ادعيت بأن فكرة مغادرة ايران قد حطمت قلبي ، لكنت كاذبة .. فبعد كل ما تحملته ، خلال العامين المنصرمين ، أصبحت أنظر إلى نفينا دون أسف .. وبدا لي اننا سنعيش في بلد آخر ، حياة أكثر تواضعاً ، ولكنها طبيعية أكثر .

ومن جهة أخرى كنت أحب الشاه ، وكنت أعرف انه لم يكن يعيش إلا لأجل ايران .. ولم يكن يستطيع الاشتراك في أي حديث دون أن يثير مواضيع سياسية .

وكنت أخشى ألا يشعر بالسعادة في « كان » أو « مونت كارلو » ، كملك مخلوع ، ولهذا امتنعت عن الضغط عليه بأية صورة من الصور .

وكم كانت دهشتي كبيرة عندما جاءني سفير الملا الكاشاني ، زعيم ايران الوافي ، عشية سفرنا وقال :

— « علمنا يا صاحبة الجلالة بأنكِ أقنعتِ الشاه بمغادرة البلاد .. ان الملا يرجوكِ أن تستخدمي كل نفوذكِ ، لجعل الشاه يعدل عن هذه الفكرة . »

وقد كان الكاشاني رفيقاً سياسياً قديماً لمصدق ، ولكن يبدو انه بدأ يخاف .. فقد كان يخشى أن يأتي مصدق بالشيوعيين إلى الحكم ، إذا زال النظام الامبراطوري .

وأخبرت الشاه بهذه الزيارة ، ولكنه أصر على قراره .. وفي صباح

الغد جاء مصدق لوداعنا .. وكان لطيفاً جداً ، وتمنى لنا رحلة سعيدة ... وكان واضحاً انه يشعر بارتياح ، لتخلصه منا بهذه السهولة .

وفيما كنا نتبادل الحديث سمعنا أصواتاً في الشارع ، أمام قصر « اختصاصي » ، ورأينا ، من النافذة ، أشخاصاً يتسلقون الاشجار ، والجدران .

ونصحنا مصدق بأن نهرب قبل أن يتعرض القصر للهجوم .. ولكن عندما ارتفعت أصوات الجماهير أدركنا فجأة انها لم تكن تتظاهر ضدنا بل معنا .

كان المتظاهرون من أنصار الملا الكاشاني والبهبهاني ، وكانوا يريدون منع سفرنا في آخر لحظة .. واحتشد ألوف منهم أمام القصر ، وأخذوا يهتفون :

« عاش الشاه ! يجب أن يبقى الزوجان الامبراطوريان ! ليسقط مصدق ! »

وتبادلنا أنا ومحمد رضا النظرات ، بدهشة ، بينما أخذ رئيس الوزراء يرتجف .. ولو لم يكن المشهد جدياً ، لظننت نفسي في إحدى مسرحيات « برنارد شو » .

وقلت بلهجة مهدئة وأنا أمسك بذراع الرجل العجوز :

— « هذا هو طريق الباب الخلفي .. وستستطيع الانتقال من المنزل المجاور ، إلى شارع آخر ، ولن يتعرض اليك فيه احد . »

بعد انصراف مصدق ، طلب الشاه مذياعاً ، وألقى كلمة في الجماهير المحتشدة أمام بوابة القصر ، وشكرها ، والدموع في عينيه ، على مظاهرتها ، وأكد لها انه لن يغادر طهران .

أما أنا ، بطبيعتي العملية ، فكنت أتساءل عما سيحدث بأمتعتنا التي أرسلناها سلفاً في السيارة . ولكن هذه الاخيرة عادت في اليوم التالي إذ

انها تعرضت لعاصفة ثلجية عنيفة على طريق الحدود .

وقال محمد رضا :

– « هل رأيتِ ؟ حتى السماء أرادت أن نبقى هنا . »

ولم يغيّر هذا الحادث شيئاً من الاوضاع ، في البداية ... وظل الدكتور مصدق رئيساً للحكومة ، ولكن الشاه كان قد استرد بعض الامل .. لقد كان يعتقد قبل ذلك بأنه لم يعد له أي سند تقريباً في البلاد .. اما الآن فقد أدرك ان كثيرين من الايرانيين ، لا يريدون الاسهام في سياسة مصدق « الهدامة » .

ولكن المعركة لم تكن قد انتهت .. وإذا ما كان الشاه قد نجح في استخدام الاشخاص الباقين أوفياء له في الجيش ، وبين رجال الدين ، وفي البرلمان ، فربما تمكن من التغلب على خصمه .. وعلى كل حال لم يكن هناك مكان في ايران للخصمين .. وكنا نعرف جميعاً ان على أحد الرجلين ، مصدق ، أو الشاه ، أن ينسحب ، عاجلاً أو آجلاً .

وفي ١٧ نيسان عام ١٩٥٣ ، حدثت اضطرابات جديدة في طهران .. وأرسل مصدق أنصاره إلى الشارع ، للتظاهر ضد الشاه .. وقد اختفى مدير الشرطة بصورة غامضة ، وبعد مدة عثر على جثته ممزقة ، على كومة من الركام خارج المدينة .

ووجد الشاه انه يحسن بي أن أذهب إلى أوروبا ، وكان يريد أن يراني في مأمن ، حتى انتهاء الازمة ، وقد قال لي :

– « حالما أنتصر ، سألحق بكِ ، ثم نقضي اجازة معاً . »

وسألته :

– « وإذا ما هزمت ؟ »

– « إذن سأحضر ، وسنحاول بدء حياة جديدة . »

وقبل سفري أعطاني بعض التعليمات .. فأوصاني بأن أتجنب الشخصيات

الانكليزية ، والاميركية ، حتى لا يظن الناس أنه أرسلني كمبعوثة إلى الخارج .

وسافرت بالطائرة إلى روما ، ونزلت في فندق « اكسلسيور » .. وكانت حاشيتي مؤلفة من السيد غارازوغلو ، وزوجته ، وإحدى الوصيفات .

وبعد بضعة أيام وصلت والدتي أيضاً من المانيا .. وأشرف مدير المراسم الايطالي على تأمين وسائل التسلية لنا ، فرافقنا إلى ميدان سباق الخيل ، ولمشاهدة مباريات البولو ، وقدّم الينا نخبة مجتمع روما .

ولم أكن أستطيع الذهاب إلى جميع الاماكن طبعاً .. فقد دعتني السفيرة الاميركية السيدة كلارا بوث لوس ، مثلاً ، إلى حفلة في ضواحي روما .. وكنت أعجب بها كثيراً ، ولكنني اضطررت إلى أن أرفض الدعوة ، متذرعة بسبب من الأسباب ، حتى لا يسود الاعتقاد بأننا نجري مباحثات سياسية .

وبعد ثلاثة أسابيع ، تقريباً ، سافرنا إلى مدريد ، حيث دعانا الجنرال فرانكو إلى الغداء .. وبهذه المناسبة ، تعرفت أيضاً إلى ابنته كارمنسيتا ، وزوجها الجراح الدكتور فيلافيردي .. وقد أظهر لي الزوجان اكراماً يفوق بكثير الواجبات الرسمية ، وبقينا ، منذ ذلك الحين أصدقاء طيبين .

إلا انني لا أستطيع القول اني كنت مسرورة بالتجول في العالم ، بينما كانت أحداث ذات أهمية تاريخية ، تجري في بلادي .

وكنت أتحدث بالهاتف يومياً مع الشاه ، لكي أطلع على ما يجري .. ونظراً لأن الاتصالات لم تكن منظمة ، فقد كان علي غالباً أن انتظر ساعات ، للحصول على المخابرة .

وكان بأمكان عاملة الهاتف في طهران الاصغاء إلى الحديث ، واني واثقة بأنها كانت تفعل ذلك .. ولهذا كنا نتحدث وفقاً لرموز ، اتفقنا

عليها قبل رحيلي .

وكنا ندعو جميع الشخصيات الهامة بأسماء أخرى .. فكنا نسمي مصدق مثلاً ، عبد الله .. وعندما أريد أن أعرف متى سيلحق بي الشاه كنت أسأله :

— « هل سيجري ارسال الزهور قريباً ؟ »

وقد وجدت هذا الانتظار القلق صعباً جداً ، وكنت أفضل أن أكون هناك ، حتى لو تعرضت للخطر .. وكنت أحاول كل يوم أن أقنع نفسي بأن انتظاري لن يطول .

ولكن الاسابيع كانت تمر الواحد بعد الاخر ، دون ان يعطيني محمد رضا رداً ايجابياً .

وبعد أن قضيت مدة قصيرة في « كان » ، لم أعد أستطيع الانتظار ، واضطر الشاه للموافقة على عودتي .

وفي ١٥ حزيران هبطت مجدداً في طهران ووجدت الوضع كما يلي بصورة عامة :

بالاضافة إلى الملا الكاشاني ، كان نواب أقوياء آخرون ، مثل : مكي ، ونبادي ، قد انتقلوا إلى معارضة مصدق ، وكان الشاه يأمل بأن يستعين بهم لحشد أكثرية برلمانية قوية ، ضد رئيس الوزراء .... ولكن مصدق شعر بذلك وهدد بحل البرلمان ، بواسطة استفتاء شعبي ..

إلا أن محمد رضا كتب اليه يبلغه ان ذلك يشكل خرقاً للدستور .. ورد مصدق بأن القرار النهائي يعود إلى الشعب .. وأعلن أنه سيجري استفتاء شعبياً في ١٢ آب .. وأظهر ذلك بوضوح انه لا يمكن انتزاع السلطة منه بمجرد مناورة برلمانية .

وهذه أول مرة يروى فيها ما حدث بعد ذلك .. وأعتقد بأن من واجبي حيال الحقيقة التاريخية ان أزيح الستار عن دوري في الاحداث

التالية :

فعندما أعلن الرئيس ايزنهاور في ٢٥ حزيران انه لا يمكن لايران أن تعتمد على المساعدة المالية الاميركية ، ما دام النزاع البترولي باقياً دون حل ، قلت للشاه :

— « لا يمكن لهذا الأمر أن يستمر ، يا محمد رضا .. اننا نواجه الدمار . فالشوارع ، والجسور تتعطل ، وليس هناك من يصلحها ، وكلما طال انتظارنا ، ازداد الوضع خطورة .. ولا يمكن انقاذ البلاد إلا بانقلاب ضد مصدق . »

وسألني الشاه :

— « هل سمع أحد بأن عاهلاً يتآمر ضد حكومته ؟ »

وأجبته :

— « اذن ، ستكون أول من يفعل ذلك . »

وكنت آنذاك الشخص الوحيد ، تقريباً ، الذي قدّم هذا الاقتراح .. ولم يكن هناك من يجروء على القيام بأي شيء ضد مصدق ... وحتى الوزراء ورجال السياسة ، الذين ظلوا أوفياء للشاه ، كانوا يبدون مشلولين من الخوف . وكان هو نفسه ، بعد الكثير من الصدمات ، يميل إلى التروي .

وبعد ان ناقشنا هذه القضية أياماً عديدة ، قررنا استشارة أشخاص آخرين .

وقد استشرنا أشخاصاً لنا ثقة تامة في آرائهم ، وبينهم ياورا القصر غارازوغلو ، والإمام جمعة الذي عقد قراننا ، والدكتور عبدالله انتسى ، الذي أصبح في ما بعد سفيراً في واشنطن .

وعندما عرض الشاه عليهم فكرتي أجمعوا على القول :

— « لا يا صاحب الجلالة . سيكون الأمر مجازفة كبيرة جداً .. اننا نوصيكم بالانتظار حتى تسنح فرصة أنسب . »

وبعد قليل علمنا بأن مصدق ضمن مساعدة السفير السوفياتي اناتول لوريتتييف في الاستفتاء .. ويعني ذلك ان شيوعيي منظمة « توده » ، سيشتركون في الحملة ضد العائلة الامبراطورية ... وبعد ذلك لم يعد بامكان الشاه أن يتردد .. وأقرّ أخيراً بأني كنت على حق ، وقال :

– « هناك رجل واحد في البلاد ، يمكنه الاطاحة بمصدق ، هو الجنرال زاهدي .. فهو وحده يتمتع بالشجاعة اللازمة ، للقيام بمثل هذا العمل . »

ولم أكن قد قابلت زاهدي أبداً ، ولكنني سمعت الكثير عنه ، مثل كل الناس .. كان شخصية اسطورية في ايران ، ومزيجاً من السيف ، وكازانوفا ، يحرز انتصارات لدى النساء ، بقدر انتصاراته في ميدان القتال ...

وكان زاهدي قد أصبح ، وهو في الحادية والعشرين ، أصغر جنرال في الجيش الايراني .. وقد قمع الثورات الناشبة آنذاك ضد رضا شاه ، والتي قام بها الاكراد ، والتركمان ، وقبيلتي .

وخلال الحرب العالمية الثانية تولى منصب حاكم اصفهان العسكري ، وبعد دخول قوات الحلفاء سجن في فلسطين .

وقام الشاه الشاب ، بعد توليه الحكم سنة ١٩٤١ ، بتكليف الجنرال الاميركي نورمان شوارز كوبف ، وهو مدير سابق لشرطة نيوجرسي ، بإعادة تنظيم دوائر الامن الايرانية بشكل حديث ، ونظراً لأن زاهدي كان أكثر اطلاعـاً في هـذا الحقل ، فقد أعيد إلى البلاد ، بعد انتهاء الحرب ، لمساعدة الاميركي ، وقامت بين الرجلين صداقة متينة .

وكان بطل ايران السابق يعتبر زعيم المعارضة .. ومنذ اقدام مصدق على تسريحه أعلن مراراً ، وفي مناسبات عـامة ، معارضته لنظـام الحكم .

وخصصت الحكومة مكافأة مائة الف ريال لاعتقاله ، ولهذا كان عليه أن يبقى مختبئاً .

إلا انه كان يتمتع بتأييد قوي في صفوف الجيش ، والشرطة ، واعتقد الشاه بأن زاهدي سينجح في اجتذاب ضباط كثيرين ظلوا مترددين قبل ذلك .

ومثل كل صيف انتقلنا إلى « رامسار » ، الواقعة على بحر قزوين ، وهناك اطلعنا قائد الحرس الامبراطوري الكولونيل نعمة الله ناصري على ما ننوي أن نفعل .. وكان أول من أخبرناه بذلك ، إذ اننا كتمنا الأمر حتى عن عائلتينا .

ورسمنا خطة العملية مع ناصري .. وقد اشتركت في جميع المباحثات ، بصفتي القوة المحركة خلف هذا المشروع ... ولكن المهم طبعاً كان اقناع زاهدي بتبني خطتنا ، الامر الذي لم يكن سهلاً .

وكان زاهدي مختبئاً في دارة شاغرة في « اختياري » ، وهي إحدى ضواحي طهران .. وكان أفراد قبيلة المقدم ، الذين أقسموا له يمين الولاء ، يقومون بحراستها ، وقد تنكروا بازياء دراويش ، وحملة ماء ، وتجار عنب ، وأخفوا المسدسات ، والقنابل اليدوية ، في ثنايا ثيابهم .

ولحسن الحظ كنا أصدقاء مع اردشير ، ابن زاهدي ، الذي كان يتردد كثيراً على البلاط ، وقد ساعد مبعوثينا السريين في الوصول إلى والده ، وأيد الجنرال خطتنا بحماسة ، وبقينا منذ ذلك الحين على اتصال مستمر به .

وفي هذه الاثناء أصبحت واشنطن أيضاً مقتنعة بأن بترول ايران ، سيقع بين أيدي الروس ، وان مصدق سوف ينتصر على الشاه ..

ووصلت الاميرة أشرف ، التي اتصلت من تلقاء ذاتها بالاوساط الاميركية في سويسرا ، في أحد الأيام إلى طهران ، لتشجعنا على

العمل .

وعند ذاك لجأ زاهدي إلى صديقه القديم شوارز كوبف ، الذي كان يقوم برحلة خاصة في الشرق الاقصى ، وقطع الجنرال الاميركي رحلته واستقل طائرة إلى طهران .

وقد استنتج الناس ، في ما بعد ، ان الدوائر السرية الاميركية ، هي التي قادت العملية ضد مصدق من بعيد .. ولكن هذا غير صحيح ، فالذي يعرف أهمية ما كان يجري ، يجد من الطبيعي أن ترسل واشنطن مراقبين إلى ايران ، كما فعلت موسكو تماماً ، ولكن الحملة على دكتاتورية مصدق كانت من صنعنا ، وكانت عملاً ايرانياً بحتاً .

وقررنا أن يوقّع الشاه مرسوماً يقيل فيه مصدق ، ويعيّن الجنرال زاهدي رئيساً للوزراء .. وتقرر أن يتسلم زاهدي المرسوم في ١٣ آب ، وأن يوصله إلى مصدق بأسرع ما يمكن .

وكنا نعرف ان جزءاً كبيراً من الجيش يؤيد مصدق ، بقيادة رئيس الاركان رياحي .. ولكن زاهدي كان يريد احتلال جميع النقاط الستراتيجية في طهران ، قبل أن يستطيع رياحي التدخل .

وقبل قليل من اليوم المحدد ذهبنا بالطائرة إلى بلدة « كالارداشت » الجبلية الواقعة قرب رامسار . وكنا ، من الناحية الرسمية ، لا نزال في اجازة .

ولكي نؤكد هذه الفكرة اصطحبنا معنا عدة أصدقاء لم يكونوا يعرفون شيئاً ، ولكن لم تتح لنا فرصة التمتع بالراحة .

ولم تكن الشاليه ، التي نزلنا فيها ، متصلة بالعالم الخارجي إلا بواسطة الراديو .. وكنا نستطيع الاستماع إلى برنامج اذاعة طهران ، وإلى الانباء التي يذيعها جهاز خاص ، وضعناه لهذا الغرض في قصر سعد اباد .

وفي ١٣ آب علمنا من الراديو بأن مصدق انتصر في استفتائه بأكثرية ٩٩ بالمئة .. وكما كان مقرراً ذهب الكولونيل ناصري حاملاً مرسوم الشاه

إلى مقر الجنرال زاهدي .

ولزم الراديو الصمت بعد ذلك ، ولم نستطع التقاط أية أنباء ، في ١٤ و ١٥ آب .. وكان جهل التطورات مرهقاً جداً لأعصابنا حتى اننا لم نستطع النوم .

وفي الساعات الاخيرة من ليلة ١٥ — ١٦ آب استسلمت للنوم ، ولكنني استيقظت في الساعة الرابعة صباحاً ، ودخل الشاه إلى غرفتي .. ورغم سيطرته على نفسه أدركت أن مصيبة حلت بنا !..

وقال لي الشاه :

— « ثريا ، لقد اعتقل أنصار مصدق كلاً من ناصري ورفاقه .. لقد خسرنا المعركة ، ويجب أن نهرب من هنا بأسرع ما يمكن . »

وقد روى زاهدي لنا ، في ما بعد ، انه انتظر حتى مساء ١٥ آب ، ليرسل إلى رئيس الوزراء مرسوم إقالته .. وكان مجلس الوزراء يعقد اجتماعاً في ذلك المساء ، الامر الذي جعل ناصري واثقاً من مقابلة مصدق ، ولكن عملاء مزدوجين كانوا ، في هذه الاثناء ، قد كشفوا خططنا .

وعندما وصل الكولونيل ناصري إلى دارة مصدق ، في الساعة العاشرة والنصف ليلاً ، اعتقل فوراً ، وتم ابلاغ زاهدي في الوقت المناسب ، فاختفى .

مواعيد مع الموت

لم نكن نتوقع أن تسير الاحداث في هذا الاتجــاه ، لذلك لم نحضر حتى حقائبنــا إلى كالارداشت ، فــأسرعت بوضـع اللوازم الضرورية ، في حقيبة ، وصعدنــا الطــائرة الصغيرة ، التي جئنا فيها إلى الساحل .

كانت هــذه من أفجع ساعات حيــاتي .. وكان كل شيء ، بالنسبة الينا ، معلقاً في كفة الميزان . وعندما أتذكر ذلك اليوم ، أستغرب كيف يمكن للمرء ، أن يحافظ على هــدوئه ، في مثل هذه اللحظات ..؟

وأعتقد انه ، في مثل هذه الاحوال ، يظهر رد فعل غريزة المحافظة على النفس ، وينحصر الاهتمام بالامور الفورية .

وسألت الشاه :

— « هل سنذهب إلى العراق في هذه الطائرة ؟ »
وأجابني :
— « لا ، انها صغيرة جداً .. يجب أن نعود إلى « رامسار » ، لأن طائرتنا « البيتشكرافت » موجودة في المرأب هناك . »
وقلت له :
— « إذا كانت ما تزال هناك . »
وكرر الشاه قائلاً ، وهو يهز كتفيه :
— « أجل ، إذا كانت هناك . »
وخلال هذه الرحلة الجوية ، لم نكن نعرف هل نحن متجهان إلى فخ ، أو هل استولى رجال مصدق على طائرتنا ، ودمروها ... ولكننا والحمد لله ، وجدنا كل شيء على ما يرام ، واستطعنا متابعة السفر باتجاه بغداد ، مع اثنين من المساعدين وطيارنا .
وفي الطريق كان الرجال مستسلمين لليأس ، وقال الشاه :
الآن ، انتهى كل شيء .
ورغم ان الحالة كانت تدعو إلى اليأس ، فقد شعرت بحدس جديد وقلت :
— « لا تقلق . بعد أسبوع سنكون في طهران . »
وابتسم محمد رضا بحزن ، كأنه يقول لي : « أنتِ نفسكِ لا تعتقدين بذلك » ، ولكن للنساء ، في تطورات القدر ، حدساً أقوى من الرجال .. كنت أشعر بأن الشاه تسرع بالاستسلام ، وبأنه لا يزال يتمتع بعطف بين أفراد الشعب ، لا بدّ أن يظهر تحت ثقل الاحداث .
وحوالى الظهر شاهدنا مآذن بغداد من نوافذ طائرتنا . وطلبنا من المطار الاذن بالهبوط .. وأثرنا بلبلة كبيرة دون قصد .. ولو جئنا على بساط الريح ، لما أثرنا اضطراباً أكثر من الذي ساد في برج المراقبة .
وكان سبب ذلك ان موظفي المطار كانوا ينتظرون بين دقيقة وأخرى

وصول ملك العراق ، عائداً من رحلة تفتيشية .. وقد ثارت شبهاتهم طبعاً عندما وجدوا طائرة مجهولة ، تظهر في نفس اللحظة فوق مطار بغداد .

وأخذوا يسألوننا باستمرار :

— « من أنتم ؟ وماذا تريدون ؟ »

ولكن الشاه لم يشأ أن يكشف هويته ، فأبلغناهم ان المحرك أصيب بخلل ، وأمرونا بالهبوط في أقصى المدرج .. واجتازت سيارة جيب ، ملأى بالموظفين القلقين بسرعة منطقة رملية ، واقتربت منا ، ولم يتعرف أحد منهم علينا .

وانتزع محمد رضا ورقة من مفكرته ، وكتب عليها بضع كلمات وقال :

— « هل تتفضلون بايصال هذه الورقة إلى الملك ؟ »

وتفحصنا الموظفون بريبة ، ثم اقتادونا إلى ملجأ صغير .. وبعد قليل شاهدنا من النافذة استقبال الملك فيصل ، وقد استعرض حرس الشرف ، ثم انصرف دون أن يدرك ان شاه ايران ، وامبراطورتها موجودان على بعد بضعة أمتار منه ، يطلبان الملجأ .

ثم دخل مدير المطار إلى كوخنا ، وتعرف علينا فوراً ، وأسرع إلى الهاتف للاتصال بالقصر .

وعندما علم الملك فيصل بما حدث لنا ، أرسل إلى المطار وزير خارجيته خليل كنة ، وأنزلنا في دارة ملكية .

وبلغ من شدة الحرارة في بغداد ، في ذلك اليوم ، اننا لم نكن نستطيع التنفس .. وكانت الحرارة تزيد على أربعين درجة في الظل ، ولكن الدارة ، التي نزلنا فيها ، كانت مزودة ، لحسن الحظ ، بأجهزة تكييف الهواء .. ولولا ذلك لخانتني قواي ، دون أي شك ، بعد كل هذه الانفعالات .

وفي الساعة الخامسة دعانا فيصل لتناول الشاي ، ولكن لم يكن لدي سوى الفستان البني اللون ، الذي هربت فيه من الجبل .

وقد سألت :

– « هل يمكنني أن أزور الملك بهذه الثياب ، دون قبعة أو قفازين ؟ »

وأجاب كنة :

– « طبعاً ، فجلالته يعرف انكِ لستِ آتية من عرض أزياء . »

وحيانا الملك فيصل ، الذي كان في الثانية والعشرين من عمره ، بترحاب ، ودعانا للبقاء في بغداد طول المدة التي نشاء .. ولكننا لم نرغب في استغلال ضيافته مدة أطول من اللازم ، كما اننا كنا نتضايق كثيراً من الحر ، ولهذا استأجرنا طائرة انكليزية خاصة ، أقلتنا إلى روما يوم الثلاثاء في ١٨ آب .

وفي هذه الاثناء كان هربنا قد أثار ضجة في العالم .. وعندما هبطنا في مطار شامبينو وجدنا أحد ممثلي الحكومة الايطالية ، ومئات من مصوري الصحافة في استقبالنا .. وبحثنا عبثاً عن السفير نيسان نوري ، الذي نظم زواجنا قبل عامين بصفته مدير المراسم . ولكنه ، رغبة منه في الاحتفاظ برضا مصدق ، فضل أن يذهب في ذلك اليوم بالذات إلى « اوستيا » للسباحة .

ولم يكن هذا كل شيء .. كنت قد تركت في روما سيارة ابتعتها في شهر نيسان من مالي الخاص ، وعند سفري تركت المفاتيح لدى نوري . وقد رفض الآن تسليمي إياها ، ولم أستطع الحصول على هذه المفاتيح ، إلا ان أحد مستشاري السفارة كان لا يزال مستعداً للسرقة من أجل امبراطورته .

ونزلنا في فندق « اكسلسيور » ، وقضينا باقي اليوم نستريح من عناء

هربنا .. وفي المساء سمعنا بالراديو ان وزير الخارجية حسين فاطمي ألقى خطاباً ساماً ضدنا في طهران ، أمام جماهير محتشدة في الشوارع .. وقد دعا إلى شنق جميع أفراد أسرة بهلوي ، واعلان الجمهورية ، وايصال جميع الشيوعيين إلى الحكم .

وبعد هذا الخطاب أقدم أعضاء منظمة « توده » على نهب مئات الحوانيت في العاصمة ، وهاجموا مدارس ، ووزارات ، وأحرقوا عدداً لا يحصى من صور الشاه .. وانتزعوا أيضاً تماثيل رضا شاه ، ودنسوا ضريحه الموجود في أراض مقدسة .

وعند سماع هذه الانباء فقدت أنا الأخرى الامل ، وتداول الشاه معي حول ما سنفعله وقال :

– « يجب أن نقتصد يا ثريا لأنه ليس لدي مال كثير لسوء الحظ ، وقد يكفينا ذلك لشراء مزرعة . »

وسألته :

– « إلى أين تريد السفر ؟ »

– « إلى اميركا على الارجح .. إن والدتي وشمس موجودتان هناك وآمل بأن يستطيع اخوتي اللحاق بنا . »

– « هل تعني اننا سنقيم جميعاً معاً ؟ »

– « أجل ، فسيتيح لنا ذلك زيادة في التوفير . »

والواقع ان الروايات عن « الثروات الخيالية » لدى أفراد أسرة بهلوي كانت مبالغاً بها كثيراً .. لقد كانت ثروتهم مقتصرة ، بصورة خاصة، على الاملاك التي حصل عليها والدهم ، بعد تسلمه الحكم في ايران ، ولم تكن عائدات هـذه الاملاك كافية ، لتؤمّن لهم حياة متفقة مع مركزهم .. وكان الشاه يخصص لاخوته ، وأخواته مبالغ يقتطعها من مخصصاته .

وبعكس انكلترا ، حيث يتقاضى أفراد عائلة الملكة رواتب خاصة

بهم ، كان الشاه الوحيد الذي تدفع له الدولة راتباً ، وكان يتقاضى ما يوازي ٧٥٠ ألف دولار تقريباً في السنة ، بالاضافة إلى ممتلكات عائلته .. ولهذا لم يستطع أن يدخر سوى مبلغ محدود من وارداته .

وكان كثيرون يعتقدون بأننا نستطيع التمتع بكل ما يخطر لنا ، ولكن ذلك لم يكن صحيحاً ، فلم يكن بامكاننا مثلاً شراء تحف فنية ، غالية الثمن .. وكنت أعرف ان الشاه يرغب كثيراً منذ مدة طويلة بشراء طائرة خاصة جيدة ، ولكنه فضل ألا يتحمل هذه النفقات .

وكان الوضع قاتماً أكثر من أي وقت مضى ، وقد أصبحت الأراضي التي لم يوزعها محمد رضا على الفلاحين ، مهددة بأن يصادرها الاسياد الجدد ، ولم يعد أيضاً يستطيع الاعتماد على واردات مزارعه أو على راتبه .

وقد قال لي :

— « انني قلق بصورة خاصة على والدتي وأخواتي ، لقد كانت وارداتهن الشخصية ترسل اليهن حتى الآن إلى المنفى ، وإذا قطعت وارداتنا عنا فسيبقين دون مورد . »

وكان اخوة الشاه أيضاً مهددين بنفس المصير .. وكنا نعرف انهم ، إذا استطاعوا الهرب من ايران مع عائلاتهم ، فلن ينقذوا إلا أرواحهم .

ولهذا كان كل شيء متوقفاً على ما يملكه الشاه في الخارج ، وقد ادعى خصومه انه وضع ، بين ٥٠ و ٨٠ مليون دولار ، في حسابات سرية في سويسرا ، ولكن عليّ ، لسوء الحظ ، أن أخيب ظنهم .

لقد كنت آنذاك أقرب الناس إلى محمد رضا ، ولو كانت لديه حسابات من هذا النوع ، لكنت أول شخص يعهد اليه بالارقام ، اذ انه كان أبعد نظراً من أن يحتفظ وحده بمثل هذا السر .

والواقع ان الوضع كان كما يلي :

لم يرسل والد الشاه أبداً أموالاً إلى الخارج ، فقد كان ، أولاً وطنياً جداً ، وثانياً لم يكن يعتبر ذلك ضرورياً ، ولم يخطر له ابداً انه يمكن أن يحدث له شيء .

وعندما ارسل إلى المنفى في جنوب افريقيا ، سنة ١٩٤١ ، تحمّل نتيجة قصر نظره ، ورغم انه كان واحداً من أغنى الرجال في العالم ، فقد اضطر ابنه لارسال مبلغ من المال اليه كل شهر من طهران .

وكان ذلك بمثابة تنبيه لمحمد رضا ، فلم يكن لديه ابن يهتم به إذا وجد نفسه في وضع مماثل .. وهكذا ، عندما بدأت الحالة تشتد في ايران ، أخذ يعمل على تأمين مورد لنفسه في حالة اعتزاله الحكم .. ومثالاً على ذلك جاءني في أحد الأيام وقال لي :

— « في القبو أنواع مختلفة من هدايا العرس لا يمكننا استخدامها ، وكثير منها من الذهب الصافي .. هل لديكِ أي مانع في أن أبيعها ؟ »

وقلت له :

— « ولكنها تذكارات . »

وأجاب الشاه :

— « طبعاً ، ولكننا نواجه سبباً قهرياً .. علينا أن نجمع أكبر قدر ممكن من المال . »

ولا أعرف طبعاً المبلغ الذي استطاع الشاه الحصول عليه من عملية البيع ، ولكن لا شك بأنه لم يكن مبلغاً ضخماً .

وعندما سألته في روما هل نستطيع العيش من دخلنا ، أخذ قلماً ، وقال لي بعد قليل :

— « قد نستطيع ذلك وحدنا ، ولكن عائلتي مؤلفة من أكثر

من عشرين شخصاً .. وهـذا هو سبب اعتزامي شراء مزرعة ، فسيصبح بامكان اخوتي العمل فيها ، وإعـالة أولادهم بشـكل مناسب .

ولا أدري هل كانت هذه الحياة الجديدة ستسعد الشاه حقاً .. وعلى كل حال تطورت الاوضاع في اتجاه مختلف .. ففي الغد ، بينما كنا نتناول الغداء في فندق « اكسلسيور » وصل مندوب شـاب لوكـالة « الاسوشيتد برس » فجأة إلى مائدتنا وقدّم الينا بحماسة ورقة كتب عليها ما يلي : « سقط مصدق – القوات الامبراطورية تسيطر على طهران – أصبح الجنرال زاهدي رئيساً للوزراء » .

وكان النبأ قد وصل لتوه « بالتيلكس » ، وفيما كنا نتابع تناول الغداء ، أخذ الصحافي يتنقل بين مكتبه والفندق ، ليحمل الينا آخر الانباء المكملة للبرقية الاولى .

وحافظت على هدوئي الظاهري ، كعادتي في مثل هذه الأحوال ، ولكن الشاه امتقع كثيراً حتى اني خشيت أن يصاب بالاغماء ، وبعد ثوان قال للصحافيين المحيطين بنا :

– « إذا تأكدت هذه الانباء ، فيعني ذلك انه أصبحت لايران مجدداً حكومة شرعية .. وفي هذه الحالة سنعود أنا والامبراطورة بأسرع مـا يمكن إلى بلادنا . »

وفيما كنا عائدين في المصعد إلى غرفتنا أمسك بيدي وهمس ، وهو يهز رأسه :

– « كيف عرفتِ ذلك يا ثريا ؟ كيف استطعتِ التكهن بذلك ؟ »

ولم نكن طبعاً نعرف بعد ، مـا حدث في هـذه الاثناء في طهران .. وعندما تمّ الاتصال الهـاتفي ، تلقينا كميات من التقارير المتناقضة . وقد فهمت ، في ما بعد ، من أحـاديثي مـع الاشخاص المعنيين بصورة رئيسية ، ان الاحـداث تتابعت بالشكل التالي في طهران بعد

رحيلنا :
لجأ الجنرال زاهدي مع عدة ضباط آخرين إلى منزل أحد الأصدقاء في « شمرام » .. وهناك قام بنسخ موسوم الشاه ، الذي يعهد اليه برئاسة الحكومة ، وفي يوم الاثنين وزع أشخاص موثوق بهم النسخ في سيارات التاكسي ، والحوانيت ، والمطاعم والمكاتب في طهران ، بشكل اطلع المدينة كلها على « خيانة » مصدق .

وكان هذا الأخير ، في أثناء ذلك ، قد جرّد الحرس الامبراطوري من سلاحه ، وجمّد الشرطة . وأصبح الشيوعيون مسيطرين على الشارع ، وظن السفير الروسي برهة انه وجد في هذا الكهل كيرينسكي آخر ايرانياً .

وفي يوم الثلاثاء بدأت الريح تتحول . فقد قابل السفير الاميركي لوي هندرسون مصدق وقال له :

— « إذا بقيتَ واقفاً تتفرج على متعصبي « توده » ، يحطّمون التماثيل ، وينهبون الحوانيت ، ستدعو حكومتي الثلاثة آلاف اميركي الموجودين في ايران ، إلى العودة إلى بلادهم . »

وأثّر هذا التحذير في مصدق ، فأمر الشرطة فوراً بالتدخل ، بجميع الوسائل ضد جماهير الشارع .. ورغم ان هؤلاء الاشخاص تظاهروا تأييداً له ، فقد جرى تفريقهم بالعصي .

وهدأ الشيوعيون وسحبوا أنصارهم .. ولكن الشعب كان قد عرف انهم حاولوا تدنيس ضريح رضا شاه .. وما كان ممكناً أن يرتكبوا خطأ أخطر من هذا .. فقد كان الايرانيون المؤمنون يعتبرون الشاه « ظل الله » وضريحه مكاناً للعبادة .

وهكذا استطاع الملا البهبهاني ، في الليلة التالية ، حشد الوف من المؤمنين .. وفي نفس الوقت بدأ الجنرال الاميركي شوارز كوبف العمل ، وكان الروس قد وزعوا روبلاتهم ، فقدّم شوارز كوبف لتجار

البازار مبالغ أكبر ، وقيل انه أنفق أكثر من ستة ملايين دولار ، في تلك الايام .

وفي صباح يوم الاربعاء كان نصف طهران مستعداً للاحتجاج على أعمال التدنيس الشيوعية .. وأطلق الناس الهتافات للشاه ، وحملوا في الشوارع صوري ، وصوره بالحجم الطبيعي ، وفي أحياء كثيرة انضم الجنود إلى المتظاهرين .

ووجد الجنرال زاهدي ان ساعته حانت فاتجه حوالى الظهر في دبابة إلى مديرية شرطة طهران ، حيث وقع اشتباك بين رجال الشرطة ، والمتظاهرين .. ثم ترجل من الدبابة ، واقترب من البنادق المصوبة اليه ، والتي كانت تقطع عليه الطريق إلى المبنى .

وكان مصير ايران معلقاً في هذه الدقيقة ، وانفصل المتقاتلون ، وأخذوا ينظرون بصمت إلى ما يجري عند المدخل ، وكانوا يتوقعون أن يقتل الجنرال .. ولكن فجأة ، رفع أحد الضباط مسدسه في الهواء وهتف :

– « عاش زاهدي ! حفظ الله الشاه ؟ »

وانعكس الوضع فوراً ، والتف الجمهور حول زاهدي ، وهو يطلق هتافات الابتهاج ، بينما كان رجال الشرطة ينضمون أيضاً إلى جانبه ، وبعد قليل استسلم رئيس الاركان رياحي .

وبقي مصدق وحده مصراً على رفض الاستسلام ، وقد تحصن في دارته ، وأعلنها « مدينة مكشوفة » ، وعندما حاصرتها الدبابات لجأ إلى قبو مجاور ، ولكنه في الغد ذهب إلى نادي الضباط وسلم نفسه لزاهدي .

لقد نسب كثيرون ، منذ ذلك الحين ، لأنفسهم الفضل في هذا التحول التاريخي .. ولكن لم يكن بامكان شجاعة زاهدي ، أو الدولارات الاميركية ، أو اخلاص الملا البهبهاني الديني تحقيق هذا التحول ، لو لم يكن الشاه محبوباً من الشعب .. ولم يخطئ الحدس ، الذي شعرت به في

الطائرة المتجهة بنا إلى بغداد ، لقد كان يتمتع بين الجماهير بشعبية أقوى مما كان يظن .. وقد شعرت هذه الجماهير بأنه يبذل كل ما بامكانه لأجلها ، وان سياسيين طامعين جروه في الوحل .

وانتظر محمد رضا في روما أن يستدعوه رسمياً ، وفي يوم الاربعاء ، بينما كنا نتناول العشاء على « البينتشيو » ، قال لي فجأة :

— « أعتقد بأن من الأفضل ، يا ثريا ، ألا تعودي فوراً معي ، وأود أن تبقي بضعة أيام أخرى في روما . »

وذهلت لكلامه .. لقد شاركته الساعات العصيبة ، فلماذا لا أكون بجانبه في ساعة انتصاره ؟

وقال الشاه :

— « ان الامر يتعلق بسلامتكِ ، اننا مسيطرون الآن على الوضع ، ولكن الاحوال قد تتغير ، وافضل ان تبقي هنا حتى تستقر الاوضاع السياسية في ايران . »

ولم تنفع جميع احتجاجاتي ، فقد كان رجاؤه يوازي أمراً علي أن أنصاع له ، وأصبت بخيبة أمل ، وتأكدت ، بقلب حزين ، اني هذه المرة لن أستطيع جعله يعدل عن قراره .

وفي يوم الخميس تلقينا برقية من زاهدي جاء فيها :

« شعب ايران وجيشها يعدان الساعات ، التي تفصلهما عن عودة صاحب الجلالة ، ويتحرقان شوقاً للاعراب له عن مشاعر حبهما وولائهما المطلق . »

واستقبل الشاه أيضاً ، قبل رحيله ، شقيقته أشرف التي جاءت بسرعة من سويسرا .. وكان آخر عمل قام به هو إقالة السفير نوري من منصبه .

وفي منتصف الليل استقل الطائرة إلى بغداد . وفي ١٣ آب ، أي بعد اسبوع تماماً من رحيلنا ، هبط مجدداً في عاصمته .. لقد تحققت نبوءتي ،

بالنسبة اليه على الاقل .

ولحسن الحظ لم أبق وحيدة تماماً .. فبالاضافة إلى الاميرة أشرف جاءت والدتي للانضمام إليّ ، وبعد أيام أرسلوا إليّ وصيفتي وكلبي من طهران ، وجاء غارازوغلو ، وزوجته أيضاً ، للبقـاء معي في روما .

وفي ٧ ايلول كان الهدوء قد استقر تماماً ، بشكل أتاح لي العودة .. وقد استقبلني الشاه ووزراؤه على المطار ، ووجدت في تقبيل يدي والانحناءات أمامي حرارة أكثر مما قبل الازمة .

وجرت محاكمة الدكتور مصدق في ١٨ تشرين الثاني . وتابعنا المحاكمة بالراديو . واستمرت الجلسات عدة أسابيع ، إلى أن حكم عليه بالاعدام في ٢١ كانون الاول ..

ونظراً لكوني أعارض عقوبة الاعدام عن مبدأ ، فقـد سـألت محمد رضا :

— « هل ستسمح بتنفيذ هذا الحكم ؟ »

وأجاب :

— « لا . إنني لا أضمر أية ضغينة لمصدق .. فلولاه لبقي بترولنا ، على الارجح بين أيد أجنبية حتى الآن ، ولا معنى أبداً لجعله شهيداً . »

وخفض الشاه الحكم إلى السجن ثلاث سنين ... وقضى جميع هذه الاعوام الثلاثة في احد المستشفيات ، واستطاع بعد ذلك العودة إلى أراضيه قرب طهران .. وهو لا يزال يعيش هناك تحت مراقبة الشرطة .

ورغم انه تجاوز الثمانين من العمر فهو ما يزال متمرداً في قلبه . وقد أخبرني بعض الاصدقاء انه قام ، بعد طلاقي ، بتعليق صورة كبيرة لي في قاعة الاستقبال في منزله .

* * *

في عام ١٩٥٣ أقيمت حفلة استقبال كبرى بقصر « سعد اباد » بمناسبة بلوغ الشاه السادسة والثلاثين من عمره ، دعي اليها الجنرال زاهدي ، وعدد كبير من الضباط ، الذين أبلوا بلاء حسناً في المعركة ضد مصدق، وزوجاتهم .

وقد أخذت عائلات كبيرة ، لم تر أفرادها منذ سنوات ، تتنازع شرف تقديم الولاء ، كما أخذت عدة سيدات ، كنت أعلم أنهن كن يكرهنني ، ويكثرن من القيل والقال في غيابي ، يبدين التودد إليّ ويتصنعن الحب .

كان كل ما في هذا الجو يبرز طابع العهد الذي بدأ في طهران .. ولأول مرة شعرت حقاً بأنني امبراطورة ، وان نفوذي قد ازداد كثيراً عما مضى .. وكان الشاه يدرك بأنه قد تغلب على مصدق بفضل نصائحي ، وإصراري عليها ، فلم يعد يردّ لي حاجة ، ولا يرفض طلباً .

وقد أعيد الاعتبار رسمياً إلى صديقي القديم الدكتور عيادي ، وتسنى لي أن أضمّ إليّ « فروغ صفر » ، وأجعلها وصيفة الشرف الاولى .. وبعثت إليّ والدتي من « كولوني » مرافقة لي ، تمتهن الرسم ، وقد أصبحت هذه المرأة واسمها « ماري لويز ساغومول » خير مساعدة لي .

ومع انها لم تكن تعرف من اللغة الفارسية سوى بضع كلمات ، فقد كانت تنقل أوامري ، وتساعدني في كتابة رسائلي ، وتصرف عني ، والقاموس في يدها ، الزائرين الذين لا أرغب في لقائهم .

وفي هذه الاثناء ، كان الدكتور عبد الله انتظام ، وزير الخارجية الجديد ، قد أعاد العلاقات مع بريطانيا إلى سابق عهدها ، وبدأ محادثات جديدة مع شركات النفط الأجنبية .

وقد منحت واشنطن حكومة زاهدي ، في الفترة الانتقالية ، قرضاً خاصاً مقداره ٤٥ مليون دولار .. ولما كان وضعنا يتوطد ، لم أعد

أخشى أن أطلب المال من الخزينة الخاصة ، وعلى هذا عدت إلى مشروع قديم ، لتجديد أثاث المنزل .

ذلك ان مظهر صالات الاستقبال في دارة « اختصاصي » المكسوة بالخشب ، يشبه مظهر حجرات السفن .. وقد انتزع مصمم الأثاث الفارسي « جانسان » كساء الصالات ، وطلى الجدران ، وزينها بزينة من طراز لويس السادس عشر .. ثم جلب الاثاث لغرف الاستقبال ، ولمكتب الشاه ، ولغرف نومنا .. وكنا نملك سجاجيد فارسية مختارة ، أضفت على هذا كله رونقاً وجمالاً .

وكنت أجد صعوبة كبرى في اشاعة النظام في هذا الجو الجميل ، بسبب كلبتي « سيتا » وهي من نوع « الكلب – الذئب » ، وكلبيّ الآخرين توني وبوكي .. ولما كان الاسلام يعتبر الكلاب نجسة ، فلم يكن يسمح لهذه الكلاب بأن تخرج من المنزل ، وتبيّن لي ان الاسلام على حق .. ولكن بعد فترة قصيرة ، تعرض ميلنا للكلاب إلى محنة أشد وأقسى .

ففي أحد الأيام ، بعث الينا ، إلى طهران ، أحد صيادي الاسماك ، وكنا قد تعرفنا به في أثناء اقامتنا عند بحر « قزوين » ، بعجل بحر ، له شاربان كبيران ، وميال إلى المرح ، والعبث .. غير ان الشاه قد أصيب ببعض الذعر لقدوم هذا الضيف الجديد .

وسألت الشاه :

– « هل يعتبر الاسلام عجول البحر نجسة كذلك ؟ »

فأجاب :

– « لا أظن ذلك .. ولكن أين ستضعين هذا الحيوان ؟ »

فقلت :

– « في بركة صالة حديقة الشتاء . »

وصمت الشاه لحظة ، ثم قال بلهجة الرجل المجرب :

– « لا تنسي بأنه حيوان بحري ، وبأن ماء البركة ماء غير



مالح . »

وأجبت الشاه بأن ذلك ليس عائقاً ، ثم عمدت إلى إلقاء كمية من ملح الطعام في ماء البركة ، ليتسنى لضيفنا المقام .. غير ان الصعوبة كانت في اطعامه ، وعند ظهر كل يوم كنت أصعد فوق كرسي ، وأقدم اليه السمك على قضيب ، فيتلقفه ويلتهمه ، وهو يصيح من الفرح ، ويحاول في نهمه ان يلتهمني أنا ، في نهاية وجبة الطعام .

وعلى هذا كان مرافقي يجذبه بطعم ما إلى طرف الصالون ، ليتسنى لي النزول من فوق الكرسي .. وكان الضيف الجديد قد ألِف ان يزحف بزعانفه الرطبة فوق سجاد الصالون ، مما كان يعكر شعوري بالنظام ، وهو شعور لم يكن مرهقاً على أية حال .

وكان في قرب دارتنا ، لحسن الطالع ، حوض وضعناه فيه ، فشعر بالراحة والاستقرار ... ولم نكن لنستفيد من هذا الحوض ، لأننا لم نكن نقيم في طهران إلا في فصل الشتاء .

لذلك بنينا حوضاً للماء الساخن ، يحيط به مجال صغير مغطى .. ومنذ ذلك الحين أصبحنا نسبح كل صباح ، فقد كنت والشاه من هواة السباحة المولعين . وكنا في ذلك العهد نمارس أنواعاً أخرى من الرياضة البدنية ، فقد كنا نركب الخيل ، ونلعب بالكرة الطائرة ، ونذهب للتزلج على الجليد في منطقة « ابي علي » في البروز . وكنا فضلاً عن ذلك نملك يختاً اسمه « شاه سافار » كان الشاه الراحل قد طلب بناءه في هولندا .. وكان اليخت يرسو في مرفأ « بهلوي » ، وكنا نستقله أحياناً ، ونبحر به متجولين في شواطئ بحر قزوين .

* * *

في احدى الامسيات شاهدنا فيلماً اميركياً فيه مشاهد للتزلج على الماء ، وكان هذا النوع من الرياضة مجهولاً في ايران ، فعزمنا على ان نتعلمه ،

ونتدرب عليه .. وعلى هذا ، جلبنا من ايطاليا زوجاً من المزالج ، وجربنا التزلج بهما ، وراء مركب بخاري قديم .

ولما لم يكن هناك من يتولى تدريبنا ، فقد كنا نغوص في الماء ، ونصاب بجروح ، ورضوض .. ومرت أيام اهتدينا بعدها إلى أفضل طريقة للتزلج على الماء ، وتعلقنا به تعلقاً لا حد له .. واشترينا مراكب بخارية جديدة ، وطلبنا بناء حوض خاص لهذه الرياضة في « نوشدار » بالقرب من « رامسار » .

وكان الشاه ، شأنه شأن الكثيرين من المواطنين ، يهوى السرعة وما تثيره من مشاعر ، وكان يميل على الاخص إلى أن يرافقني بسيارة « مرسيدس » قديمة ، يمكن ان تبلغ سرعتها ٢٠٠ كيلومتر في الساعة ، ولو لم يكن رئيس دولة ، اذن لاشترك في جميع مباريات السيارات الدولية .. وكنت أشعر دوماً بالرضا ، والغبطة ، إذا ما عدنا سالمين ، من احدى هذه الرحلات .

وكنا نذهب في رحلات للصيد ، أو للاستجمام ، على متن طائرة .. والشاه طيار ماهر ، ولكنه لم يكن يملك سوى طائرة بمحركين ، من طراز « بيتشكرافت » .

وفي أحد الأيام ، وبينما كنا نحلق في طائرة من هذا الطراز ، أحاطت بنا عاصفة هوجاء بالقرب من « شمرام » ، وأخذت تتلاعب بالطائرة ، كأنها ريشة لا يقر لها قرار .. ولاول مرة منذ عرفت محمد رضا ، لمحت عرق القلق ، والاضطراب يملأ جبهته ، ولم أكن أحسن حالاً منه .

وأخيراً ، وفق إلى الهبوط ، في هدأة من الريح ، وكانت نجاتنا صدفة ، كما شهد بذلك موظفو المطار .

وفي يوم آخر كنا في طريقنا بالطائرة إلى « اصفهان » ، وكنت أجلس في المقدمة قرب الشاه ، ويجلس وراءنا الجنرال زاهدي ، وثلاثة من

الضيوف .. وفجأة توقف المحرك عن الدوران ، وهوت الطائرة بسرعة صوب الارض .. وأصابني ذعر قاتل ، لأنني لمحت تحتنا سلسلة من الجبال ، كنا نقترب منها اقتراباً مذهلاً .. ولم يكن في الطائرة مساعد طيار ، وكل من كان فيها من الفنيين ميكانيكي ، لم يكن يدري ما الذي حدث .. وشعر الشاه في تلك اللحظة ان خزانات الوقود كانت فارغة تقريباً ، ذلك بينما كنا نحوم فوق الجبال وأخذنا نضخ وقود مخزن الطوارئ بقوة يائسة ، فارتفعنا ارتفاعاً يكفي لتجنب قمم الجبال ... ولما عدنا في المساء كنت في حالة من القلق الشديد ، بعد الحادث الذي تعرضنا له ، وجلست في هذه المرة بالمؤخرة ، قرب الجنرال زاهدي ، حتى وصلنا بسلام إلى طهران .

وبينما كنا نحوم للهبوط فوق المطار ، والموظفون يستعدون لاستقبال الطائرة ، قال لي الجنرال زاهدي :

— « لم يعد ما يبرر خوف صاحبة الجلالة ، فقد وصلنا . »

وأجبت قائلة :

— « أرجو ذلك .. فاننا لم نهبط بعد ، ولم نصل الارض . »

ونزل محمد رضا بطائرته ، ولمست العجلات الارض ، ولكن الطائرة لم تقف ، وقبل أن تبلغ نهاية مدرج المطار ، ارتفع بها في حركة حرجة كدنا معها نلمس سطوح بعض المنازل .

وصحت :

— « يا إلهي ... ألم تهبط العجلات بشكل طبيعي ؟ »

ورد الشاه قائلاً :

— « بلى .. ولكن كان شخص في المدرج ، غاظني ودفعني إلى التحليق ؟ »

وبعد عشر دقائق حاول الشاه الهبوط ثانية .. ولكن مع انه لم يكن في هذه المرة أي شخص على المدرج ، لم يتيسر له الهبوط .. وكانت

الازمة ازمة أعصاب .

وقال الشاه :

— « سوف أوفق في الهبوط . »

ولكن ضابط برج المراقبة كان قد أنذر سيارة الاسعاف ..

وفي المرة الثالثة لم يتمكن الشاه من الهبوط ، فوجّه اليه الضابط نصيحته في حذر قائلاً :

— « إذا كان لدى صاحب الجلالة وقود كاف ، فان من الافضل أن يحوّم مدة ربع ساعة ، لكي يصبح واثقاً كل الثقة بنفسه . »

وفي هذه الاثناء كان زاهدي ، وسائر الركاب قد أخذوا يتلون القرآن الكريم ، ويتمتمون بالصلاة في صوت خفيض كي لا يزيدوا في قلق الشاه وارتباكه .

وأخيراً ، وفق الشاه إلى الهبوط في المدرج ، بشكل قذف قبعتي مسافة تبلغ حوالى ثلاثمائة متر .

ومنذ هذا الحادث ، أصبحت أمقت الطائرة ، وركوبها ، وحدث لي ما يحدث لسائر الناس .. ذلك ان الانسان في بادئ الأمر ، يكون ساهياً ، لاهياً ، لا يجد الخوف إلى نفسه سبيلاً .. ثم تتوالى التجارب عليه ، بما يشيع القلق ، والرهبة فيه ، مع الايام .

كنت ، في الماضي من الايام ، أركب الطائرة راضية ، أما اليوم فأنني أطلق زفرة الارتياح كلما هبطت بي طائرة ، وحطت بسلام على اليابسة ..

واني لأعلم ان خطر ركوب الطائرة ، لا يزيد عن خطر السفر بالقطار أو بالسيارة ، ولكن الذكاء لا اثر له على الغريزة .

* * *

أصبحت حياتنا اجتماعية ، أكثر ممـا كانت ، وأصبحنا نلقى أناساً أكثر من الذين كنا نلقاهم في عهد مصدق .. وكنا في رحلاتنـا إلى « رامسار » و « بلبوسار » و « ابي علي » نصحب دوماً نفراً من الأصدقاء.. وكانت لدي قائمة بالاسماء ، وكنت في كل رحلة أدعو نفراً مختلفاً من الرفاق .. إلا ان ما كان يزعجني انني كنت مكرهة على أن أعامل جميع هؤلاء على قدم المساواة .

وكانت البيئة المقربة الينا تتألف من أزواج من الشباب .. وكثيرون منهم أمثال : مجيد ، وجمشيد ، وغاباد بختياري ، وزوجاتهم ، كانوا أنسباء لي بعيدي النسب .. ولم يكن مجيد ، وجمشيد موسرين ، ولا بارزين في المجتمع ، بل كانا رفيقين ، وكانا ممن يجيدون الالعاب الرياضية ويميلون اليها .

أما غاباد ، فقد كان مهندساً معروفاً ، بنى متحف رضا شاه واشترك في بناء وإعداد حوض السباحة في دارتنا .

وكان من بين ضيوفنا المفضلين البروفسور عادل ، وهو أبرع الجراحين في ايران ، ومسعود فوروجي ، نجل رئيس الوزراء الاسبق . وكانت زوجتا هذين الصديقين فرنسيتين ، وكذلك زوجة ابن عمي مجيد .

وكنا نستقبل في غبطة وارتياح السيدات الثلاث : جينيت ، وبيبيه ، وفرناند ، لما كن يتمتعن به من روح المرح ، وروح الرياضة .

وكنا في أحيان كثيرة ، نصحب في رحلاتنا حسين فهردست ، صديق الشاه في أيام الدراسة بسويسرا ، والزوجين مهدي ، وفيدا نماسي . ومهدي هو ابن شقيق نماسي ، الثري الكبير ، الذي شيّد على نفقته مـدينته الخـاصة « شيراز » ، والذي يقيم اليوم في اميركا .

أما فيدا ، فقد كان يجمعني بها شيء مشترك ، وهو انها قدمت إلى الشاه ، كفتاة مرشحة للزواج .. ومع ان الشاه قد اختارني في نهـاية المطاف ، فانه ما زال يتعلق بها ، ويدعوها في أحيان كثيرة مع زوجها .

فقد كانت امرأة فاتنة ، جميلة الخلق ، حلوة الشمائل .

وفي مجتمع الازواج الشباب ، كان الشاه كثيراً ما يدفع إلى المزاح .. وفي عرض أحد الافلام ، مثلاً ، كان الحضور يسمعون فجأة نباح كلاب في القاعة .. حتى إذا ما أداروا رؤوسهم ، عرفوا ان الامبراطور يجيد تقليد نباح الكلاب .

وفي إحدى لعبات البريدج ، قفزت السيدات من مقاعدهن ، وأخذن يصرخن ، ويستغثن .. ذلك انهم شعرن بعناكب كبيرة وبضفادع تدب وتمشي فوق سيقانهن .. ولم يكن في الامر ، سوى أن الشاه أطلق هذه الحشرات الصناعية ، التي تلقاها محمد رضا من اميركا .

وفي مرة من المرات ، دعينا إلى حفلة رقص بالاقنعة .. ولم نكن نستطيع ان نقيم حفلات كهذه ، ولكننا في حل من حضور حفلات الرقص الخاصة .

وعزم الشاه على أن يتنكر في ثوب أسد .. أما أنا فقد شئت أن أفاجئ الناس ، وكنت أعلم مدى تشوقهم إلى معرفة الملابس والاقنعة التي سنتنكر بها ... وأسررت إلى صديقة لي بأنني سأتنكر بملابس « مدام دو بومبادور » .. ولكن السر شاع بطبيعة الحال .

فما كان مني إلا ان عرضت على احدى صديقاتي ، وكان قوامها مثل قوامي ، أن ترتدي ملابس مدام دو بومبادور ، التي جئت بها من سويسرا .

وجاء موعد الحفلة الكبرى .. فذهب الشاه اليها وحده ، وذهبت بصحبة شاب من أصدقائنا .. وكنا قد ركبنا سيارات عادية ، حتى لا تعرف سياراتنا من أرقام سيارات القصر .. وكنت أرتدي ملابس « جان دارك » .. وقد دعاني شبان كثيرون ، كنت قد مارست الرياضة ولعبت الورق معهم ، إلى الرقص ، دون أن يعرفوني .. ولم يكن الشاه نفسه يعلم في أية ملابس تنكرت ... وفي تلك الاثناء كان الحضور

يحتفون « بمدام دو بومبادور » كما لو كان ذلك في بلاط الملك لويس الخامس عشر .. فلقد كانوا يحسبون انها الامبراطورة .

وبعد مرور ساعتين ، وبينما كنت أشعل سيكارة ، صاح الفتى غاراغوزلو فجأة :

— « انظروا كيف تمسك جان دارك السيكارة ... ليس في القصر سوى الامبراطورة ، من يمسك بالسيكارة هكذا ... »

وكانت دهشة الحضور كبيرة ... ولما نزعت صديقتي عن عينيها قناع مدام دو بومبادور ، سألتها مداعبة كيف شعرتْ حين ظن الحضور انها الامبراطورة .

فأجابتني قائلة :

— « يا إلهي .. لقد كان جميع الرجال مهذبين ، محتشمين ، وما احسب انني أطيق طويلاً دور الامبراطورة . »

لم يكن ، حتى الاصدقاء المقربون ، ينسون ابداً انني امبراطورتهم ، مع اننا كنا نلهو كثيراً ، وفي غالب الأحيان ، فان تقاليد البلاط ومراسمه كانت محترمة ، مرعية .

وفي بعض الاحيان كنا نجلس على أربع أو خمس طاولات للعب البريدج .. ولكنني ما ان أنهض لبعض حاجاتي ، حتى ينهض الرفاق وهم في غمرة اللعب ، ولا يجلسون إلا حين أعود إلى الجلوس .

وقد كان ذلك يزعجني ويجلب لي الضيق ، حتى انني لم أعد أجرؤ على الحركة ، إلا انه كان جزءاً من البروتوكول .

المؤامرة الكبرى

لكي يزيد الشاه في نفوذي ، ويرفع من مقامي ، أوجد قلادة خاصة باسمي ، سماها « قلادة ثريا » ، وهي مرصعة بأحجار ثمينة ، في شكل ثريا تضم سبعة نجوم .. وهي ذات درجات مختلفة ، وقد منحت بعد ذلك كثيرات من السيدات الايرانيات والاجنبيات هذه القلادة .. وقد استقر عزم محمد رضا في يوم من الايام على ان يتوج معي ، وكان يرغب في أن يُصنع لي تاج ، وصحبني ليختار لي الاحجار الكريمة من البنك الملي ، وهو البنك الوطني ، الذي كانت تحفظ فيه كنوز القصر وأمواله .

لقد رُوِيَتْ عن هذه الكنوز روايات سخيفة ، باطلة .. ولكن هذه الكنوز لم تكن مِلْكاً للشاه ، بل للدولة الفارسية ، وكانت بمثابة غطاء

وضمان لأوراق النقد المتداولة . وقيمة هذه الكنوز قيمة فاحشة ، إذ ان عينيَّ كادتا تخرجان من محجريهما ، حين وقع نظري ، لأول مرة ، على هذه التلال من الاحجار الكريمة ، التي حشدت في الغرف المسلحة . وكانت من بينها تماثيل صغيرة لامبراطور مرصعة باللآلئ ، وبالجواهر ، وسيوف لتماثيل جنود من الحرس القديم ، رصعت من أعلى إلى أسفل بالزمرد ، والمرجان ، وكمية من الياقوت ، وسواه من الاحجار الكريمة الرائعة .. وكانت أكثر هذه الاحجار بريقاً ، ولألأة ماسة اسمها « دارياج نور » ، وهي ماسة ثقلها ١٨٦ قيراطاً ، مرصعة بـ ٤٧٥ ماسة ، وكان الملك نادر شاه قد جاء بها في عام ١٧٣٠ من بين غنائمه في حملته على الهند .

كانت كل هذه الكنوز في حراسة شديدة ، وكانت محجوبة حتى عنا ، ولم يكن البنك يعير الاميرات شيئاً منها ، ولا يعيرني انا ، الا في المناسبات النادرة .. وكان لكل واحدة منا الحق في تاج صغير ، وعقد ، وسوار ، وخاتم ، وقرطين .

وعلى انني امبراطورة ، كان يحق لي ان أختار بين مجموعة من الماس ، ومجموعة من الزمرد ، فضلاً عن عقد من اللؤلؤ ، مثلث الحبال .

وكانت هذه الحلي قد صنعت للامبراطورة فوزية .. وقد استعملت لآلئ من الدرجة الثانية ، ولم تعد طريقة صناعتها بالطريقة الدارجة .. ولكي نبدل طريقة صناعة هذه الحلي صدر قانون خاص بذلك ، وكنا نجد صعوبة كبيرة كلما اردنا أن نستعير الحلي لنتزين بها في إحدى الحفلات المسائية ... وكان علينا أن نوقّع مجموعة من الايصالات ، فإذا لم تعد الحلي في صباح الغد كان ذلك بمثابة المأساة .

ولم يتم التتويج ، لأن محمد رضا كان يريد أن تكون الاحتفالات شرقية الطابع ، أو لا تكون أبداً ، وكان مستشاروه يرون ان الظهور

بالابهة الشرقية سابق لأوانه .

غير ان زيارتنا للبنك لم تكن عديمة الجدوى ، إذ انني لاحظت ان هذه الكمية الضخمة من الاحجار الكريمة الرائعة ، تظل على حالها ، وقلت للشاه :

— « ان مما يؤسف له حقاً أن لا تخرج هذه الكنوز النفيسة إلى النور . واني لأتمنى أن يتاح لنا أن نخرج منها ما نستطيع أن نصنع منه حلياً عصرية . »

وأجابني الشاه :

— « كيف أستطيع أن أبرر هذا التصرف ؟ »

فقلت :

— « إن قيمة هذه الاحجار الكريمة تزيد ، إذا ما جددت صناعتها .. وبذلك لا نكون قد أخذنا شيئاً ، بل نكون قد أضفنا أشياء .. »

وبعد شهور من الحوار حول هذا الموضوع ، وافقت السلطات ، واستقدمنا من نيويورك ، الصائغ الشهير هاري ونستون .

لقد لامست كفّ هذا الصائغ جواهر ثمينة في عشرات من السنين .. ولكنني لمحت ، بوضوح أثار الدهشة والعجب ، على وجهه ، حين خرج من خزائن البنك الملي .. ذلك ان نظره لم يكن قد وقع على كنز سحري كهذا .

وأخيراً اختار أفضل الاحجار الكريمة اختيار العارفين ، وانصرفنا معاً إلى العمل ، فرسمنا نماذج لمجموعات مختلفة من الحلي .. ثم أخذ مقاييس دقيقة لليدين ، وللعنق ، وللرأس ، وفي مصنعه بـ « مانهاتن » عمد إلى صنع ركائز للحلي .

وقد استغرق هذا كله وقتاً كبيراً .. ولما وصلت الحلي إلى طهران ركّبت الاحجار الكريمة في حراسة موظفي البنك . وجربت الحلي الجاهزة

فكانت رائعة الجمال ، ولكنني للأسف اضطررت إلى مغادرة ايران ، قبل أن تُتاح لي فرصة للتزين بها .

فلقد شاء القدر أن تكون جواهر التاج ، التي وضعتُ تصميمها ، زينة للتي باتت خليفة لي ...

* * *

حفلات راقصة ، ورياضة اليخوت ، وأحجار كريمة ... كل هذا قد يوحي بأننا لم نكن نحيا إلا في سبيل الملذات ببلاط طهران ... ولكن الحقيقة كانت غير ذلك ، فقد كنت والشاه نبذل جهوداً حثيثة لتحسين المستوى الاجتماعي في ايران ..

لم نكن نركن إلى الوهم .. فقد كان الاغنياء يصرفون كل همهم للأراضي ، عوضاً عن أن يهتموا بالصناعة .. وكان فلاحون كثيرون يقعون تحت وطأة الدَّيْن لأسيادهم ، الذين كانوا يعاملونهم معاملة الارقاء .

وكان الدخل السنوي للفرد من أبناء الشعب لا يتجاوز ٦٠٠ فرنك .. ولقد رأيت ، بأم عيني ، الفقر الذي كان سائداً في ضواحي طهران .. ولم يكن الشاه مصدر هذا الفقر ، الذي يعود تاريخه إلى الوف السنين .

وكثيراً ما وجه النقد إلى انه في ايران يعيش الناس ، والحيوانات ، في حجرة واحدة ، وان أكثر الناس يرقدون على الارض .. ويجب أن نذكر ان ذلك من العادات المتوارثة ، فان جميع الايرانيين يجلسون على الأرض ، ويتناولون طعامهم ويرقدون فوقها كذلك .. وربما كان للأغنياء وسائد من حرير ، غير انهم لم يعرفوا الكراسي ، والأسرة إلا منذ عشرات السنين .

ومن المحال تبديل أوضاع كهذه بين ليلة وضحاها .. فإن رجالاً كنهرو ، وعبد الناصر ، لم يتمكنوا كذلك من اجتراح المعجزات في

بلادهم ، باستثناء الصين ، بقيادة ماوتسي تونغ .

والحقيقة ان الجماهير نفسها ، كانت تقاوم في كثير من الاحيان ، مظاهر التقدم .. ومن ذلك ان الشاه الراحل رضا شاه ، كان قد أصدر قراراً برفع حجاب النساء ... واني لأذكر انني كنت في أحد الايام أتنزه ، وبصحبتي خادمة عجوز ، فاقترب منها رجل شرطة ، ونزع عن وجهها الحجاب .. غير ان مثل هذا التصرف لم يكن يؤثر في نساء الشعب ، ويدفعهن إلى التخلي عن الحجاب ، مما دعا محمد رضا إلى أن يأمر بأن يتركن وشأنهن ، لأنه كان من الواضح ان الثقافة الطويلة المدى هي وحدها الكفيلة بالقضاء على هذه العادة .

وكان ذلك أيضاً شأن سائر أعمال الاصلاح .. فلم يكن يجدي توزيع الأراضي على الفلاحين ، ما داموا يحرصون على أساليبهم ، ووسائلهم البالية .. فلم يكن من الميسور اصلاح الاراضي ، دون الآلات الحديثة ، والإعداد التقني ... وفي أحيان كثيرة كان الفلاحون يبيعون ، على يد وسطاء مستغلين ، قطع الأراضي التي وزعت عليهم .

وحيال هذه الاوضاع ، قررنا أن نبدأ بالاصلاح ، حيث تدعو الحاجة الماسة اليه ... وقد فشل المشروع السباعي الاول لايران ، بسبب سياسة مصدق .

وعندما عدنا من روما ، أخذ الشاه على عاتقه ، تنفيذ مشروع ثان كبير ، لشق الطرق ، وتمهيدها ، وبناء الجسور ، والسدود ، ومراكز الطاقة المائية ــ الكهربائية .. وقد وسّع شبكة سكك الحديد . وفي جنوب ايران رويت مناطق بكاملها بواسطة الاقنية .. وشيّد الشاه كذلك مدناً نموذجية ، كان ٥٠ في المائة من دخلها الصافي يعود للفلاحين ويصرف المبلغ الباقي في بناء مدارس ، ومستشفيات ، وقد حذا حذوه كثيرون من كبار ملاكي الأرض .

وقد شنّ محمد رضا ، على الاخص ، حملة كبيرة على تعاطي مخدر الافيون ... وكان قسم كبير من الزراعة في ايران مخصصاً لزراعة نبات المخدرات ، وكان يصدر قسم منها ، ويظل الباقي للاستهلاك المحلي وكان مئات الالوف من الايرانيين ، الذين ينتمون إلى الطبقات الفقيرة من مدمني المخدرات .

وفي طهران ، كان وزر ذلك ينسب للاوروبيين عادة ، الذين ، كما يقال ، قد أدخلوا زراعة نبات المخدرات ، لتوفيرها للشعب ... وقد أصدر الشاه مرسوماً يهدف إلى استئصال الداء من شأفته .. ويقضي بأن يزرع القليل من نبات المخدرات لأغراض طبية ، باشراف الدولة .. مما حدا بالمزارعين الآخرين إلى أن يغيّروا من أنواع زراعتهم ، ويستنبتوا القمح ، والشمندر .

ولما كان الافيون يحفظ من أربع إلى خمس سنوات ، فقد بقي منه مخزون ، كانت تضاف اليه كميات عن طريق تجارة التهريب التي كانت رائجة ، والتي كانت تصل من العراق ، وسواه من البلدان المجاورة .

غير ان هذا السم كان غالياً في السوق السوداء ، إلى حد ان أكثر المدمنين لم يكونوا يتمكنون من الحصول عليه .. وهكذا وضع حد لرواج التهريب . وأغلقت الدولة جميع « المحششات » ، ورصدت الأموال لمعالجة المدمنين ، وتطهير أجسامهم من آثار المخدرات ... ومنذ ذلك الحين ، أصبح الادمان على المخدرات ، محصوراً في الجيل القديم .. ونجت شبيبة ايران من هذا الخطر الداهم ، والوباء الرهيب .

* * *

وفي غضون ذلك ، ازدادت واجباتي عن الماضي .. وكما كنت قد

ذكرت ، فقد توليت إدارة مؤسستين اجتماعيتين ، كانت تديرهما من قبل الامبراطورة فوزية .. وكنت أُعنى بالمصدورين ، وبجمعية حماية الأم والطفل . وقد عهد إليّ الشاه ، فضلاً عن هذا ، بالاشراف على مؤسسة «الاسد الأحمر» ، وهو بمثابة الصليب الاحمر في ايران ، وكانت تشرف عليها الأميرة شمس ، كما عهد إلي بمؤسسة الخدمة الاجتماعية الامبراطورية ، التي كانت ترعاها الاميرة أشرف .

وقد أصيبت شقيقتا الشاه بخيبة الأمل ، حين عادتا من المنفى ، فوجدتاني على رأس المؤسسات التي كن يشرفنَ على أعمالها ، ولكنهما لم تجرؤا على الاحتجاج وإعلان الاستنكار .. وكنتُ كذلك أشرِفُ عملياً على جميع مؤسسات الخدمة الاجتماعية في البلاد .

ولما كانت جميع المؤسسات قد أُهملتْ منذ سنوات ، فقد وجدت نفسي أواجه مهمة شاقة عسيرة .. فلم يكن يوجد في طهران سوى مستشفى صغير للمصدورين ، لم يكن يضم سوى حجرة عصرية واحدة للعمليات الجراحية .

وقد وضع تصميم لانشاء مستشفى كبير للأمهات وللأطفال ، ولكن منذ خمس سنوات لم ترتفع منه سوى الأسس ..

وفي الوقت نفسه استأجرتِ الدولة دارة الامير أحمد ، الذي كان يقيم في اميركا ، وعدة مساكن أخرى ، تستطيع النساء اللواتي لا دخل لهن ، أن يضعن فيها ، وان يفزن بحليب مسحوق ، غذاء لأطفالهن .. ولم تكن حال المؤسسات التي كانت تشرف عليها الاميرتان شمس ، وأشرف ، خيراً من هذا ، فقد كانت تموّل بدخل طوابع بريد الاسعاف العام ، وهو دخل ضئيل .

وقد سعيت جهدي للحصول على أرصدة جديدة من المال .. وكنت أحاول ، على الاخص ، أن أستحث بناء المستشفى ، وانجازه . ولكن كان يعوزنا المال ، ويعوزنا كذلك الرجال ، الذين يركن

اليهم .

ولما كنت قد درجت على زيارة المستشفيات ، والمصحات فجأة ، فقد اكتشفت أوضاعاً فاضحة حقاً .. ففي صباح أحد الأيام وصلت إلى أحد ملاجئ الايتام ، وتبيّن لي انه لم تكن فيه تدفئة داخلية ، مع اننا كنا في قلب الشتاء .. وكان الأطفال يرتعدون من البرد ، وتكاد أطرافهم تتجمد ، وقد غطت الاوساخ أجسامهم ، التي ظهرت فيها بثور من نقص الفيتامينات .

وطلبت الاطلاع على سجلات المستشفى ، فتبيّن لي ما أدهشني ، وأذهلني ، وهو وفاة عدد كبير من الأطفال والبنات المسجلة أسماؤهم في السجلات .. وكانت أرقام الوفيات في هذا المستشفى تزيد عن أرقام أي مأوى للعاجزين .

ومما يدعو إلى الاسف ، ان هذه الحال لم تكن فريدة .. وكانت تراودني دوماً الظنون بأن المشرفين على مثل هذه المؤسسات كانوا يجمعون الثروات على حساب الموازنة ، وهي ضئيلة على أية حال .. وكان بديهياً أن اثبات ذلك أمر عسير ، ومن ناحية ثانية كان نقص الاطباء قد بلغ إلى حد انه كان من المحال الاستغناء عنهم ، وان صرفهم من الخدمة ، بسبب اهمالهم ، لا بدّ أن يزيد في تفاقم الوضع ، وترديه من سيء إلى أسوأ ..

وعلى هذا كانت جهودي شبه مشلولة ، ولم أكن أخطو خطوة دون أن أصطدم بالبيروقراطية .. وفي أحد الايام ذهبت إلى محمد رضا وقلت له :

– « إن الدولة عاجزة حتى عن حلّ مشكلة التعاون ، وإذا ما أردنا أن نخفف من شقاء الجماهير وبؤسها ، فعلينا أن نأخذ بزمام المبادرة بأنفسنا . »

وسألني الشاه بلهفة :

– « وما رأيك أنت ؟ »

فأجبته :

– « إنني أرغب في إنشاء مؤسسة يكون تمويلها عن طريق الوسائل الخاصة ، فحسب .. وستكون جميع النساء اللواتي سيساعدنني في هذا متطوعات ، بحيث لا يستطيع أحد أن يتهمهن بالنفعية ، والعمل في سبيل مصلحتهن الخاصة .. وكذلك يجب أن يتم اختيار الاطباء الصالحين ، ويكون لي ، على الاقل ، حقّ اختيـار رجـال يوحون بالثقـة ، والاطمئنان . »

وأجاب الشاه بابتسامة فقال :

– « قد يكون هذا شيئاً جميلاً .. ولكنني أرجو أن لا تصابي بخيبة أمل جديدة .. »

وكانت تجاربه قد أكدت له أن روح التضحية في أغنياء ايران ضئيلة محدودة ، ولكنه كان لا يقدّر روح العناد والحزم التي أمتاز بها ، حق قدرها ..

ودعوت أول ما دعوت حوالى عشرين أو ثلاثين سيدة من سيدات المجتمع ، إلى حفلة شاي في القصر ، وقلت لهن :

– « أيتها السيدات .. إن الفصل شتاء ، والبرد في الخارج قارس ، وان كثيرين من الفقراء يحتاجون إلى الفحم ، والملابس ، لينعموا بالدفء ، والعافية ، وعلينا أن نقوم بأي عمل من شأنه أن يخفف من بؤس هؤلاء .. فهـل أنتنّ على استعداد لمساعدتي في هذا السبيل ؟ »

ولم تعلن أية سيدة ، بطبيعة الحال ، الرفض والتمنع ، ومضيت في حديثي اليهن ، فقلت :

– « إذن ، فلتتكرمنَ بالانضمام إلى مؤسستي « مؤسسة ثريا » .. وتسهمنَ بدفـع ثلاثـة فرنكات في الشهر ، ولكن ذلك لا يتعدى أن يكون أمراً شكليـاً ، وأهمّ منه أن تضعنَ وقتكن في تصرفي . »

ولاطلاق مشروعنا ، قررنا إقامة حفلة خيرية راقصة ، في قصر «غولستان» .. وطبعنا بطاقات للدخول ، باعتها سيدات المؤسسة للأصدقاء والصحب .. وقدمت لنا شركات كبيرة هدايا لسحب اليانصيب وتطوّع لإحياء الحفلة ممثلون مسرحيون بارزون .

وبالدخل الذي تجمّع لدينا من الحفلة اشترينا الفحم والملابس السميكة وأقمشة لملابس الأطفال .. ولقد مددت بنفسي يد المساعدة في خياطة هذه الملابس ، ثم ذهبت إلى الضواحي لتوزيع هذه الهدايا على العائلات المحتاجة .

وبهذا انطلق عمل المؤسسة .. وفي خلال ستة شهور من العمل الدائب ، استطعنا أن نحرز ثقة الناس ، فما ان نوجه نداء في الصحف ، حتى تنهال علينا الهدايا ، والهبات ، حتى تغمرنا ... فيبادر أصحاب الصناعة إلى ارسال الأسرة ، وصرر الأقمشة ، والأغذية ، وكان كثيرون يتبرعون بمبالغ كبيرة من المال ، لصندوق التعاون ، التابع للمؤسسة .

وتجمع لدينا مقدار من المال ، أتاح لنا أن نستأجر مساكن ، جعلناها دوراً لحضانة الأطفال ، كما قُدمت لنا قطع من الأرض ، لنبني عليها ، المساكن ، والملاجئ ، وسواها .

واخترت العمة «فروغ صفر» ، مديرة للمؤسسة ، والسيدة زاهدي قرينة رئيس الوزراء ، نائبه للرئيسة ، ووزعت سائر الوظائف والمهمات على سيدات لسن من بيئتي ، ولسن مما يسمى بالمجتمع الراقي ، ولكن ممن مارسن تجارب الحياة كطبيبات ، ومدرّسات .

وتمكنت بعد فترة من أن أوسّع نشاط المؤسسة ، حتى شمل الريف ، وتحدثت إلى قرينات كبار الملاكين ، فرجوتهن أن يقدمن في مدنهن ، وقراهن ، على ما أقدمنا عليه في طهران .

وفضلاً عن دُور حضانة الأطفال ، أنشأنا مخازن للمواد الغذائية ،

ومطاعم شعبية ، يستطيع المعدمون أن يتناولوا فيها وجبات من الطعام الساخن في فصل الشتاء .. ولكي لا نؤذي شعورهم ، ونجرح كرامتهم ، كنا نتقاضى على وجبات الطعام مبلغاً زهيداً من المال .. ولكن المساعدة الأساسية كانت تأتي من الشاه . وقد بلغ من عطف الشاه على المشروع ، وتقديره للسيدات اللواتي كن يدرن هذه المراكز ، انه وضع في تصرفنا أموالاً ، اقتطعت من موازنته الخاصة .

وإلى جانب هذا كله ، كنت أعنى بأعمال الدولة ، ومشاريعها الاجتماعية . ولقد وُفقتُ في الحصول على اعتمادات لإقامة مصحات جديدة في « شيراز » و « أصفهان » ، وفي ان أدفع مشروع بناء المستشفى الكبير المخصص للأمهات والأطفال .

وتمكنت ، بعد مدة ، من أن أوفر لهذا المستشفى الآلات ، والمعدات الطبية الحديثة .. وأذن الشاه لمؤسستي الخاصة بأن تعنى بعدة ملاجئ للأطفال ، تابعة للدولة ، بعد أن اكتشفت فيها الكثير من العبث والاستهتار ...

وتيسر لي أن أصرف من الخدمة المسؤولين عن هذا العبث والاستهتار والتجاوز ، وأن أسهر بنفسي على إدخال أساليب ومناهج جديدة للعمل في هذه الملاجئ .

وفي هذه الفترة أصبحت ناشرة كتب كذلك ، فقد وضعت مؤسستنا في الاسواق كتباً كلاسيكية المانية ، وفرنسية ، وانكليزية ، ويونانية ، وشرقية ، بطبعات رخيصة .

وحتى ذلك اليوم لم يكن الكثير من الآثار الأدبية العالمية قد ترجمت إلى الفارسية ، أو انها ترجمت ترجمة سقيمة .. وقد تمكنت من إقناع عدة كتّاب معروفين بترجمة هذه الآثار الأدبية ، سواء بصفة فخرية ، أم مقابل مبالغ رمزية من المال .

وطبعت الكتب بأعداد كبيرة ، ولاقت رواجاً لا نظير له ... وكان

السبب الأول في ذلك اننا نساعد الالوف من الاميين على تعلّم القراءة والكتابة . وقد نظمنا دروساً مسائية كانت تحضرها على الاخص نساء متعطشات إلى المعرفة .

وبما انني سيدة البلاد الاولى ، فقد كانت قضية تحرير بنات جنسي تشغلني في المقام الاول ... ذلك لأن الاصلاحات التي قام بها الشاه الراحل لم تحدث في الحقيقة أي تبدل في هذا المجال . ومع ان المرأة الايرانية لم تعد تضع الحجاب ، فقد كانت في مرتبة متدنية ، ويعود السبب في ذلك ، وقبل كل شيء ، إلى ان أكثر المشايخ كانوا يمانعون في أي تأثير للعصر الحديث .

وفي رأيي ، أن تحرر المرأة الفارسية ، يجب أن يبدأ قبل الزواج .. وكان من البديهي ان الطالبات ، والفتيات اللواتي زاولن مهنة ، لم يعدن يقبلن على الزواج ، بنفس الافكار التي كانت لجداتهن .

وكنت أرى كذلك ان الرياضة وسيلة أخرى من وسائل التحرر .. وحين كنت في عهد المراهقة كان الكثيرون يجزعون لمجرد فكرة ظهور الفتيات بملابس الرياضة البدنية .

وقد عمدت إلى تشييد ناد لطالبات طهران ، ولكنني حين اقترحت إنشاء مخيم صيفي للفتيات على شاطئ بحر قزوين ، جاءني عدد من أعيان البلاد ، ليعلنوا احتجاجهم على هذا ، واستنكارهم له ، وقالوا :

– « يا صاحبة الجلالة ، من غير المعقول أن تقيم فتيات في مخيم على الشاطئ .. ولا يدري أحد ما يمكن أن يسفر عنه هذا الوضع . »

وأجبت :

– « لن يسفر عنه شيء ، لأنني سأكون بين الفتيات . »

وسألوني في دهشة :

– « وستقيمين في مخيم ؟ »

فأجبت :

– « نعم ، كما كان شأن أجدادي !.. »

وفي الصيف التالي افتتحت في « رامسار » أول مخيم للاجازات تابع لمؤسسة ثريا ، وكان موقعه ملاصقاً للشاطئ ، قطعاً لألسنة السوء ، ودفعاً لكل نقد ، أو تهمة .

وقد أقمت في إحدى الخيام ، مدة أسبوع ، وكنت أسبح مع الفتيات ، وأزاول الرياضة البدنية معهن في الهواء الطلق .. وفي بداية الأمر استغرب الناس هذا ، لأن فارس لم تعرف في تاريخها الذي يعود إلى ثلاثة آلاف عام ، امبراطورة من هذا النوع .. غير انهم أدركوا بعد ذلك رجحان وجهة نظري ، ومنذ ذلك الحين أصبح يقام في رامسار كل عام مخيم للفتيات .

وكان هذا العام من الاصلاح الجريء أفضل الاعوام التي قضيتها ، وأنا امبراطورة .. ولكن مع اننا بذلنا جهد طاقتنا لمساعدة شعبنا ، كانت هناك دوماً عناصر منعزلة ، تلاحقنا بحقدها ، وضغينتها .. وكان ألدّ أعداء الشاه ، الدكتور حسين فاطمي ، قد توارى بعد اعتقال مصدق ، وأخذ يضع الخطط لقلب الملكية .

وفي صباح يوم من أيام آذار عام ١٩٥٤ لمح رجال الشرطة امرأة محجبة تسرع في اجتياز السوق ، حاملة حقيبة للمؤونة .. فقال أحد هؤلاء الرجال لصاحبه :

– « أنظر المشية الغريبة لهذه المرأة !.. »

وأجاب الآخر :

– « حقاً .. ان المرء ليحسبها رجلاً !.. »

ثم طرح رجلا الشرطة الاسئلة على المرأة ليسمعا صوتها .. ولكنها ظلت صامتة ، وحثّت خطاها ، عند ذلك أمسكا بها ، وانتزعا

حجابها ...

وأوشك بعض المارة على الاحتجاج ، لأن في ذلك التصرف مساساً بالتقاليد ، غير انهم تبينوا ان المرأة كانت ملتحية ، وان لحيتها نبتت منذ يومين ، وانها كانت تحمل الديناميت في حقيبتها .. لقد كانت هذه المرأة الدكتور حسين فاطمي نفسه ، وكان في طريقه إلى اجتماع سري ...

ولما عرفه الناس حاولوا تمزيقه . ولقي رجال الشرطة مشقة في النجاة به من الزحام .. ثم حُكم عليه بالاعدام بعد ذلك ، ونفّذ الحكم فيه . غير ان هذا المثال لم يكف ، للأسف ، لكي يثني أعداءنا ، أو يوهن عن عزيمتهم .

ففي ايلول اكتشفت السلطات مؤامرة جديدة ، اشترك فيها عدد كبير من الضباط ، كانوا يريدون قتلنا ، كما يلوح ، ذلك لأنهم كانوا قد حصلوا على خارطة ، وكانت لديهم معلومات وثيقة ، صحيحة ، حول جهاز الأمن الخاص بنا .

وقد اعتقل الجنرال زاهدي خمسمائة ضابط ، أكثرهم استطاعوا أن يثبتوا براءتهم ، وأحيل اثنان وأربعون إلى المجلس العرفي العسكري : وفي خلال المحاكمة كانت تصلنا كل ليلة أشرطة ، سجلت عليها وقائع الجلسات ، وحتى تداول المتهمين فيما بينهم .

وكان من المفزع حقاً أن يسمع المرء ماذا كان يجول في أذهان هؤلاء المتعصبين ، لو أتيح لهم أن يستولوا على الحكم ، لقد كانوا قادرين على أن يغرقوا البلاد في بحر من الدماء .

وكان هؤلاء يدّعون انهم أنصار الدكتور مصدق ، ولكن الحقيقة ان مؤامرتهم موّلها الشيوعيون .. وقد حكمت المحكمة على أكثرهم بالاعدام .

ورجوت الشاه أن يعفو عنهم ، غير انه خشي أن يشجع العفو على

قيام محاولات جديدة ، وترك العدل يأخذ مجراه .

وفي ذلك الحين كانت المحادثات مع شركات البترول الاجنبية قد أثمرت ، وانتهت إلى نتيجة مرضية .. وفي ٥ آب من عام ١٩٥٤ وقع اتفاق مدته خمسة وعشرون عاماً ، وتوارت الشركة البريطانية — الايرانية وزال تأثيرها المباشر ، وحلت محلها مجموعة من الشركات «كونسورتيوم» العالمية ، عهد اليها باستغلال منشآت الدولة في جنوب ايران .. وكان للحكومة الحق في خمسين بالمائة من الربح الصافي ، ولما كانت تضاف إلى هذا الضرائب العادية ، فقد بلغ ما تتقاضاه حوالى ٧٠ في المائة .



شاهدت نصف العالم

كان اتفاق البترول في مصلحة ايران إلى حد فاق ما كنا نؤمله ،فقد ظلت ايران صاحبة ثروتها الأرضية ، ولم تعد مرتبطة بشريك واحد . وكانت مجموعة شركات البترول تتألف من : الشركة البريطانية ونصيبها ٤٠ في المائة ، وقد أنشئت حديثاً ، وشركة ستاندرد ، وعدة شركات أميركية أخرى ، ونصيبها ٤٠ في المائة ، وشركة شل الملكية الهولندية ونصيبها ١٤ في المائة ، والشركة الفرنسية ونصيبها ٦ في المائة . وعلى هذا كان لنا أن نعتمد في المستقبل على دخل سنوي من استغلال البترول يبلغ ٣٠٠ مليون دولار .

وبهذا تيسر لمشاريع الشاه الانمائية أن تستند إلى أساس مالي راسخ .. ولأول مرة منذ سنوات ،

شعرنا بأننا على الطريق السوي من جديد .

ولما كانت سمعة ايران قد تأثرت كثيراً بأحداث عام ١٩٥٣ ، فقد أخذ محمد رضا يفكر في وسيلة ترفع من شأن بلاده ، وتزيد في نفوذها .. وفي أحد أيام تشرين الاول من عام ١٩٥٤ خاطبني قائلاً :

— « ثريا ، لقد عزمت على السفر إلى أوروبا ، واميركا .. لأتصل شخصياً برجال الدولة الغربيين ، وانني أود أن ترافقيني في هذه الرحلة ... »

وكان أول ما أجبت به قولي :

— « آه ، كم هو رائع ما عزمتَ عليه . فمتى نبدأ رحلتنا ؟ »

وأجاب الشاه :

— « بعد ثلاثة أشهر . إنها رحلة خاصة ، ولكننا سنزور فيها عدداً كبيراً من رجال الدول . »

وكان رد فعلي ، شأن كل امرأة مثلي ، انني قلت :

— « يا إلهي ، ليس لدي ما ارتديه ، فكم ثوب يلزمني لمثل هذه المناسبات . »

وقال الشاه :

— « اطلبي كل ما أنتِ في حاجة اليه ، ولا تعبئي هذه المرة بالنفقات . »

فقد كان الأهمّ في نظره ، أن أكون في أول رحلة رسمية لنا ، على أفضل ما يكون من أناقة ... ولم أكن حتى ذلك الحين قد أنفقت كثيراً في سبيل أناقتي ، ومظهري ، وكان كل ما يشاع عن انني أملك خزائن كاملة من ملابس مصنوعة في باريس ، بعيداً عن الحق .. فقد كنت أتجنب التبذير في هذا المجال ، وعلى الاخص في شراء ملابس السهرة ، التي لم أكن أستطيع أن أرتديها أكثر من مرة ، أو

مرتين .

وفي الحقيقة انني كنت أفصل ملابسي في إحدى دور الخياطة في طهران ، وكان اسم مديرة الدار « نينون » ، وقد دلتني عليها الاميرة أشرف .

وكان مصمم أزياء هذه الدار السيد بيار ، شاباً سويسرياً موهوباً ، وكان لا يغفل أبداً عن كل جديد يصدر عن دور الازياء في باريس ، بل كانت له فوق هذا ، حاسة وحدس مسبق ، بما يجب أن تكون عليه أزياء الصيف .

وفي هذه المرة كذلك ، فصلت عند « نينون » كل ملابس النهار التي سأرتديها في رحلتي هذه .. ومن بينها معطف من وبر الجمل ، وثلاثة تيورات من الصوف ، وفستانان من الجيرسي ، وثوب لحفلات الكوكتيل قاتم اللون . أما للسهرات ، فقد اتبعت نصائح الشاه حرفياً ، لأنني كنت في « الخدمة » .. وأوصيت مؤسستين شهيرتين للأزياء في باريس ، بصنع عدة أثواب فاخرة ، تليق بامبراطورة .

وكان مقرراً أن نسافر في أوائل تشرين الثاني ، ولكن مأساة جرت قبل هذا التاريخ بقليل ، اضطرتنا إلى التأخر .

ففي ٢٠ تشرين الاول من عام ١٩٥٤ ، كنا نحتفل بذكرى ميلاد محمد رضا .. وكما جرت العادة كان جميع الأهل مجتمعين للطعام ، ولم يتخلف إلا الامير علي ، الذي كان يرجى أن يأتي من شواطئ بحر قزوين ، حيث كان يملك مزارع للقطن . وسألت الملكة الوالدة بصبر نافد :

— « أين علي ؟.. »

فقد كان ابنها الثاني بعد الشاه .

وأجاب الشاه :

— « إذا ما كانت طائرته قد أقلعت في الوقت المحدد ، فلا بدّ أن

يكون قد وصل الينا . »

وكان « علي » قد استعار من شقيقه الشاه طائرة صغيرة حمراء ، كنا قد خرجنا بها في جولة منذ يومين .. ولما كان لا يحسن قيادة الطائرة ، فقد وضع الشاه طياراً بتصرفه .

وكنا نحسب ان الامير علي لم يتمكن من المجيء لسبب من الاسباب ، ولكن في صباح اليوم التالي ، علمنا ان طائرته قد أقلعت كما كان مقرراً .. وأصدر الشاه أمره بإجراء تحريات على طول الطريق الذي كان سيقطعه شقيقه بطائرته .

وكانت فترة الترقب حرجة ، فقد كنا نذهب في كل يوم ، إلى الامبراطورة الوالدة ، لنطمئنها . وكان الامل يتلاشى ، شيئاً فشيئاً ، مع الايام .

وبعد خمسة أيام عثرت فرق التحري والانقاذ على حطام الطائرة ، التي اصطدمت بأحد الجبال في جو غائم مليء بالضباب ، ودفن ركابها تحت هيكلها المتناثر .

وروى لنا أمين سر الامير الراحل ان الجو كان رديئاً ، وكان قائد الطائرة ، حتى آخر لحظة يمانع في السفر ، غير ان الامير علي كان يريد ، بأي ثمن ، الاشتراك في الاحتفال بذكرى ميلاد شقيقه الشاه .

وكان الامير يصر على أن يصحبه في الطائرة أحد الفلاحين وكان مصاباً بالتهاب رئوي ، ليدخله مستشفى طهران .

وقال السكرتير :

— « وبأمر منه تركت مكاني في الطائرة لهذا الفلاح ، وبذلك نجوت من موت محتوم . »

كان الامير علي رضا رجلاً طيباً ، وكان ينفق جزءاً كبيراً من دخله على الفقراء ، دون أن يدري أحد بما كان يفعله .. ولاقى حتفه ،

كما أمضى حياته ، في عمل خير ، وبادرة سمحة .. وقد فجعنا جميعاً بالامير علي ، ولم أكن قد رأيت الشاه في حالة ، كالتي رأيتها عنه مصرع أخيه .. فقد سيطر عليه الجزع والاسى ، وبلغت الحسرة منه كل مبلغ ، وكأني به يلوم نفسه ، على انه لم يظهر لأخيه في حياته مقدار حبه له .

وفي غضون الاسابيع الاربعة ، التي عمّ الحداد فيها القصر ، استعددنا للسفر ... وفي ٦ كانون الاول ، ركبنا الطائرة ، متوجهين إلى نيويورك ... وبذلك بدأت عهداً لن أنساه ما حييت ، ففي خلال العامين اللذين أعقبا زيارتنا لاميركا ، تعرفت على نصف الكرة الارضية .

* * *

حين يشاهد الناس ، في التلفزيون ، مآدب تقام لرؤساء الدول ، لا بدّ انهم يتساءلون : ماذا يدور في رؤوس الحاضرين في مثل هذه المناسبات ؟.. وأعتقد بأنني قادرة على ان أجيب عن هذا التساؤل ، لأن لي بعض التجارب في هذا المجال .

فحين كنت في الثالثة والعشرين من العمر ، كنتُ قد جالست ايزنهاور وخروشوف ، ونهرو ، وفرانكو ، واديناور ، والامير فيليب زوج ملكة بريطانيا .

وقد لمست ان المآدب ، بالنسبة لرؤساء الدول ، واجب لا يخلو من الحرج ، والضيق .. ومع ان المرء قد يجلس في أكثر الاحيان بجانب أشخاص يحلو لقاؤهم ، والتحدث اليهم ، إلا ان الحوار في مثل هذه المناسبات لا يمكن أن يكون ممتعاً ، كلياً .

ذلك ان على المتحدثين أن يقصروا حديثهم على الحوار التقليدي ، وعلى الابتسامة المألوفة ، الصادرة عن اللياقة ، والمجاملة ، وان يشربوا

الانتخاب ، ويتبادلوا الخطب .. وفي عدد كبير من البلدان لا تكون هذه الخطب سوى امتداد للمجاملة ، وفي بعض البلدان ، كالاتحاد السوفياتي ، يكون لها مغزى ، ومرمى سياسي .

وفي خلال المأدبة يجري كل شيء وفق برنامج مقرر ، ولا يصبح الجو طبيعياً ، شخصياً إلا عند تناول القهوة ... وفي أكثر الاحيان يستطيع المدعو لهذه المآدب أن يبحث عن الاشخاص الذين يرغب في التعرف اليهم أكثر مما كان قد فعل ، وفي هذه الحال قد تتحول المجاملة البسيطة إلى صداقة وثيقة ، والحوار العادي إلى تبادل للأفكار يترك آثاراً ثابتة ، وانطباعات لا تمحى .

ومن حسن الطالع ان المآدب لم تعد تستغرق ، في أيامنا هذه ، الساعات الطوال ، فقد اختصر عدد أصناف الطعام ، من عشرين صنفاً إلى ثلاثة أصناف ، كما لو كان في ذلك اتفاق ضمني بين الامم .. ومن اللائق أن يرفع المرء يده عن الطعام ، قبل أن يشبع ويتخم .

وفي هذه المآدب ، يشرب المرء كذلك أقل من عادته ، ومع انه ليس لذلك نظام خاص ، أو تقاليد موضوعة ، إلا انه ليس بالمعيب أن يترك المرء نصف كأسه ، فلا يشربه .. ولا تجد التعقيد إلا في الاتحاد السوفياتي ، حيث يشعر المضيف انه قد أهين شخصياً ، إذا لم تشرب نخبه ، وتفرغ كأس «الفودكا» ، حتى الثمالة .

وقبل أن نزور الاتحاد السوفياتي ، كان الدكتور عيادي قد أفهم الروس اننا نشكو مرض الكبد ، وأننا لا نستطيع أن نشرب كثيراً ، في الحر الشديد ..

ومما يجعل هذا العهد ثابتاً في ذاكرتي ، هذه العشرات من الحوادث الطريفة ، التي لم تكن ضمن البروتوكول ، وتلك الملاحظات

الشخصية ، التي بحث بها وراء الكواليس ، ومن خلف واجهة النفوذ والمجد .

وفي أثناء زيارة للولايات المتحدة ، ولأوروبا ، مثلاً ، كانت تقع دوماً طرائف مع الكلاب .. وقد بدأ ذلك منذ بدء رحلتنا الجوية ، نحو نيويورك .

فعند هبوطنا في « الارض الجديدة » أراد كلبي « توني » ، الذي أمضى ليلته في الطائرة أن يتمتع بالهواء الطلق .. ولكن الانكليز ، الذين كانوا يخشون الاوبئة ، كانوا يحرمون على الكلاب الأجنبية أن تدخل أرض المطار .

وأوضحتْ مرافقتي الآنسة « ساغومول » لضابط المطار ان الكلب في حاجة إلى الهواء الطلق .. وانه كلب امبراطوري ، بعد كل شيء .

وأجاب الضابط :

— « امبراطوري أم غير امبراطوري ، اننا لا نستطيع أن ندعه يتجوّل ... »

والتمعت فكرة في خاطر مرافقتي ، وقالت للضابط :

— « انه ليس كلباً غريباً ، بل انكليزياً .. انظر اليه انه من نوع « سكاي تيرييه » . »

ويبدو ان هذه الحجة قد أثّرت في الضابط ، فلجأ إلى رئيسه ، فسمح هذا بتجول الكلب ، وقال :

— « هذا أول حيوان يمشي على قوائم أربع ، يسمح له بالتجوّل ... »

وفي نيويورك خضعنا جميعاً لفحص طبي ، سأعود للحديث عنه . ثم نزلنا فندق « ولدورف استوريا » ، وتعرفنا إلى المدينة ، في أجمل وأفضل مظاهرها .

وكانت دليلتنا السيدة فلور كولز ، التي زارتنا في طهران ، وأتيح لها أن تبادلنا كرم الضيافة ... وقد ابتاعت لنا بطاقات لدخول المسرح ، وجعلتنا نشاهد أكبر المتاحف ، وأقامت لنا عدة حفلات استقبال في شقتها الخاصة .

وما أعجبني في نيويورك ، المتاجر الكبيرة ، التي زرتها بصحبة السيدة غاراغو زوغلو ، واشتريت بعض الحاجيات ، دون أن يعرفني أحد من الناس .. وكنت أعجب بأسلوب البائعات ، وتصرفهن الحر الطليق .

وفي إحدى دور الأزياء في « الشارع الخامس » استقبلتني المضيفة بهذه الكلمات :

— « هالو ، أيتها الامبراطورة .. كيف الحال ؟ »

ولم تعد منذ ذلك الحين تدعوني إلا باسم « هاني » أي الحلوة ، و « دارلنغ » ، أي يا عزيزتي .

وفي أحد الايام كنت أقيس احد الاثواب ، نادت رئيسها ، وقالت له :

— « يا سيد كليفوس ، أليست امبراطورتنا الصغيرة رائعة ؟ »

وقد أزعج رفع الكلفة هذا ، المرافقين لي ، غير انني بعد « احتفال » طهران ، وجدت ذلك مريحاً .

ثم ذهبنا بعد ذلك إلى واشنطن ، ونزلنا السفارة الايرانية ... وفي الغد أقام الرئيس ايزنهاور لتكريمنا مأدبة في البيت الابيض ، وكان الرئيس الاميركي لطيفاً ، وأطلعتنا السيدة ايزنهاور على مجموعة من اللوحات ، التي رسمها لشخصها ، فنانون اميركيون .. غير ان هذا اللقاء ، قد تمّ وفق برنامج رسمي ، فلم يترك في نفسي وذهني الاثر العميق .

وتبيّن لنا ، بعد ذلك بفترة قصيرة ، اننا لم نهيء زيارتنا التهيئة الكافية .. فلم نكن نعرف أحداً في اميركا ما عدا الرجال الرسميين ،

والسيدة كولز ، ولم تفتح في وجهنا الابواب ، كما يمكن أن يقدر المرء .

إن الاميركيين ، قوم في شغل بأنفسهم عن سواهم ، من القادمين إلى بلادهم ، ولكي يلفت المرء انتباههم ، ويلقى منهم الاهتمام ، يجب أن يدق النفير ، قبل مجيئه بشهور .. وإلاّ فإن شاه ايران نفسه ، قد يبقى وحيداً في غرفته بالفندق ... وقد استفاد محمد رضا ، ولا شك ، من تجاربنا ، لأن صوراً له ، ولزوجته الثالثة ، ظهرت في جميع المجلات ، قبل رحلته ، التي قام بها أخيراً للولايات المتحدة ... فقد عنيت يد معلم خفي ، في « جادة ماديسون » ، على ان يكون للزوجين الامبراطوريين استقبال حافل ، حيثما حلا ، وأينما نزلا ... ولم يكن الامر كذلك ، في زيارتنا الاولى .

ونزولاً على توصية السفارة الايرانية ، سلمنا أمرنا إلى السيد « دادلي » ، أحد موظفي « العلاقات العامة » ، وهي مهنة اميركية مثلى .. وكان أكثر الزبائن أشخاص قد هبطت عليهم الثروة ، وأرادوا أن يتموا ذلك بتحسين مركزهم الاجتماعي ... ومقابل مبالغ من المال تدفع له ، كان السيد « دادلي » ، يهيء لهم التعرف بالشخصيات ، ودخول البيئة التي يطمحون اليها .

وقد قال لنا :

— « أما في حالتكما ، فان المهمة أكثر سهولة .. لأنكما ترغبان في الاختلاط بالشعب ، كهارون الرشيد ... »

وما زلت حتى اليوم في حيرة ، كيف يتصرف هؤلاء الموظفون في « العلاقات العامة » ، الذين يجب أن يبدأوا بالتعرف على عدد كبير من الناس .

ومع مرور الايام أصبح لنا أصدقاء ، ورفاق ، وعرّفنا السيد « دادلي »

إلى عدد كبير من المسؤولين الاميركيين .

* * *

ومن واشنطن ، ذهبنـا لزيارة « سان فرانسيسكو » .. وهنا ساء سلوك كلبي « توني » بسبب الجو ، أو لأنه يكره الاميركيين بطبعه ، فأخذ يقفز على الاشخاص ، الذين لم يعرفهم من قبل .. ففي نيويورك عقر عامل مصعد صغير .. وفي سان فرانسيسكو كان يطارد الخدم الذين كانوا يأتون لنا بالطعام في حجرتنا ، وقد عض اثنين منهم في ساقيهما ، وعند هذا الحد ، لا يعود الاميركيون يستمرئون الفكاهة ، فقد بعث الينا إدارة الفندق بطبيب بيطري ، أصر على أن يلقّح الكلب ، ضد مرض الكَلَب .. وكان علينا فضلاً عن ذلك أن ندفع تعويضات ، للذين كان « توني » يصيبهم بأذى ... وبمـا ان التاريخ يعيد نفسه ، فقد أصبح الكلب يكلفنا نفقات تعـادل نفقـات أي فـرد مـن حاشيتنا .

كان أول من عرّفنا بهم السيد « دادلي » ، السيد جورج هيرست ، أحد أنجال ملك الصحافة .. وقـد دعانا إلى سهرة عيد الميلاد ، في دارته بالريف في « سان سيميون » ، حيث نمت في سرير السيدة دو باري .. ثم ارتحلنـا إلى لوس آنجلوس ، واقمنـا في « بيفرلي هيلز » .

وكان في هوليوود « سنوبيزم » ، ونزق اجتماعي أكثر من سواها من أنحاء الولايات المتحدة ، وكان في ذلك ما يلائمنا . هنا يعتبر الشاه ، شاهاً ، ذلك ان الناس قـد مثّلوا كثيراً أدوار الملوك والملكات على الشاشة ، وأصبح يشرفهم أن يزور ملك ، بلحمه وعظمه ، مملكتهم السحرية ...

وقد وصل السيد « دادلي » إلى لوس انجلوس ، ليمهد لنا السبيل ..

فدعانا ممثلون كثيرون ، منهم : غرير غارسون ، التي كانت قد فرغت من بناء منزل لها ، طافت بنا في أرجائه ، معتزة ، فخورة ، وخاصة بالحمّام الذي يهبط المرء إلى مسبحه على أدراج من المرمر . وقد تأثرت بهذا ، وأعجبت به ، لأنه شرقي أكثر مما في قصرنا بطهران .

وكان من الممتع لنا أن نشاهد عشرات الوجوه ، التي كنا نعرفها ، من مشاهدتنا لها على شاشة السينما .. ومما لا ريب فيه ان الشاه ، ومرافقيه ، كانوا شغوفين شغفاً خاصاً بيربارة ستانويك ، وجودي غارلند ، وايفون دو كارلو .. وكان لي أيضاً نصيب من الاعجاب ببعض الممثلين الوسيمين .

وفي إحدى حفلات الاستقبال ، قدّموا إليّ روبرت تايلور .. وذكرت انني كنت أعجبت في صباي ، حين كنت في سويسرا ، بهذا الممثل ، الذي كان بالنسبة إليّ مثال الرجل الامثل ، الذي لا سبيل للفوز به .. وها هو الآن واقف أمامي ، بشخصه ، وكان ذلك صدمة لي لا أكتمها .

وتناسيت لحظة انني امبراطورة ايران ، وقلت له :

— « لو تدري كم كنتُ أتعشقك ، حين كنتُ ، في أول الشباب . »

وأجاب :

— « خسارة يا صاحبة الجلالة .. لقد كان يجب أن نلتقي قبل اليوم ... »

ولقد دُهشت حين تبيّنت أن في هوليوود اختلافاً كبيراً في الاوضاع والمستويات الاجتماعية للممثلين أنفسهم .. فقد كان غاري كوبر ، وزوجته « ساندرا » ، ينتميان إلى نخبة المجتمع ، ويعود ذلك خاصة إلى ان ساندرا كانت سليلة أسرة قديمة من كبار الاثرياء في انكلترا

الجديدة . .

وعلى هذا كانا جديرين بإقامة صِلات خاصة بنا ، وقد توثّقت هذه الصِّلات ، حتى أصبحتْ صداقة حقيقية ...

كان غاري كوبر رجلاً هادئاً ، كثير التواضع ، قليل الحديث ، كما في أفلامه ... ولكنه إذا ما تحدث أصاب عادة كبد الحقيقة والصواب.

ولقد صادفناه مرة ثانية في « سان فالي » ، أو وادي الشمس ، حيث كان يتزلج مع زوجته .

ومن « سان فالي » توجهنا إلى فلوريدا ، حيث دعانا « شارلز رايتسمان » ، أحد ملوك البترول ، لقضاء فترة في مزرعته . ومع اننا لم نكن نعرف مضيفنا ، الا ان السيد « دادلي » كان قد هيأ الامر ...

وقد حملنا السيد رايتسمان من ميامي ، في طائرته الخاصة ، وكان يملك دارة سحرية ، باذخة ، لا يضاهيها كل ما شاهدناه في امبركا من دارات وقصور .

وكان من بين المدعوين آلان دالاس ، مدير وكالة الاستخبارات المركزية ، الذي كان يمضي فترة اجازته هناك .. وحتى ذلك الحين كنا نعتبر هذا الشخص اسطورياً ، وكنا نرى فيه صديقاً من امبركا ، مدّ الينا يد الحماية والعون ، في أوقات الحرج ، دون أن يطرح أسئلة كثيرة ...

وقد فوجئنا حين لمسنا انه رجل لطيف ، رقيق الحاشية ، يجلل رأسه الشيب ، ولا يمانع في مشاركتنا لعب البريدج ، ويطلعنا على صور أولاده الصغار .

وبما ان كلاً منا لم يكن يدري ما إذا كان صاحبه يدري ، فلم يتعرض ، لا الشاه ولا هو ، إلى حديث السياسة ، الذي كنا مرتبطين به كالقدر المحتوم .

وبعد ظهر أحد الايام ، جاء لزيارة رايتسمان ، وتناول الشاي ، شيخ اميركي ، أخذ يشتهر ، ويذيع صيته ، وكان يلتمس النقاهة في « بالم بيتش » ، بعد عملية جراحية في ظهره .

كان اسم هذا الشيخ جون كنيدي ...

وكان رايتسمان يتنبأ له بمستقبل باهر .

كان كنيدي يعيش وحيداً ، وبعد يومين اثنين ، اقيمت حفلة استقبال كبرى ، دعيتْ اليها نخبة « بالم بيتش » .. وفي هذه الحفلة ، قُدّمتْ إليّ جاكلين كنيدي ، وكانت ناعمة ، رقيقة ، قريبة إلى النفوس ، ولم تكن هي وزوجها ، الشابين الوحيدين في الحفلة .

وانتحينا ركناً من الصالة ، وأخذنا نتحدث عن اميركا ، وباريس ، والشاطئ اللازوردي « كوت دازور » .. ثم انضمّ الينا الصحفي شولي كنايكر بوكر ، صهر رايتسمان ، وأخذ يروي لنا طرائف ونكات مسلية .

وعاد كلبنا « توني » يسبب لنا المتاعب ، حتى ونحن في ضيافة عائلة رايتسمان ، وقد اضطرت العائلة إلى حبس كلبها الابيض الصغير ، لأن « توني » لم يكن يطيقه .. وهذه المرة سئمنا من قلة لياقته ، فأرسلناه إلى أهلي في « كولوني » بالطائرة .. وبعد يومين اشترى الشاه كلبين صغيرين من نوع « تيبيتان » .

منقذ العرش يطمع بالعرش

في ١٢ شباط من عام ١٩٥٥ ركبنا البحر ، إلى ميناء سوثمبتون ، في بريطانيا ، وبهذا بدأت أدقّ مرحلة في سفرنا .. فبعد هذه السنوات الطوال من الخلاف ، والجفاء ، كان الشاه يرغب في إقامة روابط صداقة جديدة ، مع حكام بريطانيا.

وقال لي ونحن في الطريق :

— « لست أدري هل أنجح في هذا ، أم أخفق .. فأن أزمة عبادان قد أصابت كرامة الانكليز إصابة شديدة ... وربما لم يحن الوقت بعد لإقامة صلة شخصية بيننا ، وبينهم ، ولكنني أعتمد عليكِ كل الاعتماد . »

ولحسن الطالع ان الانكليز لا يضمرون الحقد .. إنهم يدافعون عن مصالحهم بضراوة ، حتى إذا ما خسروا المعركة ، مدوا يدهم

إلى خصمهم ...

وفي محطة « فكتوريا » بلندن ، استقبلنا دوق غلوسستر ، وبعد يومين دعتنا الملكة إلى مأدبة عشاء .

وكانت اليزابيث الثانية أنحل جسماً ، وأوفر جمالاً مما كنت أظن ، وكما شاهدتها في الصور .. وكانت أقصر مني قامة ، وكان لون بشرتها اللون الانكليزي الشهير .

وكانت ، كما أسلفت ، متحفظة بعض الشيء في تصرفاتها ، وذلك ما لم تكن تتصف به ، لا والدتها ، ولا زوجها الامير فيليب .. وكان واضحاً انها الوحيدة بين أفراد الأسرة ، التي أعدت منذ نعومة أظفارها لتنهض بالدور الذي تنهض به .

وتناولنا طعام العشاء ، في صالة خاصة ، فُرشت بأثاث « ستيل » .. غير ان مجموع أثاث الغرفة لم يكن يوحي بالعظمة والأبهة .. ولقد شاهدت في اميركا صالات للطعام ، أكثر روعة وبهاء .

* * *

حين يجتمع ملك ، بملك ، فأنهما يترفعان عن حديث السياسة .. كما ان أوساط البورجوازية الكبيرة ، تتجنب الحديث عن المال .. ان ذلك لا يليق عرفاً ، وللوزراء أن يتناولوا حديث السياسة كما يشاءون .. غير ان مادة الحديث لم تنضب ، ذلك ان لاليزابيث ، ولمحمد رضا ، هواية مشتركة ، هي تربية الخيل .

وبعد العشاء دخل الأطفال ، وسمح لهم بإلقاء التحية .. وكان أطفال الملكة يتميزون عن سواهم من الأطفال الذين أحسنت تربيتهم ، بعفوية تحببهم إلى القلوب .

وطلب الشاه ، بعد ذلك ، من الملكة أن تتقبل منه هدية

متواضعة .. فلما انتقلنا إلى غرفة الاستقبال ، وقع نظر اليزابيث ، على سجادة شيرازية ، كانت قد فُرشت من قبل .

فلما رأتها صاحت :

— « هل تسمي هذه الهدية ، هدية متواضعة .. إنها واحدة من أجمل ما رأيت في حياتي من السجاد . »

ولم تنقطع بعد ذلك ، لا هي ، ولا والدتها ، عن التأمل في السجادة . وقد تأثرنا كثيراً بما بدا عليهما من فرحة عفوية ، صادقة ، ذلك انهما رغم ان العالم كان بين يديهما إلا أن النعمة لم تفسدهما ، ولم تؤد بهما إلى الاستهتار .

ويعود الفضل الاول في ذلك إلى الملكة الوالدة ، تلك المرأة الطافحة بالبشر ، والحيوية ، والطيبة ، التي يعرف الناظر اليها سرّ ما كانت تتمتع به من حبّ الجماهير في عهد الملك جورج السادس ... وكانت تتمتع بوداعة ، وبصفاء ، نَدَر أن يجدهما المرء في جيلنا هذا ، وكانت تشع منها الأمومة ، والحنان .

وقد دعتنا في اليوم التالي إلى تناول الشاي ، لأنها كانت ترغب في أن تستزيد من الحديث عن ايران .. وأعتقد انها كانت تعتزم في ذلك الحين زيارة بلادنا .

وقد استقبلتنا ، وحيدة ، في صالونها ، ولم يكن إلى جانبها أحد ، حتى ولا وصيفة شرف ، وكانت دهشتي لا توصف حين سكبت لنا الشاي بيدها ... وذلك ما يستحيل أن يحدث في بلاط طهران .

وللأسف ، كانت الاميرة مارغريت ، التي كنت أتوق إلى معرفتها ، في طواف رسمي ببلدان التاج « الكومونولث » . غير انني كنت أتلهف إلى لقاء سير ونستون تشرشل ، وكنت قد قرأت مذكراته عن الحرب الاخيرة ، وعلى الاخص الفصل الذي يتعلق

بايران .. وعلى هذا فقد كانت فرحتي كبيرة ، حين دعانا إلى مأدبة عشاء .

ومما يؤسف له ان هذا النوع من الزيارات «التاريخية» ، لا يكون على ما يتصوره المرء .. فقد كان تشرشل قد وضع جهازاً جديداً للسمع ، كان خلال الطعام يرفعه عن أذنه ، ويضعه ، ويتذمر من ذلك ، فيقول :

— «إنني لا أستطيع تعوّد هذا الشيء الرهيب .. وما أدري ما الفائدة التي وجدها بيرني فيه .»

وكان بيرني هو صديقه الاميركي برنارد باروخ ، الذي أرسل اليه الجهاز . وعلى هذا كان من العسير أن أتحدث مطولاً إلى الرجل العظيم ، الذي كان بجواري على المائدة ... فقد كان يفهم عبارة ، ثم لا يفهم بعدها شيئاً .

وأخيراً وضع جهاز السمع في جيبه ... وعلمت ، بعد ذلك ، انه يلجأ إلى ذلك حين يبدو له الحديث مملاً .. غير ان ذلك لم يكن حاله معنا ، فقد أخذ يتحدث ، طول الوقت ، عن سياسة ايران .

وقبل أن نغادر لندن ، اشتريت ببغاءين ، لأضعهما بين مجموعة طيوري في طهران .. وكنت أود أن أشتري كلباً من نوع «بولدوغ» .. وبعد ساعتين من اظهار هذا التمني ، وصلني من السفارة الايرانية كلب رائع من النوع الذي تمنيت .

ولما سألت أحد الوزراء الانكليز ، ماذا اسميه .. أجاب :

— «لماذا لا تسمينه تشرشل ؟»

وكان هذا النوع من الكلاب في بريطانيا ، رمزاً وطنياً :

واجبت الوزير وأنا أبتسم :

— «إلا ان ذلك يعتبر في ايران إهانة !...»

وردّ الوزير :

– « إذن ، سوف أستطلع الأمر ، وأرى ما إذا كانت هذه التسمية ممكنة . »

وبعد يومين من ذلك اتصل بي هاتفياً ، وقال :

– « من الافضل أن لا تسمي كلبكِ تشرشل .. فقد رفض سير ونستون ذلك باصرار . »

وكما كنت أتوقع ، فقد كان الداهية العجوز ، يعرف أكثر من الوزراء الشباب ، حـال الكلاب في الشرق ... وسمينـا الكلب « بوريس » .

* * *

ووصلنا إلى المانيا ، فاستقبلتنا الجماهير في « همبورغ » اسـتقبال الابطال والفاتحين ، وذلك ما لم أشاهد له مثيلاً من قبل .. فبالرغم من الثلج المتساقط بغزارة ، كانت الشوارع سوداء تغص بالناس الذين خفّوا لاستقبالنا ، والهتاف لنا .

وأعتقد بأن ذلك يعود إلى البلاغات الصحفية الكثيرة ، التي أذيعت عنا ، وإلى ان الناس يعلمون ان والدتي المانية .. وحين وصلنا إلى الفندق تجمعت جماهير لا تُعدّ ولا تُحصى عند نافذتي ، وأخذتْ تصيح ، فلا ينقطع لها صياح :

« ثريا اظهري .. ان المدينة كلها هنا !.. »

وكان عليّ أن أخرج إلى الشرفة عدة مرات ، لأحيّي الجماهير المحتشدة ، وأنا أسأل نفسي : « كيف أصبحت المانيا جمهورية ؟.. »

وفي صباح اليوم التـالي ، ذهبت إلى المزين ، لاقصر من شعري . وما إن خرجت من المحل ، حتى كنس المزين شعري ، وعرضه للبيع ... ووجـد من الهواة من يشتريه .. وقد بعث أحدهم إليّ ،

وأنا في طهران نموذجاً ، رجاني أن أشهد بأنه شعري الحقيقي .

وفي « دوسلدورف » لقينا الاستقبال الحافل ، الذي لقيناه في همبورغ .. وحين كنا نعود من احدى السهرات كنا نجد الحشود من النـاس في انتظارنا ، لا يصيبها ملال ، ولا كلل من الانتظار . ولمـا كنت أعود متعبة ، كنت ألجـأ إلى فراشي .. غير ان الجماهير لم تدع لي مجالاً للراحة .. وكان الشاه يرجوني أن لا أخيّب لها أملاً ... فكنت اضطر إلى الخروج إلى الشرفة ، ومعطفي على كتفي لأردّ على هتافات الجماهير .

وكانت زيارتنا لـ « بون » زيارة رسمية ، وكان الرئيس هوس ، والدكتور اديناور في انتظارنا بالمطار ، فلما وصلنا صحبانا إلى فندق « بترسبورغ » .

وفي المانيا ترتدي الزيارات الرسمية طابعـاً أكثر تزمتاً من أي مكان آخر ... ففي كل يوم كان عليّ أن أخرج إلى المجتمع بثوب واسع للمساء ، تزينـه الاوسمة ، والقلادات الرسمية . ولكن وراء هذا المظهر البراق ، سوف تجري مأساة تتصل من جديد بكلابنا !..

فقد وجد كلبنا « توني » رفيقته في « بوبوني » ، وتحالف الاثنان ضد كلبينا الجديدين .. مخافة أن يستأثرا بعطف الشاه ... وكانا يهاجمانهما في ممرات فندق « بترسبورغ » وأروقته .

وفي أحد الأيام فَرّ أحد الكلبين الجديدين بعد أن سئم العراك ، وتوغل في الغابة ، حيث كان الثلج يصل إلى ركبتيه .

وأخبرت رجال الشرطة ، ومحطة الاذاعة .. فتجمع ألوف المتطوعين وذهبوا في اثر الكلب الهارب .. وبعد يومين وجدوه حياً ، وقد عضه الجوع والبرد .

وكان من نتيجة هذا الحادث أن تقدم الينا كثيرون ، ليهدونا كلاباً ، ولم يكن في استطاعتنا الاعتذار .

وقد أهدتنا سيدة ، كلبين افغانيين من نوع « صائد الارانب » ، وكنت أود أن أحتفظ بهما ، لولا كبر حجمهما .. وقبلتُ شاكرة ، كلباً من نوع « كوبولد » — وهو نوع جديد من الكلاب الالمانية الصغيرة الحجم ، الحريرية الوبر — ثم قدمته لوالدتي . ولم يستطع الشاه كذلك أن يرفض كلباً من نوع كلاب الراعي يدعى « هراس » ، قدمه اليه المخبرون الالمان .

ومضينا في رحلتنا ، يصحبنا ستة كلاب ، وببغاءان ، ولكن كان لنا من أفراد الحاشية ، العدد الكافي لرعايتها .. وكنا نجعلها تبيت في غرفة منفصلة من الفندق ، ولولا ذلك لافترستنا ..

وفي إحدى ضواحي « بادن بادن » عرجنا لزيارة الامير « مترنيخ » أحد رفاق الشاه في الدراسة ، حين كان يتلقى علمه في سويسرا .. وقد طاف بنا في قصره الفخم ، الفسيح الارجاء ، وقبو الخمور الكبير .

وكانت « ميونيخ » آخر مرحلة في سفرنا ، فلما بلغناها أصبت بالزكام الوافد « كريب » ، وكنت أحمل هذا المرض منذ أيام ، وربما كان نتيجة لمظاهرات « دوسلدورف » حين كنت أخرج في البرد الشديد إلى الشرفة لتحية الجماهير .

وارتفعت حرارتي ، ونصح الأطباء بأن ألازم السرير اسبوعاً في أقل تقدير .. وقلت للأطباء :

— « هذا مستحيل ، لأننا ضيوف رسميون في البلاد ، ولا نستطيع البقاء إلا المدة المقررة لنا . »

عند ذلك حقنني الاطباء بكمية كبيرة من البنسلين ، بحيث أستطيع بعد يومين أن أصبح قادرة على السفر .

وحين ركبنا الطائرة مع الكلاب والببغاءين ، صاح رئيس التشريفات الالماني :

— « ان هذه سفينة نوح طائرة !.. »

ولسوء الطالع لم تكن رحلتنا في الطائرة مريحة ، ممتعة ، كما كانت الرحلة في سفينة نوح .. فقد كان علينا أن نفصل بين الكلاب التي لم تنقطع عن الاشتباك ، والعراك .

* * *

وتوجهنا إلى بغداد ، حيث كان الشاه يريد زيارة ملك العراق .... ومنذ آب من عام ١٩٥٢ أصبح الملكان صديقين حميمين .

وكنت عاجزة عن الاشتراك في الاستقبالات والحفلات التي جرت للشاه ، فلما وصلنا في اليوم التالي إلى طهران ، وسط عواء كلابنا ، الذي يصمّ الآذان ، لزمت الفراش ، وكنت منهكة وواهنة القوى .

وبعد أسابيع من وصولنا ، وبينما كنت أتناول الشاي مع الشاه في قصر المرمر ، دخل علينا الجنرال زاهدي ، وقال :

— « يا صاحب الجلالة . ان أعباء الحكم أصبحت ثقيلة ، لا أستطيع تحملها ، فاسمح لي باجازة مرضية ، لأسافر إلى سويسرا ، وأمضي هناك بعض الوقت . »

وتصنع الشاه الدهشة ، وقال :

— « إنني آسف لهذا أيها الجنرال ، ولكن إذا ما كانت صحتك تستدعي العناية ، فمن الأفضل أن تذهب إلى الخارج فترة من الزمن . »

وهكذا تخلى زاهدي ، بطل الامة ، الذي أنقذ العرش منذ عام ونصف العام ، عن منصبه كرئيس للوزراء ...

ترى ، كيف كان ذلك ؟.. وماذا وراء تبادل المجاملة هذا ، بينه وبين الشاه ؟..

الحقيقة ان هذا المشهد كان مسرحية ، لأن زاهدي استقال برغبة الشاه ، وبطلب منه ، وكلف وزير الخاصة «عبد الصلاح علم» أن يطلب إلى زاهدي التخلي عن الحكم .

وكانت أسباب قرار الشاه خطيرة : ذلك انه بعد عودتنا من روما ، كان يرجو أن يتم القضاء على آفتي الامة ، بعد آفة الافيون ، وهما : الفساد ، واستغلال السلطة .

ومن سوء الطالع ، ان أي اصلاح لم يتم في هذا الميدان ، بل زاد الشر تفاقماً ... وحين هاجم الشاه ، برنامج زاهدي للسنوات السبع ، أرسلت شركات تعمير أجنبية كثيرة ممثلين عنها إلى ايران لمحاولة الحصول على عروض من الدولة ... وكانت الشبهة تحوم حول عدد من الوزراء ، بأنهم قبلوا من هؤلاء الوسطاء هدايا ضخمة من النبيذ .

ولم ينج الجنرال زاهدي من النقد ، والهجوم ، وقد قيل انه بعد أن قام بانقلابه على «مصدق» تسلّم فجأة ، مبلغ ستمائة ألف دولار ، أضافها إلى رصيده السابق في البنك ... ووجهت اليه كذلك تهمة استغلال السلطة ، وانه عيّن ، في مراكز الدولة ، بعض أفراد عائلته .

وكان للشاه سبب خاص يدعوه للاشتباه بالجنرال زاهدي .. ذلك انه كان يستهدف العرش ، ومع انه لم يكن لديه دليل على المؤامرة ، فان زاهدي كان في نظره خطراً ، لأنه كان يحلم بأن يصبح هو نفسه امبراطور ايران .

ولا يستطيع المرء أن يدرك هذه الملابسات ، إذا لم يعرف الملابسات والعلاقات السياسية ، القائمة في الشرق الاوسط .

ذلك انه ليس من أسرة مالكة ، تعتبرها النخبة أسرة شرعية . وما زالت أمثولة أتاتورك ، ورضا شاه ، امبراطور ايران الراحل ، تراود

أذهان الكثيرين من الضباط الطموحين ... وكل منهم يسأل نفسه : لماذا لا أنجح حيث نجح هؤلاء الرجال ؟

وكان الشاه يستحضر في ذلك ما حدث في مصر .. ومع انه لا يمكن أن يقارَن بفاروق ، فان المحاولة بالنسبة إلى زاهدي ، الذي يتمتع بشعبية كبيرة ، لم تكن بعيدة عن خياله .

ولم يكن من سبيل لاقصاء هذا الخطر ، إلا باعفاء زاهدي من منصبه ، ورحيله ، الذي تحوّل إلى نفي ، فلم يعد من سويسرا بعد ذلك أبداً .. ومنذ ذلك الحين كانت علاقاته على ما يرام بالعرش .

وعُين مكان زاهدي ، رئيساً للوزراء ، السيد « علاء » ، الذي كان له من شيخوخته ، ما يحول دون أية مطامع ، وتولى الشاه بعد ذلك مهمة دعم الاسرة المالكة ، وتقويتها ، بعد رحيل زاهدي بقليل .

وفي مساء أحد الايام قال لي :

— « يا ثريا ، انني أود اسناد مهمة سرية اليكِ ؟... »

ولما سألته عن هذه المهمة قال :

— « هل تساعدينني في عقد زواج .. انني أريد أن أزوّج « شاهناز » إلى ملك العراق ... »

وكان محمد رضا ، الذي انضم أخيراً إلى حلف بغداد ، يرغب في إقامة هذه الصلة ، لمصلحة البلدين .

وعدت فسألت الشاه :

— « هل عليّ أن أجمع بينهما ؟ »

فأجاب :

— « نعم ، ولكن على أن لا يعلم أحد بهذا ، ومن الأفضل أن يتم اللقاء في أيام الاجازة ، وفي وسط فرنسا . »

ووافقت على ذلك .. ولكن الشاه أضاف :

— « ولكن ذلك ليس كل شيء ، فهناك مرشح آخر .. فاذا لم تتزوج شاهناز بالملك فيصل ، فأني ارشح ابن الاغا خان .. وكما سمعت فان صدر الدين أكثر رصانة من أخيه علي ، فإذا ما تزوج ببنتي جعله الاغا خان خليفة له . »

ووعدت الشاه أن أبذل غـاية جهدي في هذا السبيل ، وكان يبدو لي من السهل جمع هذين الشابين بشاهناز .. واعلم الآن ان مهنـة « الخاطبة » من أصعب المهن في العالم ، لأن كل ما فيهـا يتعلـق بالمجهول .

ورجونا الاميرة « شمس » أن تأتي بـ « شاهناز » من مدرستها الداخلية في سويسرا ، وذهبت أنا في الوقت نفسه إلى « الانتيب » ، ونزلت في فندق « الكاب » ... ولم يلبث الملك فيصل حتى وصل في يخته ، بعد يومين ، الا ان « شمس » وشاهناز لم تصلا .

ودعاني الآغا خان مع الملك فيصل إلى مأدبة عشاء في دارتـه « ياكيمور » ، فوق مدينة « كان » ، وكان الامير صدر الدين حاضراً المأدبة . وكان فيصل ، وصدر الدين يعلمان انهما سيقدمان إلى بنت الشاه ولكن لم يدر في خلدهما انهما خصمان متنافسان .

وبينما كنت أنتظر شاهناز ، استأجرت دارة صغيرة في « ايدن روك » . وعرفت في دهشة ان جيراني من الاصدقاء القدامى ، وعلى الاخص جون وجاكلين كندي ، وكنت قد عرفتهما في « بالم بيتش » .

وسررت بهذا اللقاء ، وخرجت معهما عدة مرات .. ودعينا إلى الغداء عند أصدقاء عديدين ، منهم الاميرة « اندريه » ، والدة صدر الدين ، التي كانت تقيم في مدينة « كاب الانتيب » .. وكان كنيدي وزوجته يعرفان كذلك بعض المطـاعم الممتازة في ضواحي « الكوت دازور » وكنا بعـد ذلك نذهب إلى كازينو « جوان لي بان » لنلعب البكارا .

وكان جون كندي يعاني آنذاك من آلام مزمنة في الظهر .. وكان في بعض الايام يعجز عن السباحة .. وأحياناً كنت أبقى بصحبته على الشاطئ ، بينما يسبح الآخرون ، ونلعب معاً لعبة « الباغامون » ، أو « الدومينو » وهي اللعبة الفارسية الوطنية ، وكان دائماً ينتصر عليّ .

وكانت سرعة خاطره تتجلى في جميع المجالات ، وهو فضلاً عن ذلك ، وخلافاً للخطباء ، يجيد الحديث الخاص الطريف الذي يمتع جليسه غاية الامتاع .. وأخذ صبر الملك فيصل يقترب من النفاد ، وشاع آنذاك ، ان الاميرة « شمس » كانت تريد افساد الموعد بتأخرها عنه .

وحين وصلت أخيراً إلى « نيس » ترافقها شاهناز ، دعوت إلى مأدبة فطور في « ايدن روك » .. وجاء فيصل في الموعد ، ووصلت شاهناز عند الظهر ، فقدّمتُ اليها ملك العراق .. ولكن لم يبن عليها أو عليه أي اهتمام بهذا اللقاء .

ولكي يتاح لهما المجال ليزداد كل منهما معرفة بالآخر ، دعوت إلى مأدبة عشاء في « بن اوبيرج » في أنتيب ، وجعلت مجلس شاهناز بالقرب من فيصل .

وردّ لنا الملك فيصل دعوتنا بعد يومين ، ولكنه لم يلمح بأي شيء عن « شاهناز » .. وكان عليّ أن أجعل هذا اللقاء يبدو وكأنه محض صدفة ... وعلى هذا لم يكن في استطاعتي أن أسأله في شيء ، أو أن أطلب رأيه بـ « شاهناز » ، وما إذا كانت قد أعجبته .. ولم يلبث حتى سافر في يخته ، وكأن شيئاً لم يكن ، ولم نخرج من هذا كله بنتيجة .

وكذلك لم يسفر لقاء شاهناز ، وصدر الدين عن شيء ، وسافرت شاهناز مع الاميرة شمس في اليوم التالي .. ولما قدّرت أن مهمتي قد انتهت ، فقد أخذت أنتظر النتيجة ... وحين عادت « شاهناز »

إلى طهران ، بعد ذلك بقليل ، سألها الشاه ما إذا كان الملك فيصل قد أعجبها ، فأجابت :

– « كلا .. وشكراً . »

وهزت برأسها !..

وقال لها الشاه :

– « فكري ملياً ... »

وكان يحرص على أن تتم هذه الصلة مع العراق ، ويأمل أن يقنع بنته في نهاية المطاف .

وبعد أسابيع من ذلك ، تبين ان الملك فيصل لم يحفل بشاهناز ، كما انها لم تحفل به .. وهكذا فشلت في بداية مهنة « الخاطبة » ذلك لأنني لم أكن أملك الكثير لأعرضه .

فقد كانت شاهناز ، وهي في الخامسة عشرة ، تبدو كفراشة الحرير التي لم تخرج بعد من شرنقتها .. ولكن محاسنها تجلت بعد ذلك ، وأصبحت فتاة جميلة ، وتزوجت بعد حب بأردشير زاهدي ، ابن الجنرال زاهدي .

وقد تردد الشاه ، في بادئ الأمر ، بالموافقة على هذا الزواج ، غير أن الحب في ايران ينتصر في غالب الاحيان – وليس في جميع الأحيان للأسف – على الاعتبارات السياسية .. واردشير ، زوج شاهناز هذا اليوم ، سفير ايران في لندن ، وكان نفي والده قد تحول إلى مهمة رسمية ... وهو في الوقت نفسه رئيس وفد ايران في جنيف ، والامم المتحدة .

ولقد سررت بهذه النهاية السعيدة ، واني لأفكر أحياناً كثيرة ، وتنتابني القشعريرة ، بما كان عليه مصير شاهناز لو انها أصبحت ملكة العراق ... ولم يكن أحد منا ليتنبأ آنذاك ، ان الملك فيصل سيُقتل بعد ثلاثة أعوام ، مع جميع أفراد أسرته ، في قصره ببغداد .

* * *

وفي شباط عام ١٩٥٦ ، قمنا بسلسلة من الزيارات الرسمية ، وكانت في بلدان الشرق ، ذلك لأن الشاه يعتبر ايران بمثابة جسر بين الشرق والغرب .

وتوجهنا أولاً لزيارة الهند ، فوصلنا دلهي الجديدة ، حيث كان نهرو في انتظارنا .. وبعد الاستقبالات التقليدية ، تجولنا في ارجاء الهند، شرقاً وغرباً ، مدة ثلاثة أسابيع .

وكان « المهراجات » يستقبلوننا حيثما حللنا ، وينظمون لنا رحلات لصيد النمر ، والفيل .. واتضح لي ان حسن ضيافتهم لم يكن شيئاً عفوياً .. ذلك ان الدولة كانت قـد عهدت اليهم بمهمة تسليتنا ، ودفعت لهم هبات مقابل ذلك . وكان ذلك في الواقع أقرب إلى الضيافة الرسمية .

وقد استقبلنا مهراجا « ميسور » في قاعة الاعياد الفسيحة ، التي تحيط بها الحجرات ، والمداخل ، والممرات .. ولم يكن على المائدة سوى سيدات الشرف .

ولما أبديت دهشتي من ذلك ، قال لي المترجم :

— « إنهن في الحجرات خلف الستائر ، يراقبننا من فجوات خاصة ونحن نتناول الطعام . »

وتمكنت مرافقتي الآنسة « ساغومول » من أن تصل إلى الحجرات ، دون أن يشعر بها أحد ، وأن تتحدث إلى نساء القصر .

وقلن لها ، انه ليس لهن الحق في ان يظهرن للعيان ، وأخبرتها والدة المهراجا ان الستائر وضعت في سيارتها كذلك .

وزرنا كذلك « نظام حيدر اباد » ، وهو رجل عجوز ، بخيل ، ويعتبر من أغنى أغنياء العالم .. ولكنني لم أشاهد شيئاً يدل على ثروته الضخمة ، فقد كان قصره أقل فخامة من القصور التي كنت قد رأيتها من قبل ، ومع ان الدولة قد دفعت له مالاً ليستقبلنا ، فقد كان يقتصد

في النفقات ، اقتصاداً ظاهراً .

وأكثر ما لفت نظري في الهند ان رجالاً كثيرين كانوا يعاملون معاملة الحيوان ، وان كثيراً من الحيوانات ، كانت تعامل ، معاملة الآلهة ...

وكان الفقر منتشراً أكثر من انتشاره في ايران .. وما زلت أذكر خدم المهراجات ، وقد حملوا الحيوانات والطيور التي اصطدناها ، وهم يمشون في الماء ، نصف عراة ، وكانوا هزيلين ، حتى ان كل عظمة من عظامهم تبرز للعين .

ومقابل ذلك ، رأينا البقر ، في جميع القرى ، يغزو متاجر الخضار ، فيأكل منها ما يشاء دون أن يجرؤ أحد على رده أو التعرض له . وكنت ترى في كل مكان روث البقر ، وحوله الذباب بالالوف ، والاطفال يلغون في هذه الاوساخ ، ويعبثون .

وكنتُ قد رأيت ، في ايران ، البؤس بجميع مظاهره وأنواعه ، غير ان أطفال الهند قد أثاروا شفقتي ، ورثائي ... وكنت أعلم بالتجربة ان الانقاذ الجدي لا يتيسر إلا بعمل اجتماعي ، منظم ... وشعرت برغبة ملحّة في أن أقدّم ، على الفور ، الهدايا لهؤلاء الأطفال ، وهي رغبة تلقائية ، لا تفسر أحياناً عن خدمة كافية لمن يستحقها .

وكانت القردة مقدسة كذلك .. وكانت تستغل قداستها هذه بوقاحة واستهتار ... وفي أحد الأيام ، كنا في طريقنا بسيارة « جيب » إلى الصيد ، وصادفنا بعض القردة الجائعة ، فأوقفنا السيارة ، والقيت ببعض « البسكويت » لاحدها ، وفوجئت بمئات القردة تهبط من الاشجار ، لتنال نصيبها ، فتركنا لها علبة البسكويت ، ومضينا في سبيلنا .

ومرت بعد قليل سيارة أخرى تحمل مدعوين آخرين للصيد ، وقد دهشوا للقردة وهي تأكل البسكويت في قلب الغابة ، وقال لي أحدهم

بعد ذلك :

— « يجب أن نشهد للهنود بالعدالة ، فأنهم يعنون بحيواناتهم .. وتصوري ان القردة في الغابات تتلقى غذاءها ومؤونتها !.. »

* * *

وفي ايار من عام ١٩٥٦ دعانا جلال بايار ، الذي كان آنذاك رئيس جمهورية تركيا .. وقد استقبلنا في يخته ببساطة ، وباخلاص لا حد لهما ، حتى اننا شعرنا بأننا من بعض أهله .. وكانت أول زيارة رسمية لعبنا فيها الورق مساء مع مضيفنا .

وفي استانبول وقعت لي مغامرة طريفة .. ففي بعد ظهر أحد الايام ذهب الشاه ليحضر عرضاً عسكرياً ، وحاول المرافقون لنا دون جدوى أن يبتكروا لي وسيلة للمتعة والسلوى .. وأخيراً عرضوا عليّ رحلة بالغواصة ...

وحسبت ان العرض مداعبة ، غير انهم ذهبوا بي فعلاً ، مع سيدات الشرف ، إلى الميناء ، حيث كانت ترسو غواصة تابعة للاسطول التركي ... وكانت قد وصلت من أميركا ، وكانت تبدو قديمة ، إلى حد جعل إحدى السيدات المرافقات لي ترفض أن تركبها ، وتصيح :

— « هذا انتحار .. إن هذه الغواصة إذا ما غاصت ، لن تستطيع أن ترتفع بعد ذلك إلى سطح الماء ... »

وهبطنا السلّم الحديدي الضيق ، واحتللنا مقاعدنا في الغواصة ، التي لم تلبث ، بعد دقائق ، حتى غاصت بنا في أعماق اليم .

وأخذت وجوه السيدات تمتقع ، وتصفر ، وبعد أن غصنا مقدار أربعين متراً تحت الماء اغمي على إحدى السيدات ، واضطررنا إلى اسعافها بالكونياك .

أما أنا ، فمن حسن الطالع ، أنني أقاوم دوار البحر ، إلى حد انني كنت أستمع ، غير مبالية ، إلى إيضاحات تكنيكية من قائد الغواصة .. وبعد نصف ساعة ، ارتفعنا إلى سطح الماء سالمين .. وحين علم الشاه برحلتنا هذه ، غبطني عليها ، وتمنى لو كان معنا ...

* * *

وبعد ذلك بزمن قصير ، كان علينا أن نستقبل في طهران ضيفاً كبيراً ، هو الملك سعود ، الذي وصل طهران في حاشية ، يبلغ عدد أفرادها سبعين رجلاً ، ليس بينهم امرأة واحدة ... وقد نزل في قصر « صحاب جيراني » وهو من قصور الاسرة المالكة ، خصص ليكون في الصيف مقراً لعظماء الضيوف . وقد وضعتنا زيارة الملك سعود تجاه سلسلة من المشكلات .. ذلك اننا عزمنا على أن نقيم له حفلة استقبال كبرى ، في الهواء الطلق ، ولكنه كان حريصاً على التعاليم الدينية .

وكنا لا ندري ما إذا كان يليق حضور السيدات هذه الحفلة . وحين سألنا الشاه في هذا ، أجاب :

— « إنه سؤال غريب ... فإن للملك بروتوكوله ، ولنا بروتوكولنا . وفي ايران لا تقام حفلة استقبال دون نساء . »

غير ان الملك سعود سُرّ بحضور السيدات ، وقد تحدث إليّ طويلاً بالعربية ، التي كان يترجمها لي أحد المترجمين .

وفي أثناء العشاء لم يكن مسموحاً تقديم المشروبات الكحولية ، ولكن بما ان الحرّ كان شديداً ، وكنا نشعر بأن كثيرين من الدبلوماسيين المدعوين يرغبون في بعض الويسكي ، فقد أقمت بين الاشجار منصة للشراب ، خافية عن العيون .

غير ان المدخنين كانوا أقل حظاً .. ومع ان القرآن لا يحرّم التبغ (وقد ظهر بعد الاسلام) ، إلا ان في السعودية وُجد بعض الذين حرّموا التدخين .. وعلى هذا لم أستطع ، ولم يستطع الشاه ، أن ندخن ساعات طويلة .

وكان ذلك عذاباً لنا ، وعلى الاخص حين كنا نشاهد المدعوين يتسللون واحداً بعد الآخر ، بين الاشجار ليدخنوا سيكارة .

* * *

وفي الصيف نفسه ، من عام ١٩٥٦ ، ذهبنا لزيارة روسيا .. وقد بعث الينا السوفيات ، بطائرات ليس فيها تكييف للضغط ، حتى اننا اضطررنا أثناء الرحلة لأن نضع كمامات الاوكسجين .

وقد صعد إلى الطائرة في « باكو » عدد من كبار الموظفين ، وقدموا الينا باعتزاز برنامج زيارتنا الرسمية ، وكان مكتوباً بالروسية ، مما اضطرنا إلى ترجمته .

وكان مضيفونا يجدون كثيراً من الحرج ، والارتباك ، فقد كنا أول ملكَيْن ، منذ عهد القياصرة ، يزوران بلادهم ، وينزلان في الكرملين . وقد خصص لنا جناح مؤلف من صالون ، وقاعة للطعام ، وغرفتين مع حمّامين ، وحجرة للاستقبال .

ولست أدري ما إذا كانت هذه الحجرات شققاً للقيصر ، فقد كان فيها أثاث قديم ، رائع .

وأقمنا في موسكو أربعة أيام ، قدّمت الينا فيها كميات هائلة من الطعام ، والشراب .. ولم نكن نقوم بزيارة مصنع للفولاذ ، أو مسرح من المسارح ، إلا ونجد بانتظارنا مائدة سخية قد بسطت ، وعليها جميع أنواع المآكل ، والمشروبات .

وفي المآدب الرسمية كان دائماً يقدّم لنا على المائدة أطباق كبيرة

من « الزاكوسكي » وهو من المقبّلات الروسية ، حتى أن افـراد حاشيتنا حسبوا ان هـذا الصنف من المـآكل ، هو الوحيد ، الذي سيقدّم .

حتى إذا ما شبعوا من هـذه المقبّلات ، بدأت المـأدبة الحقيقية ، التي كانت تستغرق ثلاث أو أربع ساعات ، لأن شرب الانخاب فيها لا ينتهي .. ولم يكن الروس ليستطيعوا أن يشربوا هـذا المقدار الكبير من الفودكا ، إلا لأنهم كانوا يتناولون بعض الطعام بـين الكأس والكأس .

وفي روسيا القديمـة ، كانت جميع طبقـات الشعب تتميز بكرم الضيافة ... فقـد كانت التقـاليد تفرض أن يلقى الضيف الحفـاوة البالغة ، الـتي تتجاوز حدود احتماله ، وما زالت هذه التقاليد متبعة ، حتى يومنا هذا .. وفي هـذا مـا يفسر إصرار خروشوف على ان آكل ، وأشرب ، كما لو انني أوشك على الموت جوعاً ... وحرصه على أن يضع بنفسه قطع الطعام في صحني ، مع وجود عدد كبير من الخدم حولنا ..

وكان من واجباته كذلك كمضيف أن يحرص كل الحرص على توجيه عبارات المديح ، والمجاملة لي ، دون أن يغفل عن أهدافه السياسية .. وكان يردّد باستمرار :

— « آمل أن تؤثري على الشاه ، وتحببي اليه السلام ... وان امرأة جميلة ، جمالكِ ، تستطيع أن تنال منه ، ما لا يستطيع أحد أن يناله !... »

وكنت أتساءل : لماذا يقصّر رجل مثله ، يحرص كل هذا الحرص على المظاهر الخارجية ، في البذل من أجـل المرأة الروسية .. وقد أتيح لي أن أتحدث إلى عـدد من الموظفات في قصر الكرملين ، وعلمت انهن لا يملكن سوى ثوبين ، من القماش الرديء .. وكان

شعرهن غير مقصوص ولا مسرّح بشكل جميل ، ولكنه كان معقوصاً بدبابيس سوداء .

وكانت أجسامهن ضخمة ، وسبب ذلك ، كما أعتقد ، هو نظام الطعام ... فقد كنّ يكثرنَ من تناول الخبز ، والبطاطس ، وسواها من النشويات ، عوضاً عن أن يكتفين بالخضار ، والفاكهة .

وقد تمكنت في أحد الايام من أن أتسلل من العربة الرسمية ، وأن أقوم مع مرافقتي بزيارة مدينة مجهولة . وكنت قد ارتديت معطفاً قديماً راداً للمطر ، وتلفعت بـ « بابوشكا » متعددة الالوان ، وهي بمثابة « الاشارب » حتى ليحسبني من ينظر إليّ إحدى الروسيات .

وانطلقت في الشوارع .. فإذا بي أرى الناس ، وقد ارتدوا ملابس لائقة ، ولكنها متشابهة ، كما ان اللون الرمادي ، والكستنائي ، والاسود ، هي الالوان الوحيدة التي يمكن أن يظهر بها المرء .

وفي الاوبرا ، وفي استقبالات الكرملين الكبرى ، لم تكن النساء قد عكفنَ على تسريح شعورهن طويل وقت ... بينما كنت أرى ان من واجبي تسريح شعري على أكمل صورة .. كنّ يرتدين « البلوفر » ، وتيورات بعد الظهر . وعلى هذا فقد تركت أثواب السهرة في الحقيبة .

إن الاتحاد السوفياتي دولة رجال ، أكثر مما هي اميركا مثلاً ، ولم تكن الدعوات توجه إلى زوجات المسؤولين .. حتى ان السيدة خروشوف قد دعتني للتعرف بي ، إلى حفلة شاي في مقرها الخاص ، مع زوجات الوزراء .. وقد قدّمتْ إليّ السيدات بأسماء عائلاتهن ، وبمهنهن .. وكُنّ في الغالب طبيبات ، وأستاذات ، أو مديرات للمختبرات .

وكن يرتدين بأقل مـا يمكن من الاناقة ، وكن يشعرن شعوراً واضحاً بأن أناقـة المرأة تنافي مبادئ الثورة .. ومع انهن كن يتمتعن بالعفوية ، والثقة بالنفس ، إلا انهن كن متحفظات في أحاديثهن ... وبعد أن شربنا الشاي ، قدمت الشمبانيا ، لكي تستطيع المدعوات شرب نخب ايران ، والاتحاد السوفياتي ، ونخب النساء السوفياتيات ، ونساء ايران ، ونخب السلام ، وما إلى ذلك .. ومع اننا جلسنا إلى المائدة في شكل دائرة ، إلا انه كان علينا أن نقف كلما رفعت الكؤوس ، لشرب الانخاب .

ومن موسكو ذهبنا لزيارة ستالينغراد ، وسوتش ، وطشقند ، ثم عدنا إلى لينينغراد ، بعد أن عرجنا على كييف .

وقد استقبلنا الناس حيثما حللنا ، باخلاص ، وحرارة ، تركـا أثراً طيبـاً في نفوسنا ، حتى ان كثيرين من الناس البسطاء ، العاديين ، قد بعثوا إليّ برسائل مجاملة .. وتلقيت فوق هذا برقيات من نساء كن قد وضعن بنات ، ويردنَ أن يسمينهنّ باسمي .

وبطبيعة الحال كنا تحت مراقبـة الشرطة الخفية ، في رحلتنا كلها ، حتى ان الخـدم الذين خصصوا للسهر على راحتنـا ، كـانوا جواسيس ، وكان علينا أن نحرص على ان لا نبدي ، اعتباطـاً ، أية ملاحظة .

ولم يُمنع أفراد حاشيتي من التقاط الصور ، ولكن حينما أردنا تظهير الافلام ، لاحظنا انها كانت قد أتلفت كلها .

وفي الكرملين جرت لنا أظرف مغامرة في هذا المجال .. فقد كنت مع الشاه ، منفردين في صالوننا ، وكنت أفضي اليه برغبتي في مشاهدة فرقة « بولشوي».. وبعد ساعات من ذلك جاءني أحد موظفي التشريفات وقال :

— « هل ترغب جلالة الامبراطورة أن ننظم لـها سهرة لرقص الباليه ؟... »

وقد اعتبرت ذلك من قبيل الصدفة .. إلا انه في صباح اليوم التالي ، ذهبت إلى السوق متنكرة لشراء بعض الحاجيات .. وفي أثناء طوافنا بالمتاجر قالت لي إحدى وصيفاتي :

– « من المناسب أن تشتري من هذا المحل معطفاً من الزيبلين . »

وفي الغد أهدتني الحكومة معطفاً فاخراً من الزيبلين !...

وقد دهشت لذلك دهشة كبيرة ، وتساءلت : ترى هل كان في شقتنا سماعات لآلات التسجيل ؟

وقررنا أنا والشاه أن نستطلع الامر .. وفي مساء اليوم التالي ، قال لي ، ونحن في حجرتنا بصوت منخفض :

– « ثريا ، لقد شاهدت اليوم في استعراض الطيران نموذجاً من الطائرات الصغيرة ، يعتبر مثالياً في طهران .. ترى ما هو ثمن طائرة من هذا الطراز ؟ »

وأجبته :

– « من الخير أن تضرب صفحاً عن هذا .. ذلك لأنه ليس هناك الكفاية من هذه الطائرات ، ولأن ثمنها لا بدّ أن يكون خيالياً ... »

وكم كانت دهشتنا كبيرة حين تلقّى الشاه ، في صباح اليوم التالي ، طائرة صغيرة من الطراز الذي كان قد تمناه .

ومن حسن الطالع ، انه كان علينا أن نعود إلى طهران ، وإلا فاننا كنا ولا بد قد كلفنا الدولة السوفياتية مبالغ طائلة ، في أثناء إقامتنا في أراضيها !...

ازمة ولاية العرش تهدم سعادتنا

في أحد أيام تشرين الاول من عام ١٩٥٤ ، باح الشاه بأن قضية ولاية العرش تشغله جدياً ... وكنا في قاعة «ايشتساسي» الكبرى نتناقش في برنامج زيارتنا القريبة لاميركا .

وقال محمد رضا :

— «حين نصل نيويورك ، فانني سأدخل المستشفى ، وأمضي فيه ثلاثة أو أربعة أيام للفحص . »

قال ذلك بلهجة الاستخفاف ، التي كانت دوماً توحي إليّ بأنه قد أشار إلى موضوع خطير .. وأضاف :

— «وربما استطعتِ أن تجري فحصاً بالمناسبة نفسها . »

والواقع ان الاطباء الاميركيين الذين جاءوا إلى طهران في صيف عام ١٩٥١ لاجراء عملية الزائدة للشاه ، لم يروه منذ ذلك الحين ، وقد آن الاوان كما يبدو ليفحص حالته الصحية .

ولما كنت أنا في حالة صحية ممتازة ، سألته :

— « ولمَ ذلك ، وأنا لا أشكو المرض . »

فأجاب :

— « الحمد لله ، ولكنكِ تدركين ماذا أعني . »

ولزمت الصمت ، والسكينة .. وكنا بطبيعة الحال قد بحثنا الأمر مراراً من قبل ، وكان هذا الموضوع قد أخذ يشغلنا بعد عامين من زواجنا ، شأننا في ذلك شأن جميع الازواج ، الذين يرجون ان يكون لهم ذرية .. غير ان ذلك ظل حتى سقوط « مصدق » ، قضية خاصة ، ولم يكن موضوع ولاية العهد موضوعاً يمسّ الدولة بإلحاح ، ما دام الشاه غير مطمئن على عرشه . أما الذين كانوا يستعجلون الأمر ، فقد كانوا هذه الفئة من الناس ، التي تنشر الشائعات ، وتحرّك الشرّ في جميع بلدان الارض .

وحين أعلن البلاط ، في شهر ايلول من عام ١٩٥١ ، انني مسافرة إلى سويسرا ، للمعالجة ، فسّروا ذلك تفسيراً خاطئاً ، مع ان ذلك كان بعد مضي سبعة شهور على زواجنا .

وكنت آنذاك أشعر بالضعف ، والوهن ، على اثر حمّى التيفوئيد الخطيرة ، التي أصابتني .. والتي نصحني الاطباء بعدها بأن أبدل الاجواء .

ومنذ ذلك الحين ، وكلما سافرت إلى خارج البلاد ، كانت الشائعات تروج انني ذاهبة لاستشارة الاطباء ... ولعل ذلك يعود إلى ما جرت عليه العادة — العادة السيئة — بأن يبرر كل سفر بأنه سفر له أسباب صحية .

حتى ان شقيقات الشاه ، حين كن يسافرن إلى البندقية ، أو إلى «سان تروبيز» كان سفرهن يبرر بأنهن ذاهبات ليخضعن للمعالجة الطبية .

وكانت هذه التعلة ، تعلة جميع الايرانيين ، الذين كانوا يرغبون رغم «حصار النقد النادر» في قضاء اجازات ببلدان أوروبا ، دون أن يفتح ذلك عليهم العيون ، ويثير حسد الحاسدين .

ولم يكن في الدنيا عدد أكبر من عدد الناس ، الذين يتصنعون الشكوى من أمراض لا تُعدّ ولا تحصى ، مثلما كان في طهران قبيل فترة الاجازات ، ولم أكن أشذّ عن هذه القاعدة .

والواقع انني ، حتى عام ١٩٥٤ ، لم أكن أجد ضرورياً أن استشير الاطباء الاخصائيين ، وكنتُ أعلّل نفسي بأن والدتي لم تنجب أبناء إلا في السنة العاشرة من زواجها .. أما اليوم ، و «مصدق» في السجن ، فقد أصبح الامر فجأة أكثر ضرورة ، وإلحاحاً ، بعد أن قوي مركز أسرة بهلوي ، واستتب لها الأمر ، ولم يعد ينقص إلا وجود ولي للعهد .

وبطبيعة الحال ، لم يكن أحد في البلاط ، يجرؤ على أن يحدثني في هذا الشأن بصراحة . فلقد كان مقامي كامبراطورة يحميني من ذلك .. غير انني كنت ألمح في العيون أحياناً ، نظرات متفحصة ، تحمل معنى السؤال .

وفي بعض الاحيان كانت والدة الشاه وهي تهنئني بذكرى ميلادي ، أو بذكرى زواجي تلمح إلى ذلك ، وتقول :

— «أرجو يا بنيّتي أن يزداد عدد أفراد عائلتكِ في العام القادم . »

وعلى هذا لم تكن المشكلة جديدة ، طارئة ، بل كانت قائمة في الواقع منذ ١٥ آذار من عام ١٩٣٩ ، حينما اقترن محمد رضا بالاميرة

المصرية «فوزية» ، ولم يحدد منذ ذلك الحين رسمياً نظام ولاية العهد .

وقد دار الحديث مراراً حول قانون وضعه بهذا الشأن الشاه الراحل وينص على ان تضع امبراطورات ايران ولياً للعهد ، ذكراً في خلال خمسة أعوام ، وإلا فسخ زواجهن بصاحب العرش .

غير ان هذا القانون الغامض ، الخفي لم يظهر أبداً للوجود ، ولم يكن مذكوراً لا في الدستور الايراني ، ولا في نظام الاسرة الامبراطورية. وان قانوناً كهذا كان إذا ما وجد يبدو غير منطقي ، لأن الطلاق جائز في الاسلام ، وان كل شخص يستطيع أن يطلق زوجته ، إذا ما دفع لها النفقة .

والحقيقة انه لم يخطر للشاه الراحل ان أسرة بهلوي يمكن أن تزول ، أو تنقرض ، فقد كانت له بنتان ، قبل ولادة محمد رضا ، وحين وضعت الامبراطورة السابقة فوزية بنتاً في عام ١٩٤٠ ، كان واثقاً بأنها سوف تضع مولوداً ذكراً ، بعد ذلك .

وبعد عام من ذلك نفي الشاه الراحل إلى «جوهنسبورغ» ، ومع انه ظل على صلة بطهران ، إلا انه لم يعلم أبداً ان زواج محمد رضا بفوزية ، يمضي نحو الطلاق ... وتوفي في تموز من عام ١٩٤٤ دون أن يطمئن على مصير أسرته من هذه الناحية . وكان على محمد رضا بطبيعة الأمور أن يختار ولياً للعهد ، وعلى الاخص بعد ان انفصل عن فوزية .. ففي جميع الحالات يكون هذا المنصب للأخ ، أو للعم ، حتى ولادة ولد لصاحب العرش .. غير ان الشاه الشاب لم يكن يفكر في هذا ، ولا يعتزم القيام به .

وفي عام ١٩٤٩ ، وبعد محاولة لاغتياله ، نجا منها باعجوبة ، حاول مستشاروه أن يحملوه على تغيير موقفه . وقد ذكر لي أحد رجال البلاط وكان حاضراً جلسة الشاه مع مستشاريه وما دار فيها من حوار ، وهو

الحوار التالي :

أحد الوزراء :

– « ألا ترى يا صاحب الجلالة ، ان عرش ايران ربما كان خالياً الآن ؟ »

الشاه :

– « ولقد نجوت من محاولة الاغتيال ، كما ترى ! »

الوزير :

– « ولكن ، أليس من الافضل أن تختار جلالتك أخيراً ، خليفة لك ؟ »

(وكان الشاه آنذاك في الثلاثين من عمره ، وكان قد طلّق فوزية ، منذ عامين .. وكان يعتبر شاباً جذاباً ، ولكن لم يكن يفكر بالزواج ، وبالتالي بانجاب ولي للعهد) .

الشاه :

– « ومن تقترح عليّ أن أختار ؟ »

الوزير :

– « أقرب الامور ، وأبسطها ، أن تعيّن جلالتك شقيقك علي . »

الشاه :

– « علي .. دعني أفكر في هذا بروية وهدوء . »

الوزير :

– « إن المجال غير متسع .. وكلما رأيناك تقود طائرة من طائراتك الصغيرة ، فاننا نصلّي في لهفة لتعود سالماً . »

الشاه (بابتسام) :

– « هدّئوا من روعكم يا أصدقائي ، فأنا ما زلت الآن حياً ، تحرسني عناية الله . »

وفي ذلك العهد ، لم يكن أحد ليستطيع أن يزعزع إيمان محمد

رضا برسالته ، فقد كان واثقاً بأنه وحده القادر على المضي ببلاده إلى مصير أفضل ، وعلى المرء أن يشهد بأن الاحداث حتى اليوم كانت تؤكد صواب ما كان يدعيه وما كان يذهب اليه .

وكان الشاه شديد التعلق بشقيقه علي ، وكان يردد دائماً :

— « ان علياً يمتاز بخلق أفضل من خلقي . »

ولكنه ، كما يبدو ، لم يكن يعتقد بأن شقيقه جدير بأن يصبح في يوم من الايام رئيساً للدولة .

ولم يتبدل شيء .. ومع أن الصحف الأجنبية كانت تشير إلى « علي » كولي للعهد ، إلا انه لم يحظ أبداً بهذا اللقب رسمياً .. وكان مصير عرش بهلوي دائماً ، متعلقاً بحياة الشاه ، ما دام لم ينجب ولداً .. وكنت أحس برغبته في أن يكون له ولد ، ينمو يوماً بعد يوم .. ولما كان يحبني ، فقد كان يخفي عني رغبته الدفينة هذه ، غير ان النساء لا يخفى عليهن ذلك ، وكنت أتألم ، ويزيد في ألمي انني عاجزة عن تحقيق أمنية الشاه ، وارضاء رغبته .. وحين عرض علي ان يفحصني أطباء نيويورك الاخصائيون ، وافقت فوراً ، فلقد كنت مستعدة لبذل كل ما من شأنه أن ينقذ سعادتنا . وكانت وفاة الامير علي ، قبيل سفرنا إلى اميركا ، من الاسباب التي زادت الازمة حدة ، وتعقيداً ... وكان الحل ، حتى ذلك الحين ، منوطاً بالشاه ، وبارادته وحده ... وكان « علي » آخر من يلجأ اليه عند ذكر ولاية العهد .. أما بعد وفاته ، فلم يكن هناك وصي شرعي على العرش ، ذلك لأن جميع أبناء الشاه الراحل ، كانوا أبناء اميرتين من قبيلة « كاجار » ، وكان الشاه الراحل قد أوضح ، ان كل من يتصل بهذه الاسرة الملكية بنسب ، لا يمكن أن يكون له نصيب في حكم ايران من جديد .

* * *

في ٨ كانون الاول من عام ١٩٥٤ دخلنا ، أنا والشاه مركز «بريسبيتاريان» الطبي في مانهاتن ، وهو أفخم جناح من أجنحة مستشفى نيويورك ، وفيه يعنى بالمرضى أمهر أطباء اميركا ، ويتمتع المريض فيه برفاه يضاهي الرفاه الذي يجده في فندق فاخر ، ممتاز .

وفي خلال ثلاثة أيام تم فحصنا بعناية ، ودقة ، وأجريت لنا عشرات الفحوص ، ونلنا شهادة بأننا نتمتع بصحة جيدة .

وسألت الاطباء في لهفة :

— « وما رأيكم في القضية التي تهمني شخصياً ؟ »

فأجابوا :

— « اننا لم نجد ما يمنع جلالتكِ أن يكون لكِ ولد ... ولسنا ننصحكِ إلا بالصبر . »

وعدت فسألتهم :

— « هل يسرع العلاج في اصلاح الأمر ؟ »

فكان ردهم :

— « لا .. فإن الأمر في حاجة للصبر ، وطول الاناة . »

وأبقى كلام الاطباء وتشخيصهم الامل في نفسي ، ورضينا بهذا رضاء مؤقتاً .

وفي ايران ، إذا ما مالت شعبية أحد الاشخاص العامين إلى الزوال ، سواء كان الشاه ، أو أحد الوزراء ، أو الامبراطورة ، شعر الشخص بذلك فوراً ... ذلك بأن حماس مساعديه للعمل معه يصبح فاتراً ، وتتعرقل أعماله ، وتتأخر .

ولقد شعرنا بشيء من هذا في أيام « مصدق » ، إلا انني لم ألمح شيئاً من هذا النوع ، بل على نقيض ذلك ، كان مركزي يزداد مع الايام ثباتاً ، ورسوخاً .

ولم يعد الشاه ، مؤقتاً ، يتطرق في حديثه إلى قضية ولاية العهد ..

ولما كان عدد من رجال الدولة الاجانب يعتزمون زيارة ايران في عام ١٩٥٦ ، فقد حرص الشاه ، على ان يحرص في ذلك الحين ، وقبل أي شيء ، على أن أصحبه ، في حله وترحاله ، والابتسامة المشرقة على ثغري .

وقد زاد من نجاح رحلاتنا في الخارج محبة الشعب لي ، وأخذ الملايين من الايرانيين ، ينظرون إليّ نظرة جديدة ، حين كانوا يسمعون انني استُقبلت ، في كل بلد زرناه ، استقبالاً حافلاً ..

أضف إلى ذلك دُور الحضانة ، والمستشفيات ، التي كانت تقيمها « مؤسسة ثريا » في كل مكان من البلاد ... حتى الوجهاء ، الذين كانوا قد قاوموا مشاريعي الاجتماعية ، أو وقفوا منها موقفاً سلبياً ، أصبحوا اليوم أكثر حماساً ، واندفاعاً ، وتأييداً لها .

وقبل اتخاذ أي قرار هام كانوا يلجأون إلى رأيي ، وكان نفوذي يبدو أكثر مما عهدت ، اتساعاً ، ونفاذاً ، في طول البلاد وعرضها . غير ان المظاهر كانت خادعة ، كما يحدث في غالب الاحيان ، ولما لم يكن في طهران وسائل للسلوى كان النساء يقرأن المجلات الأوروبية ، ويلتهمن بشهية صحف روما ، وباريس ، المصورة ، التي كان ينشر فيها كل أسبوع تقريباً ، مقال حول قلقنا على مصير ولاية العهد .

وكانت الافتراضات لا تعد ولا تحصى .. ومن ذلك قولهم : ما دام « علي باتريك » نجل « علي » شقيق الشاه الراحل يستبعد كولي للعهد ، فلماذا لا تكون الاميرة شاهناز ، بنت الشاه ، وليد للعهد .. أو لماذا لا يكون ابنها إذا ما تزوجت ولياً للعهد ؟..

وأصبح موضوع انجابي ولياً للعهد حديثاً دائماً في صالونات العاصمة وأخذ وضعي يزداد حرجاً مع الايام .. وكان ضرورة ملحّة إيجاد حل لهذه المشكلة .

ولما عُقدت خطبة شاهناز في تشرين الثاني من عام ١٩٥٦ إلى اردشير زاهدي ، ابن الجنرال زاهدي ، سألت الشاه بنفسي :

– « هل من سبيل إلى اختيار شاهناز ، وريثة للعرش ؟ »

فأجابني بقوله :

– « ان ذلك محال ، فالايرانيون لا يرضون أبداً بأن تحكمهم امرأة . »

وعدت أسأل الشاه :

– « وإذا ما أنجبتْ ولداً ؟ »

فقال :

– « إن ولداً من ذرية « زاهدي » لا يمكن أن يضمن استمرار أسرة « بهلوي » .. وفي هذه الحال قد يكون ابن علي رضا أجدر ... »

* * *

وفي تلك الاثناء لم تتحسن أوضاع البلاد .. فمع توفر الارادات الطيبة ، لم تتمكن حكومة علاء من القضاء على الفساد المستشري .

وفي الثالث من نيسان عام ١٩٥٧ ، عين الشاه الدكتور منوشهر اقبال ، رئيساً للوزراء .. ولأول مرة يختار الشاه لهذا المنصب رجلاً ليس من المائتي الاسرة الكبيرة في ايران .

وكان الدكتور اقبال استاذاً في جامعة طهران ، ولكنه لا يمارس التدريس ، ولم يكن غنيّاً ، بل كان يعيش على مرتبه .. وكانت زوجته فرنسية ، اقترن بها ، حين كان طالباً في باريس .. وكان القصر يعلق عليه آمالاً كباراً ، لأنه كان صاحب آراء ، واتجاهات جديدة .

وبعد تعيينه ببضعة أيام كان بينه وبين الشاه حديث لم أسمعه ، ولكنني

عرفت بعد ذلك انه دار على الشكل التالي :

قال اقبال للشاه :

– « يا صاحب الجلالة ، إذا ما كان عليّ أن أشرع في الاصلاح باسمك ، فيجب أن يكون مركزك فوق الانتقاد ، واللوم ، فإما أن تنجب الامبراطورة في أقرب وقت ، ولياً للعهد ، وإما أن يؤمن مصير الاسرة المالكة بطريقة أخرى . »

ولو انني كنت والشاه الوحيدين في الدنيا ، اذن لما نفد صبرنا ، ومع ان زواجنا لم يكن في بدايته ، الا ان تفاهمنا كان يزداد عاماً بعد عام .. فقد كانت طبائعنا متوافقة ، وكانت لنا نظرات واحدة في عدة قضايا ، وأصبح تعاوننا أكثر قوة ، وتوثقاً .

وكان أكثر ما يربط بيننا ، الاحداث التي مرت بنا معاً .. ولم يكن يتاح لنا في ظروف عادية ، رتيبة ، أن نتبين مدى حاجة كل منا للآخر ، إلا اننا شعرنا في خلال الازمات الكثيرة ، التي تعرضنا لها ، ان الجميع قد تخلوا عنا .. حتى أشقاء ، وشقيقات الشاه ، لم يشاركوه في حمل العبء الثقيل ، الذي حمل .

لقد تزوجت بالشاه ، زواجاً موفقاً ، وكنت واثقة ، كما لم أكن من قبل ، بأنني قادرة على أن أساعد الشاه ، وأجلب الخير لايران .

غير انني لهذه الاسباب ، ولما كنت قد رسمت لايران من مشاريع اجتماعية ، لم أشأ أن أبني فوق الرمال .. ومن أجل هذا أقدمت على دفع الاحداث ، التي جرت في الاشهر المقبلة .

ولعلني لست في حاجة إلى وصف ما اقتضاني هذا القرار من جهد ، وحرج .. وفي أحد أيام تموز من عام ١٩٥٧ ، وبينما كنت أتنزه بصحبة الشاه ، بادرته قائلة :

— « ان الوضع لا يمكن أن يستمر على هذا الشكل ، فان صبر الناس قد نفد ، وإذا ما حدث لك مكروه ، ولم يكن لك ولي للعهد ، حمّلني الناس تبعة الاضطراب ، والفوضى ، التي قد تنتج عن ذلك ، وتعم البلاد . »

ونظر الشاه إليّ نظرة جانبية ، فتابعت حديثي :

— « انني لم أعد أطيق هذا الضغط ، وما جدوى رسم المشاريع ، ما دامت المشكلة الأساسية لم تحل ؟ »

وكما حدث في عهد « مصدق » ، أردت أن أجلو الوضع ، مغامرة بكل شيء ، في هذا السبيل .. فإما انني كنت أستحق بأعمالي أن أظل امبراطورة لايران ، وإما ان يكون استمرار ذرية بهلوي أكثر أهمية ، وشأناً .

وأجاب الشاه :

— « انني ادرك ذلك كله ، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل ؟ »

وأجبت :

— « اننا في حاجة إلى هدنة ، وعلينا أن نجد حلاً مؤقتاً ، مدته بين خمس ، وعشر سنوات . »

فقال الشاه :

— « وهل لديكِ اقتراحات عملية في هذا المجال ؟ »

فأجبته :

— « إذا ما رفع الحرمان عن أسرة كاجار ، كان لأحد اخوتك من أبيك أن يكون ولياً للعهد . »

ورد الشاه فقال :

— « ان ذلك يحتاج إلى تعديل للدستور ، يوافق عليه مجلس الحكماء نفسه . »

وربما قال بعض الرومانطيقيين ، انه كان يجب على الشاه أن يفعل

ما فعله « دوق وندسور » ، وان يقتدي به ، فيتخلى عن العرش من أجل المرأة التي عشق .. غير اننا لم نواجه هذا أبداً ، ولم يخطر للشاه في بال .

ومهما كان حبه لامرأة ، فانه لا يفضلها على الدولة ، وعلى العرش، وعلى رغبته في أن يكون له وريث ... وهذه المشاعر ، التي تتفق وتقاليد ايران ، كانت نابتة في الجذور في نفسه ، عميقة الاثر في اعراقه .

ترى .. هل كان يريد حقاً أن ينقذ زواجنا .. وهل كان صادق العزم على اقناع مجلس الحكماء ليتخذ قراراً ، أو يجد تسوية ... أم ان ذلك كله كان وسيلة يدفعني بها إلى الرحيل ؟

ذلك ما لا أعلمه علم اليقين ، ومبلغ علمي انه ترك لي بعض الأمل، واكرمني حتى آخر أيامنا معاً .

وكان هذا المجلس ، بمثابة مجلس للعرش ، ويضمّ كبار أعيان البلاد ، ووجهائها .. ومع ان الشاه لم يكن في حاجة إلى موافقتهم في استمرار زواجنا ، أو فصمه ، لأن ذلك من شأنه وحده ، غير ان أي تعديل جديد لنظام وراثة العرش ، يحتاج إلى موافقتهم ، ورضاهم .

وقلت للشاه :

— « اذن فاجمع المجلس . »

فأجاب :

— « وإذا ما رفض اقتراحاتي ؟ »

وأجبت ، وقد تصنعت القوة ، والحزم :

— « عندئذ لا يكون أمامنا إلا الانفصال . »

وتظاهر الشاه بأنه لم يسمع ما قلت ، ولكن في الاسابيع التي تلت ، تعوّد شيئاً فشيئاً هذا الحل ...

وفي إحدى الامسيات ، وبينما كان حديثنا يدور حول هذا الموضوع ، قال الشاه :

– « وعلى أية حال ، يجب ان لا يشعر الناس ، بأنني أردت طردك من البلاد . »

وأدركت غاية حديثه .. ولما كان شأنه انه يشعر بالذعر ، والأسى ، عند احتمال اساءته لأحد من الذين يحبهم ، فقد بادرت إلى مساعدته ، وقلت بلهجة مجردة :

– « قد يكون من الخير أن أذهب إلى أوروبا ، وانتظر نتيجة القضية ، وبذلك نوفر على نفسينا كثيراً من الاوضاع ، والمآزق . »

واتفقنا على أن أذهب ، إذا ما سارت الامور على ما يرام ، إلى « سان موريتز » ، لأمارس التزلج على الجليد ... وقرر الشاه ان يظل على اتصال هاتفي بي ، ليطلعني على سير الامور ، وتطورات القضية .

وظل الامر سراً بيننا ، لأن الشاه حرص على ان لا يدع أحداً يعلم بالأمر ، حتى أعضاء الاسرة المقربين .. وكان عليّ وحدي ، أن اتخذ قرارات تتعلق بمصيري ، وبمستقبلي كله . ومع ذلك فقد شعرت بطمأنينة غريبة ، وكنت أعلم ، واؤمن بأنني أتبع سبيل الصواب .

وفي الاشهر التي سبقت رحيلي رتبت المنزل ، أفضل ترتيب ، وبعدها طلبت من الآنسة ساغومول ان تجمع الصور ، التي التقطت لي ، في السنوات السبع الماضية .. وأحرقت مئات الرسائل ، والوثائق ، ونظمت الحاجات الشخصية ، التي أعدّت لترسل إليّ في المستقبل .

ومع ذلك لم أكن أميل إلى التشاؤم ، بل على نقيض ذلك ، لم أكن أتيح لنفسي التفكير ، بأنني سوف أضر ، دون أثم ، أو ذنب ، كل ما كنت أحرص عليه ، أشد الحرص .. ولعلني كنت أسيء تقدير

الوضع الذي أنا فيه ، ولعلني نسيت ان الشاه ، مع تربيته الأوروبية ، ظل شرقياً في أعماقه .

وفي أيام الضيق والحرج هذه ، لم يكن بجانبه أحد سواي ، ولم يكن بجانبي أحد سواه ، وفي ذلك ما يوثق بين شخصين العلاقات ، التي لا يسهل فصمها ، وفكها .

وإذا ما كنت قد ذكرت ذلك ، فلأنه الوسيلة الوحيدة ، التي أعبّر بها عن المأساة التي وجدت نفسي أعيش فيها .

* * *

وفي ١٣ شباط من عام ١٩٥٨ ، وبعد سبع سنوات من زواجنا ، غادرت طهران .. وجاء الشاه ، ووزراؤه لوداعي في المطار ، وأدى لي حرس الشرف التحية المألوفة . ولم يكن أحد سواي ، وسوى محمدرضا يعلم اننا لن نلتقي بعد اليوم أبداً ...

وكانت الحاشية التي رافقتني مؤلفة من مارشال القصر غراغوزلو ، وزوَجته ، والآنسة ساغومول .. وكان والدي الذي جاء طهران لعمل خاص ، مسافراً بالصدفة في الطائرة نفسها ، التي حملتني ، ولم يكن يعلم من أمري ، إلا ما يعلمه الناس .

وكان الشاه قد رجاني أن لا أخبر والدي بشيء ، وكان ذلك عسيراً عليّ ، لأنني كنت مقربة إلى والدي .. غير انني لم أكن قد تعلمت عبثاً ، طوال سبع سنوات ، أن أسيطر على أعصابي ، وأكتم مشاعري .. وطول رحلتنا إلى جنيف ، لم يبد عليّ شيء ، وكنت أتصرف حيال المقربين إليّ ، تصرف من تسافر من أجل المتعة والاستجمام .

وفي « سان موريتز » لم تكن الامور أكثر سهولة ويسراً .. فقد كان فندق « بالاس » الذي نزلت فيه ، يعج بالناس الذين أعرفهم ،

وقد انهالت عليّ دعواتهم ، فصحبتهم إلى «سوفريتا» وإلى «الالا» ، في نادي «كريستا» ، وكان عليّ في كل مكان حللت فيه أن أبتسم ، وأن أتحدث إلى النـاس ، مـع مـا كان يملأ جوانحي من حزن ، وأسى ..

وكان ذهني يرتاد طهران دوماً ، واليها كانت تتجه أفكاري .. فقد كان موعد النقاش الأول في مجلس الحكماء ، يوم سفري بالمانيا ، وقد وعدني الشاه بأن يطلعني على ما يجري .

غير انني لم أتلق أي شيء .. وكان كل يوم يمضي يعادل دهراً .. وبعد ظهر اليوم الثالث نفد صبري ، فطلبت طهران ، فلما أجاب محمد رضا على الهاتف ، قلت له بلهجة هادئة ، ما وسعني الهدوء :

— « ماذا تقرر ؟ »

وأجابني باللهجة الفائرة ، التي تعودتها :

— « لقد اقترحت عليهم اختيار غلام رضا ، أو عبد الرضا ، ولكنهم رفضوا الاثنين . »

وسألته :

— « وهل انتهت المناقشات ؟ »

فأجاب :

— « يجب أن نلتقي ، وسأحاول مرة أخرى .. ومن الأفضل أن تنتظري عدة أيام أخر .. وسأتصل بكِ ، حين يتم الوصـول إلى قرار ... »

وشعرت على اثر هـذا الحديث بأن الأمل قـد فقد ، وضاع .. وكما هو شأني ، في مثل هـذه الحالات الحرجة ، ان لا أذرف الدموع ، ولكن بعد ان انتهى حديثي مع الشاه ، أخذت أرتجف ارتجافاً رهيباً . واطلعت والدتي على ما دار بيني وبين الشاه مـن حديث ، وسألتها :

— « ماذا علينا أن نصنع ؟ انني راغبة في ان نغادر « سان موريتز » بسرعة .. ففي هذه الظروف أشعر بأن الحياة في الفندق عذاب لا يضاهيه عذاب . »

وأجابت والدتي :

— « اننا لا نستطيع ان نرحل فجأة ، وأرى أن نستشير السيد غراغوزلو ... وكان ماريشال البلاط رجلاً رقيق القلب ، والشعور ، ولم يكن قد علم بشيء مما وقع .. وكان يحبني كبنته ، حتى اننا حين بحنا له بواقع الامر أجهش بالبكاء ، ولم ينقطع عنه ، وهو يردد :

— « هذا محال ، هذا محال . »

وكان عليّ في نهاية المطاف أن أعزيه ، وأسليه .

وبقينا في « سان موريتز » عدة أيام أخر ، كي لا يشعر أحد بما أصابنا ، غير ان السيد غراغوزلو لم يكن يستطيع ، كما نستطيع ، أن يكتم شعوره ، وكنت أطلب اليه دائماً أن لا يظهر عابس الوجه ، مقطب الجبين .

غير ان ملامح وجهه التي غطتها الكآبة ، قد جعلت زبائن الفندق يشعرون بأن أمورنا ليست على ما يرام .

ولاح حل لم يكن منتظراً . فقد اتصل بنا والدي هاتفياً يوم ٢٢ شباط ، وكان قد كسر قدمه في كولوني.. وكان ذلك مناسبة ، اغتنمتها، فحزمت حقائبي ، وكنت آمل في أن أكون عند أهلي بنجوة من العيون وبذلك يتاح لي أن أتغلب على همومي .

وكان الشاه قد اتصل بي هاتفياً ، عدة مرات ، وأخبرني بأنه سيبعث إليّ بثلاثة رسل هم : الدكتور عيادي ، مرافق الشاه ، والجنرال يزدان بانا ، وزوجته ، وهي روسية بيضاء .

وقد وصلوا بعد أيام إلى كولوني ، كما وصل عمي أسد بختياري ، وهو الذي كان قد عاد منذ سبع سنوات إلى طهران في نفس الطائرة،

التي كنت فيها .

وكان «يزدان بانا» وعمي قد اشتركا في جميع المناقشات مع الشاه ، إلى جانب رئيس الوزراء «اقبال» ، ووزير البلاط «علاء» ، ومدير الممتلكات «علم» ، والإمام «جمعة» ، الذي عقد قراننا ، وشيخ آخر ، ورئيس مجلس الشيوخ ، وبعض شيوخ القبائل .

وقال لي عمي :

— «ان المشايخ قد دافعوا عنكِ ، وحافظ «اقبال» على حياد واع ، ولم يكتم «علاء» كرهه لي .»

وفي خلال عدة أيام لم تتوصل اللجنة إلى الاتفاق .. وكان محمد رضا يخرج دائماً من القاعة ، وهو يردد :

— «ان على هؤلاء السادة أنْ يستمروا في نقاشهم ، حتى يصلوا إلى اتفاق .»

وفي أثناء هذه المناقشات كان الاعداء ينجحون في اكتساب المحايدين . ورُفضتْ أخيراً جميع الاقتراحات ، التي قدّمها الشاه ، بغالبية ظاهرة .

وسألت أعضاء اللجنة :

— «لماذا أرسلكم صاحب الجلالة إليّ ؟»

وأجابني الدكتور عيادي بقوله :

— «نحن بعثة الفرصة الاخيرة ..»

وبلغني ، بعد ذلك ، ان نبأ المناقشات قد انتشر في طهران بسرعة ، وأحدث ردة معاكسة .... وقد أرادت السيدات اللواتي كن يعملن في المؤسسات التي أنشأتها ، أن يسرنَ في مظاهرة احتجاج ، ولكن الشرطة منعتها .. وعلى نقيض ما كان يروى آنذاك ، ذهبت الاميرة «أشرف» ، وسواها من نساء الاسرة ، إلى الشاه ، وهنّ يبكين ، ويحاولنَ أن يجعلنه يعود عن قراره .

ووقفت إلى جـانبي ، صراحة ، شخصيات بارزة ، لم أكن أتوقع منها هـذا الاخلاص ، والوفاء .. وأعلنوا ان محمد رضا كان قـادراً على أن يحلّ مشكلة العرش ، دون أن يتخلى عنـه ، وقرروا الامتناع عن قبول أية دعوة ، لأية حفلة ، من حفـلات القصر .

ويلوح ان هذه المعارضة هي التي دفعت الشاه إلى أن يقوم بهـذه المحاولة الأخيرة .. ربما لأنقاذ الشكليات ! ذلك ان أحد أعضاء مجلس الشيوخ كان قد قدّم الاقتراح التالي :

« بموجب الشرع الاسلامي ، للملك الحق في أن يتزوج امرأة ثانية ، تنجب له ولي العهد ، الذي لنا فيه جميعاً حق . فإذا ما قبلت الامبراطورة ثريا أن يتزوج الشاه امرأة ثانية ، فليس هناك ما يحول دون عودتها إلى طهران ، والعيش معه . »

وكانت مهمة رُسل الشاه ، أن يقنعوني بهذا الحل ، ونظرت اليهم لحظات ، وأنا بين المصدقة ، والمكذبة ، ثم صحت :

— « وكيف تعرضون عليّ حلاً كهذا .. انكم تعرفونني حق المعرفة ، وتعرفون انني لن أقبل أبداً حلاً كهذا . »

ومع ذلك ، فقد كان في طهران بعض أفراد أسرة عريقـة ، تزوجوا عـدة نساء ، والسبب الاساسي في ذلك ، ان هؤلاء الافراد لم يريدوا أن يفصلوا الابناء عن امهاتهم .. ولكنهم كانوا يبقون مثل هذا الزواج مكتوماً ، لأن الزمن قـد تجاوزه ، وأكثر الرجال كانوا يطلّقون زوجاتهم ، كالاوروبيين ، قبل أن يعقدوا أي زواج جديد .

وقال لي عمي :

— « ان معارضتكِ ستظل كما كانت من قبل . »

وأجبته :

– « ان هذا كله أمر نظري .. فان الشاه لا يستطيع تنفيذه ، عملياً ، لأن ذلك يتنافى وطبعه . »

وكان أعضاء الوفد أنفسهم لا يؤمنون بمهمتهم .. وبعد صمت ، سألني الجنرال « يزدان بانا » :

– « لماذا لا تذهبين إلى طهران يا صاحبة الجلالة ، لتتحدثي إلى الشاه مرة أخرى حول هذه الشؤون ؟ »

وحاول الآخرون كذلك اقناعي بأن أعود معهم إلى طهران .. ولو انني رضخت لضغطهم ، فربما لم يجد محمد رضا لائقاً أن يردني على أعقابي ، ولكنني كنت أعلم ، ان ذلك ليس بالحل الصحيح .

وقلت لهم :

– « اننا قد تناقشنا طويلاً ، وان أية فرصة جديدة ، لن تغيّر في الامر شيئاً . »

* * *

وحمل العم « أسد » إلى القصر نبأ فشله في مهمته .. وفي الخامس من آذار اتصل بي الشاه هاتفياً !..

كان حديثنا ، أنا والشاه ، في الهاتف ، فاتراً ، كما يحدث حين يكون شخصان قد أصيبا بجرح بالغ ، فيلجآن إلى وضع يوشك أن يكون بعيداً عن التأثر ، والشعور .. وقد قلت له رأيي في عروضه التي قدّمها إليّ ، أما هو فقد ردد بصوت رتيب : « فكري أكثر » .. غير ان كلانا كان واثقاً بأن هذه كانت النهاية ...

وفي ١٤ آذار ، أعلن الشاه طلاقنا ، دون أن يكون قد تحدث إليّ

من جديد ... وبعد أيام من ذلك بعث إليّ برسالة موجزة ، أكد لي فيها انه أقدم على ما أقدم عليه والأسى يحز في نفسه .. ولم أجب على رسالة الشاه ، وكان بديهياً أن لا أفعل .

وكان ما حدث بعد ذلك عادياً .. فقد وضعت الآنسة ساغومول قائمة بالحاجيات التي تركتها في طهران ، حملها الدكتور عيادي ، وبعد أسبوع من ذلك أرسلت إليّ حاجياتي إلى كولونيا .. وفيها مجوهراتي ، وخزائني ، وبعض التحف ، التي أهديت إليّ في خلال رحلاتي ، وتنقلاتي .

وقد دفع لي الشاه تعويضاً ، كان أقل بكثير مما كان مقدراً ، غير ان الشاه كان قد قدّم إليّ بعض الهبات ، في مناسبات مختلفة .

وكان قد شرح لي ان القانون الايراني ، لا يمنح المرأة حق الوراثة ، وإذا ما حدث للشاه سوء ، كان أقصى ما أناله من تركته ثمانية في المائة .

غير ان محمد رضا كان ، من قبيل الحذر ، والاحتياط ، قد أهداني مالاً ، وأراضي ، وحاجات نفيسة .

وقد وظفت رأس مالي هذا ، واستغللته أحسن استغلال ، حتى اني كنت أملك ثروة لا بأس بها ، حين تم الطلاق بيني وبين الشاه . وبعد ان دفع لي الشاه التعويض ، وعدني بحياة هنيئة ، مريحة ، وان لم تكن حياة ترف ، وبذخ .

وما زال جزء كبير من ثروتي موظفاً للاستغلال في ايران ، كما كان في الماضي ، ولكن لا الشاه ، ولا سواه من رجال الدولة يهتم بثروتي .

وبما انني اوثر في الوقت الراهن ، ان لا أذهب بنفسي إلى طهران ، فأن والدي ، أو شقيقي ، يذهبان مرة أو مرتين في السنة ليشرفوا على

تنظيم شؤوني المالية ، وأعمالي .

وقد زعم بعض الناس ان محمد رضا يدفع لي مرتباً شهرياً ، ولكن ذلك غير صحيح .. فمنذ عام ١٩٥٨ لم أتلق شيئاً منه ، وانني لاتولى الانفاق على نفسي ، ومعنى ذلك انني لم أعد مرتبطة به ، بأي شكل من الاشكال .

ومنذ تمّ طلاقنا ، لم يتدخل الشاه في حياتي الشخصية ، ولم يحاول التأثير على مجراها ، بصورة مباشرة ، أو غير مباشرة .

ويروى ان محمد رضا ، كان يود مخلصاً ، وإلى أن تزوج « فرح ديبا » ، أن يعود الوئام بيننا ، وتعود العلاقة إلى ما كانت عليه .. ولست أدري بطبيعة الحال ماذا كان يدور في رأسه ، غير انه لم يقم بأية بادرة في هذا المجال ... وعلى أية حال لم يكن ذلك ممكناً ، بعد أن قررنا الانفصال ، قراراً لا رجعة فيه ...

ولم يتدخل الشاه أبداً ، في أسماء الرجال ، الذين قرن الناس اسماءهم باسمي ... ومرة واحدة ، بلغني ان الشاه أسرّ لأحد الاصدقاء :

— « أرجو أن تجد ثريا زوجاً صالحاً ، وتجد السعادة معه ، إلى أقصى حد . »

وكما كنت قد أشرت ، في بداية مذكراتي ، منحني الشاه ، حين افترقنا وغادرت ايران ، لقب « اميرة ملكية » .. ومع ان هذا يبدو في الظاهر مجاملة شكلية ، إلا ان لهذا اللقب شأناً ، وأهمية كبيرين .. ذلك ان رضا شاه ، حين تسلم الحكم ، ألغى جميع ألقاب الامارة ، ولم يعد لامراء « كاجار » ولا لسواهم الحق في التمتع بلقب الامارة ، وعلى الاقل ، من الناحية الرسمية .

ومنذ ذلك الحين اقتصر اللقب على أفراد أسرة بهلوي المالكة ، دون سائر الايرانيين ، وهم : أشقاء ، وشقيقات الشاه ، وأبناؤهم .. وكان عليّ بعد الطلاق أن أتخلى عن اللقب لو لم يمنحني إياه الشاه ، وان يدعوني الناس : ثريا اصفندياري .

ولكن الشاه لم يرض ذلك ، وعلى هذا منحني لقب اميرة ملكية ، بمرسوم خاص أصدره .. وكما علمت بعد ذلك ان هذه هي المرة الأولى والاخيرة ، التي يخالف فيها الشاه القانون ، والعرف ، ويستثني منهما أحداً من الناس .

وعلى هذا وضعني في نفس مرتبة شقيقاته ، وأصبح لي الحق في جواز سفر دبلوماسي ، وان تعاملني سفارات ايران في الخارج كعضو من أعضاء الاسرة المالكة .. فضلاً عن انني حافظت على مقامي تجاه الكثيرين ممن ينتمون إلى الطبقة الارستقراطية الرفيعة ، في المجتمع الاوروبي .

غير ان هذه المزايا الخارجية ، لم تكن لتؤثر في نفسي ، لأنني أعتقد بأن لا قيمة حقيقية لها .. ذلك ان الكثيرين من الناس ، الذين كنت قد أدخلتهم بلاط طهران ، وحميتهم من الجماعات المخاصمة لهم ، كانوا أول من تنكر لي .

ومن ذلك انني علمت ، وأنا في طريقي إلى « برمودا » ان عدداً من الاسر ، التي كنت أعتقد بأنها تحبني ، وتؤثرني ، حاولت بعد أيام من طلاقي ان تقدم للشاه بناتها ، لتكون من يختارها منهن ، خليفة لي .. وكانوا يجدون في شقائي ، ومحنتي ، فرصة يحاولون اغتنامها لزيادة نفوذهم في القصر .

وكان ذلك مصدر خيبة أمل ، ودرساً بليغاً في آن واحد .. ولأول مرة ، تبينت دوافع هؤلاء الناس ، الذين غمروني ، طول سنوات سبع بحبّهم ، وودهم ، ولطفهم ، وعواطفهم المصطنعة ، المزورة .

ومن الطبيعي انني ما كنت قد حقدت على الشاه نفسه ، لو تزوج بسرعة ... غير انه كان يعاني ، ويشقى من الفراق الذي كان بيننا ، ولذلك كان من العسير أن يجد زوجة تصلح له ، وتليق به .

وحين مدّ بصره إلى أميرة أوروبية في عام ١٩٥٨ ، لم استغرب ذلك ، فلقد كنت أعرفها معرفة سطحية ، وكانت فتاة ساحرة .. غير انها لا بدّ قد تساءلت ، شأنها شأن جميع الاميرات الاوروبيات ، عن مصيرها إذا ما اقترنتْ بالشاه ، وهل يكون كمصير من سبقها من زوجاته ؟.. حتى ولو انها أنجبت له ، فقد تنجب بنتين ، أو ثلاثاً ، أو أربعاً ، واحدة تلو الأخرى .

ولم يعلن الشاه خطبته لفرح ديبا إلا في نهاية خريف عام ١٩٥٩ ، ومثل جميع الذين كانوا يرجون للشاه السعادة ، فرحتُ بهذا الزواج ، وكنت أدرك ما يعلق الشاه من آمال على ولي عهد له ، يترقبه منذ عشرين عاماً .

وعلى هذا لم تكن تضحيتي عديمة الجدوى ، ومع مرور الزمن ، يزيد اقتناعي ، بأنني اتخذت قراراً حكيماً ، قراراً هو الافضل ، قراراً فتح أمامي آفاقاً جديدة .

المستقبل المشرق وذكريات الماضي

حين عدت إلى « ميونيخ » من زيارة لليونان ، كان ثلاثة مخبرين ، أوفدتهم إحدى المجلات الباريسية ، يرابطون عند مدخل دارتي .. ومن الصباح حتى المساء كانوا يذرعون الطريق بخطاهم ، وعيونهم تحاول اختراق سور القصر ، وتراقب كل شخص يدخل اليه أو يخرج منه .

ولما كنت عاكفة على كتابة مذكراتي هذه ، لم أكن أخرج من دارتي إلا لماماً .. وفي صباح أحد الايام ، زارني موظف شركة التأمين وهو فتى أشقر الشعر ، كان يعتبرني منذ سنوات واحدة من أهم زبائن الشركة .

وحين خرج من دارتي ، أحاط به المخبرون الثلاثة ، وأمطروه بأسئلة ملحة .. ماذا كنت تصنع في قصر ثريا .. ولماذا لا تخرج الاميرة ، وهل أنت عشيقها الجديد ؟..

ولما أجابهم بأنه موظف بشركة التأمين لم يصدقوه ، وقالوا وهم يضحكون :

— « آه .. إنها فكرة جميلة ، لم تخطر لأحد من قبل !.. »

وركب موظف شركة التأمين سيارته دون أن يزيد كلمة على ما قال ... فقد تبعه المخبرون الصحفيون ، واقتفوا آثاره ثلاثة أيام في شوارع المدينة ، وزواياها .. ولم يتركوه إلا بعد أن علموا بأنه متزوج ، وله ثلاثة أبناء .

ومنذ خمسة أعوام ، وهذا الوضع يحيط بالمعجبين بي ، حقاً ، أم باطلاً ... وأظن انه ليس هناك امرأة ، عدا « بريجيت باردو » ، و « اليزابيت تيلور » ، نسبوا اليها ما نسبوا إليّ ، من قصص ، ومغامرات .

وبما انني كنت أقيم مع أهلي ، فقد كنت أجتمع على الاخص برجال ارستقراطيين ، وبرجال صناعة المانيين ، كانوا يترددون على سفارة ايران في « كولوني » ، أو كنت قد صادفتهم في الأعوام الماضية ، بحفلات استقبال حضرتها في أوروبا .

وفي تشرين الاول من عام ١٩٥٨ ، عرض علينا أحد هؤلاء أن نزور « بادن بادن » ، لنشهد سباق الخيل لموسم الخريف ، وقبلنا الدعوة ، لأنه لم تكن لدينا مشاريع أخرى .

وقد صحبني الرجل ، وأهلي ، إلى حفلتين راقصتين رسميتين ، وطلب إليّ لياقة أن أراقصه .. وقد اغتنم بعض المخبرين الصحفيين هذه المناسبة ، وأخذوا يروجون الشائعات بأن زواجنا قريب .. وكنت أصادف ، بطبيعة الحال رجالاً ، ليسوا من أصدقاء أهلي ، وحين

كنت امبراطورة كان يقدّم إليّ عشرات الرجال ، في كل رحلة قمت بها إلى أوروبا ، وقد أخذ الكثيرون من هؤلاء يسعون إلى لقائي ، والاجتماع بي .

وما ان تنشر الصحف ، نبأ وصولي إلى ميونيخ ، أو روما ، أو أثينا ، أو مدريد ، حتى تنهال عليّ بطاقات الدعوات من كل صوب . وفي بعض الاحيان لم أكن أعرف من الذي دعاني ، وقد يكون هؤلاء حيوني من قبل ، ولكنني لم أكن وأنا امبراطورة لاستطيع أن أذكر جميع من وقع عليهم بصري ، أو امتدت اليهم يدي بالتحية .

وكثيرون كانوا يدّعون انهم يعرفونني ، مع انهم لم يقدّموا إليّ أبداً .. ومن حسن الطالع انه كان لي في كل مكان ، أصدقاء يسدون إلي النصائح في هذا المجال .

وفي الايام الاولى ، التي تلت طلاقي ، لم أكن أطيق حضور حفلات الاستقبال الكبرى ، وكنت أفضل الانزواء في الاندية الخاصة .. وعلى هذا ، فقد رفضت دعوات كثيرة للخروج .. ومن ناحية ثانية سمح لي استعمال بطاقات الدعوة باعادة علاقات قديمة ، وإقامة علاقات جديدة .

وكانت علاقاتي مع أفراد الطبقة الارستقراطية الرفيعة تؤول على غير حقيقتها .. ففي « ميونيخ » راجت شائعة علاقة عاطفية زعم انها نشأت بيني ، وبين أمير ، لم يكن سوى صديق حميم ... وفي « بورتو فينو » روجوا ان احد أفراد الاسرة الاسبانية المالكة قد خطبني .

وكان المصورون قد التقطوا لي صورة ، وأنا أراقص هذا الامير في ملهى ليلي ، وظهرنا في الصورة كما لو ان خدينا كانا متلاصقين ... واستناداً إلى هذا الخداع التصويري ظهرت مقالات

طويلة في الصحف ، يعدد كاتبوها العراقيل التي تعترض سبيل الزواج بين أحد أفراد أسرة « بوربون » ، وفتاة مسلمة .

وفي مجتمع القارات الثلاث ، لاحظت دوماً ظاهرة غريبة : ذلك ان الناس يروون أموراً لم تحدث ، ولا سند لها من الواقع . ويعود ذلك إلى ان الجمهور يميل إلى المبالغة في حياة ضحاياه ، الذين يختارهم هدفاً للشائعات ، والاقاويل .

ومما يروي الناس مثلاً قولهم : ان احد « أصحاب الملايين » ، يعاني في صمت ، مصاعب مالية .. وكثيرون من « الدون جوان » الذين تنسب اليهم مغامرات غرامية ، لا حصر لها ، يمضون لياليهم وحيدين !.. وإذا ما كان الشخص رفيع المقام في المجتمع ، صعب عليه ، على العموم ، أن يعقد روابط صداقة وثيقة .. ذلك لأن عقبات خارجية كثيرة تعترضه ، عدا خشيته من الفضائح التي لا ينجو منها مع تحفظه ومداراته .

وتبيّن لي ، ان سمعة الاشخاص ، التي لا غبار عليها ، تتلطخ عادة بشائعات وأقاويل أشخاص لا ضمير لهم .. وأكثر ضحايا هذه الحال ليس لديهم الوقت ، أو الشجاعة ، للتصدي لهذه الشائعات .

وقد ترددت شخصياً في ان أتحدث إلى الناس ، عن طريق هذه المذكرات ، وفي تصحيح الانباء والشائعات التي نشرت حولي ، في السنوات الاخيرة .

واني لست سيدة عجوزاً ، تعكف بتأثر على ذكرياتها العاطفية القديمة ، ولكنني امرأة ما زال المستقبل مشرقاً أمامها ويسوءني ان أدخل في تفاصيل حياتي ، ومع ذلك فانني أود أن أحاول وضع الامور في نصابها ، ورد الشائعات إلى صوابها .

* * *

في نهاية عام ١٩٥٨ ، أخذت أبحث عن منزل ، وكان أهلي قد استقبلوني في « كولوني» بحرارة ، ولهفة ، ومع ذلك فقد كنت أرغب في أن يكون لي منزل خاص ، في أقرب وقت .

وكنت أرى ان أجمل المدن هي روما ... وحين كنت امبراطورة كنت أمضي فيها بضعة أسابيع ، في كل عام تقريباً ، وتعرفت إلى عدة أسر بارزة ، ذات نفوذ ، كأسرة : كولونا ، ورسبولي ، وبالافيشيني .

وكان المناخ الدافئ يعجبني ، ويريحني ، ولما كان مزاج سكان روما نشطاً كمزاج الايرانيين ، تيقنت بأنني سأجد الراحة والطمأنينة بقربهم .

وعلى هذا كلفت صديقة الدراسة القديمة « ماريا غراتزيا ليغوري » أن تبحث لي عن قصر ملائم ، وكنت أريد أن استأجره لمدة ستة شهور ، وأن أحزم أمري بعد ذلك نهائياً .

وفي خلال ذلك كنت أزور « سان موريتز » ، بصحبة والدتي ، والتفّتْ حولنا بسرعة ، جماعة من الاشخاص المرحين ، منهم الامير جوهانس فون تورن ، وتاكسيس ، والامير ليختنشتاين ، والامير ريموندو اورسيني ، والاشقاء والشقيقات غينيس .

وكنا نقوم برحلات لممارسة التزلج على الجليد ، وبنزهات في عربات الجليد ، وبعد الظهر كنا نلتقي لنتناول الشاي .

وفي أحد الايام حدّثنا الامير جوهانس ، عن كرنفال ميونيخ ، الذي كنا نسمع به ، ولم نشاهده .. وفي شهر شباط التقينا جميعاً في ميونيخ ، حيث أمضينا أياماً جميلة وسعيدة .

وقبل أن أمضي في هذا السرد ، أود أن أبادر إلى القول انني أتعشق اللهو ، بين أناس خفيفي الظل قريبين إلى القلب ... ويلوح لي ان ليس في هذا ضير ، ما دامت الامور الجدية ، وسواها من المصالح تحتل

المقام الاول .

وان الصبا ، والفرح ليجلباني ، ويستهوياني ، فقد كنت قد أمضيت أعواماً بين السابعة عشرة ، والخامسة والعشرين ، وأنا محاطة بجو من الرسميات ، والشكليات المتزمتة .. وفي تلك الايام كانت صديقتي قد زارت في روما عدة أسر ، ولكنها تركت لي الخيار النهائي .

وفي أول نيسان من عام ١٩٥٩ ، ذهبت إلى روما ، بصحبة والدتي ، ونزلت فندق « اكسلسيور » .. وكنت أعرف في روما اناساً كثيرين ، بادروا إلى الاحاطة بي بسرعة ، وفيهم كثيرون من المعجبين .. وقد مال قلبي إلى أحدهم ، وكان هذا الميل حديث الناس ، في ذلك الحين ..

وكان هذا الشاب رفيقاً تلذ لي صحبته ، في الفن ، والرياضة ، والرقص ، وكان لنا كلانا اهتمام بتاريخ الفن ، وكان مطلعاً عليه أوسع اطلاع .. وكنا في كل يوم نمضي ساعات معاً .

وفي صباح أحد الايام جاء لزيارتي ، ودهشت حين وجدته أصفر الوجه ، ممتقع اللون ، وسألته بلهفة :

— « ماذا حدث لك .. وممّ تشكو ؟ »

وأجابني ، وهو يبتسم :

— « لست أشكو شيئاً . »

وشعرت رغم جوابه ان هناك شيئاً ليس على ما يرام ، وألححت عليه في السؤال ، حتى اضطر إلى البوح ، فقال :

— « لقد تلقيت صباح اليوم رسالة يهددني كاتبها بالقتل ، إذا ما شاهدني في رفقتك !.. »

واطلعني صديقي على رسالة تهديد رديئة الخط ، ومذيلة باسم اسلامي وقال :

— « ربما كانت مداعبة سمجة .. »
فأجبته :
— « في مثل هذه الأمور لا يستطيع المرء أن يجزم ، وقد يكون من الافضل أن نفترق إلى حين . »
فقال ، وهو يبتسم :
— « هذا سخف ، وان لبعض المخاطر طعماً ، ونكهة !.. »
وفي الغد ، تلقى رسالة تهديد جديدة ، تبعتها رسائل ... فاشترى مسدساً ، من قبيل الحيطة ، وظل يخرج معي ، ويصحبني إلى حيث نشاء .

ولست لأكتم إعجابي بشجاعة هذا الشاب ، لأنني أصبحت عصبية ، وكنت أعرف بالتجربة ، مبلغ تهور المتعصبين الدينيين .. ونزولاً عند طلبي ، وإلحاحي ، شكونا الامر إلى رجال الشرطة ، الذين أبدوا شكهم في ان يكون كاتب الرسائل مسلماً ...

وعلى أية حال ، فقد ضمن رجال الامن لنا حماية شديدة ، جعلت الذين كتبوا هذه الرسائل يعدلون عن خططهم الاجرامية .

واستأجرت دارة بديعة في بستان يقع على مسافة ثلاثين دقيقة من روما .. وبينما كانت الآنسة ساغومول تعد الدارة ، وترتبها ، وتختار الخدم ، والعمال ، ذهبتُ لزيارة والدتي في « كابري » ، وقضاء عدة أيام في ضيافتها .. وقد جاء صديقي الايطالي لزيارتنا . وما ان وصل حتى راجت شائعة بأننا سنتزوج قريباً .

غير انه لم يمض على طلاقي أكثر من خمسة عشر شهراً ، ولم تكن آثار الصدمة قد زالت ، وتلاشت ... وحين تتلقى امرأة صدمة كهذه ، يزيد حذرها ، وتفكر مرتين قبل أن ترتبط من جديد .. وعلى ذلك ، فان كل ما روي عن مشاريع الزواج المزعوم كان سابقاً لأوانه .

وبعد ذلك بزمن وجد بعض الناس بالطبع أسباباً كثيرة لتفسير سبب اخفاق مشروع زواجي .. ومن هذه الاسباب التي زعموها تحريم الشاه ، واختلاف الاديان .

وإني لأبادر إلى القول ، انه لم يكن شيء من ذلك كله ، لا في هذه الحالة ، ولا في سواها ... أضف إلى هذا انني لم أكن مضطرة ، ولن أكون مضطرة أبداً إلى انتظار موافقة الشاه إذا ما صممت على الزواج .

وقضيت في روما صيفاً حافلاً بالسعادة ، والمتعة ، ولما كانت والدتي تعتزم العودة إلى « كولوني» ، دعوت لزيارتي عدداً من الاصدقاء .

وقد جاءت لزيارتي من « شيلي» خالتي ، التي لم أكن قد عرفتها من قبل ، وسررت سروراً كبيراً .. وقد تآلفنا بسرعة ، كما لو اننا عشنا معاً منذ زمن بعيد .

وجاءت لزيارتي كذلك صديقات الدراسة : « واندا» من اثينا ، و « ماريا انطونيا» من لشبونة ، لتمضيا بضعة أسابيع في ضيافتي ... وكنا نمارس السباحة ، وسائر أنواع الرياضة ، ونقوم برحلات ونزهات في الضواحي المجاورة لدارتي .

غير ان الصحافة لم تتركني وشأني . وحتى في هذه القرية النائية ، لم أنج من فضول المصورين الصحفيين ، ومطاردتهم المستمرة . ولما كانت دارتي غير مسوّرة ، ولا يفصلها عن المنازل المجاورة سور من الاشجار ، أو النباتات ، فقد لجأ المصورون إلى الاختباء بين هذه الاشجار ، والنباتات ، وآلات التصوير ذات العدسات المكبرة ، في أيديهم .

وفي أحد الايام ، التقطوا لي صوراً ، وأنا بملابس الاستحمام ، وظهرت هذه الصور ، بعد ذلك ، في الصحف تحت عنوان :

« ثريا تستقبل بملابس الاستحمام » .. كما لو انني دعوت هؤلاء المصورين الصحفيين لزيارتي ، وأنا في هذا الهندام ؟..

ولما حرت في أمري ، طلبت إلى مدير شرطة الحي الذي أسكنه أن يحميني من المصورين ، فأرسل إليّ بعض رجاله ، الذين أبعدوا جميع الاشخاص غير المرغوب فيهم عن دارتي ، وحتى في الليل كانت تمر دورية مسلحة حيناً بعد حين .

وأسوأ من ذلك ان إحدى صحف روما وجدت في حياتي الهادئة آنذاك مادة لمقال مثير ، زعمت فيه انني ابتعدت عن المجتمع لأنني كنت أعاني كآبة عميقة ، ولم تكتفِ بذلك ، بل زعمت بأنني حاولت الانتحار ، بسبب حب عنيف .

والحقيقة انني ما شعرت من قبل بالراحة ، والسعادة ، كما شعرت بهما في هذا الصيف الجميل ، واتخذت علاقاتي بصديقي الايطالي الساحر طابع الصداقة الدائمة .

وحلّ شهر آب ، وأصبح الحر في روما خانقاً ، لا يطاق ، ولذلك ذهبتُ ووالدتي لقضاء أسبوعين في « نوردويك » ، ومن هناك صحبتها إلى « كولوني» .

وسألت والدي ووالدتي ما إذا كانا سيستقران في ايطاليا ، ولكن بما ان والدي كان سفيراً لايران مدة عامين ، ويرغب بالاستمرار في وظيفته ، بالمانيا ، لم يكن ذلك ممكناً بأية حال .

وشعرت في ايطاليا بالحنين إلى والدي ووالدتي ، وبعد حوار طويل ، قررت أن أستقر في المانيا .

وفي طريقي من ايطاليا عرجت على مدينة « ميونيخ » ، وأخذت أبحث عن منزل ، فقد كانت هذه المدينة بالنسبة إليّ مكاناً وسطاً ، يرضي نزعاتي الداخلية ، التي تستمد مصادرها من ميولي إلى شمال أوروبا ، وإلى وسطها .

وحين ذهبت إلى «سان موريتز» في عيد الميلاد عام ١٩٥٩ ، لامتع النفس بالترلج على الجليد ، ومفاتن «انفادين» ، تتبع آثاري المخبرون الصحفيون «المختصون بثريا» .

وما ان ظهرت في مجتمع «سان موريتز» ، حتى كان المخبرون الصحفيون في أعقابي كالمرصاد ، وما ان امارس التزلج ، أو الرقص مع شاب من الشبان ، عدة مرات ، حتى تجعله الصحافة خطيبي .

وقد جعلني هذا الوضع أفكر في سؤال طرح علي أخيراً ، وهو : كيف أتصور زوج المستقبل ؟ ويلوح ان هذا السؤال ، وكأنه ينسب إلي مثلاً أعلى ، أفضل به اناساً ، وأقربهم ، وأنبذ به اناساً ، وابعدهم . والحقيقة ان ذلك ليس في طبعي ، وما أحسب ان المرء يستطيع أن يجد السعادة بهذه الطريقة النظرية .. ويقيني ان ذلك من صفات ومزايا الشباب ، التي تشبه أحلام اليقظة ، وتدفع إلى رسم صورة زوج المستقبل .

ولا بد لمن تغريه أحلام اليقظة هذه من ان يتبين ، مع الايام ، ان الحياة لا تسير في هذا المجرى ، فللقدر خيال ، يختلف عن خيال الانسان ، وقد يكون أفضل ، وأصدق ، من خيال الانسان ..

وهناك عدد لا يحصى من النساء اللواتي يجدن السعادة مع رجل لا تنطبق صفاته على صفات فتى الاحلام ، ولو انهن وجدن فتى الاحلام ، فربما كن قد شقين بصحبته ، وبالزواج منه .. ذلك ان الرغبات تخدع أحياناً صاحبها ، عما يريده فعلاً ، وعما يتمناه .

ولاريب في انني قادرة ككل امرأة على ان أعدد بعض الصفات التي يجب أن يتحلى بها الرجل ، ومنها : الشجاعة .. غير انني أعلم علم اليقين ان أكثر من امرأة صادفت رجلاً لم يتعرف بعد على الشجاعة

في نفسه ، أو أضاعها مؤقتاً ، فأحبته ، لأنها تشعر بأنها ستكون له نعم العون ، والنصير .

وكذلك شأن جميع المزايا المرجوة .. وفي أكثر الاحيان يلعب فقدان هذه المزايا الدور الحاسم ، أكثر من توفرها ... ولا تبقى إلا بعض القيم الاساسية ، التي لا قيام لعلاقة صادقة بدونها ... وقد لا يكون هناك إلا صفة واحدة ، ألا وهي الاخلاص .. ويجب أن يتحلى المرء ، بشجاعة كبيرة ، ليعرف ما هو في الحقيقة . وانني لاشعر بالنفور من المنافقين ، والصاخبين ، الطائشين .

ولم أصادف أبداً رجلاً ذكياً حقاً ، يعرض أعماله ويتباهى بها ، أو يفخر بمركزه ، وبما يشبه ذلك .

وقد يقال ان على الزوجين أن يتفقا على ملء أوقات الفراغ ، فللفراغ دور كبير في تفاهم الشريكين ، وانسجامهما ، وذلك ما لا سبيل إلى انكاره ... ومن ناحية ثانية تجد ان نساء عديدات لا يتعرفن على أية عواطف ، أو ميول ، إلا حباً بأزواجهن ، فيندفعن فيها بصدق ، وحرارة . ويقيني ان زوجي لو شاء أن يجمع الحشرات كالجعلان ، والصراصير ، وما اليها ، لأصبحت هذه الهواية في نظري ، أفضل الهوايات ، وأكثر اثارة ومتعة .

ومثل ذلك في الجمال والمتعة : أن يمضي الزوج في البحث عن الحشرات .. وان تمارس الزوجة التزلج على الماء .. ويعجبني دائماً الزوجان ، اللذان يتبادلان الاحترام ، ويترك واحدهما الحرية للآخر ... وذلك شيء غير اتفاق الاذواق ، ولكنه ليس اسوأ منه على أية حال .

وفي رأيي ان الزوج يمكن أن يتصف بجميع الصفات ، السيئة والحسنة ، الا أن يكون غير صالح لأي عمل !.. والواجب الاول ، المفروض علي ، واجب الانثى الخالد ، أن أحبه .

ولكن فلنعد إلى قصتي .

كان المجتمع الأوروبي الحديث يهتم بحياتي كامبراطورة سابقة ، وكنت أشعر ان انهياراً في القيم الاخلاقية ، يحدث في هذه الاوساط ، ويؤثر كذلك على قيمي ، ومفاهيمي الشخصية .

وقد افتقرت أسر كثيرة من طبقة النبلاء ، بعد الحربين العالميتين .. وصعب على الاجيال القديمة أن تواجه هذا الواقع .

وهؤلاء الناس ما زالوا يعيشون في قصور أصبحت الاقامة فيها عبئاً عليهم ، ولكن يعزّ عليهم ، ويحزّ في نفوسهم ، أن يهجروا منازل الاجداد ... ويفضلون أن يغلقوا عدة أجنحة من قصورهم ، ويسكنوا بعض الغرف .

واشهد بأنني كنت دوماً أعجب بابائهم ، الذين يستعينون به في محاولتهم الاحتفاظ بالتقاليد القديمة الموروثة .

ومقابل ذلك كان هناك تطور ، وتبدّل ، أخذا يظهران في الجيل الناشئ ، وعلى الاخص في المانيا ، وفي ايطاليا .. حيث تجد اناساً عديدين لهم أسماء وألقاب كبيرة ، يعملون في المهن المختلفة ، وهو أمر طبيعي .

حتى انك لتجد أفراد أسر مالكة ، سابقة ، يسهمون في زوال النظم ، والمقومات الاجتماعية ، وتلاشيها ... وليس من الصدفة أن تجد ، أمراء أو أميرات ، يجري في عروقهم الدم الازرق ، دم النبلاء ، والملوك ، في انكلترا ، وهولندا ، والسويد ، والنرويج ، يختارون أزواجاً ، أو زوجات لهم ، من أوساط البورجوازية .

وفي هذا المجال ترك مثال اميركا أبلغ الاثر في نفسي ... فلقد تبينت بوضوح ان هذه البلاد تؤثر ، تأثيراً كبيراً ، في تطور المجتمع الأوروبي الحديث ، ذلك ان الكفاءات والمواهب الشخصية ، في العالم

الجديد تلعب دوراً حاسماً ، كما تجد العمل محترماً إلى أبعد حدود الاحترام .

وكنت منذ زيارتي الاولى لاميركا ، بصحبة الشاة ، أتحرق شوقاً لزيارتها ، كمواطنة عادية .. وقد سنحت لي الفرصة من حيث لم أكن أتوقع ... فبعد عودتي من ايطاليا ، وجدت قصراً في « ميونيخ » يكاد يكون القصر الذي أتمنى ، وكان عيبه الوحيد أن بناءه لم يتمّ ، وكان عليّ أن أنتظر ، ستة شهور ، قبل أن أقيم فيه .

وكنت أقطع هذه الفترة من الانتظار بالاسفار ، وقد حثني أصدقاء لي في مدريد بالسفر إلى « اشبيلية » لحضور عيدها ، وكانت جماعتنا مؤلفة من : السفير الاميركي جون لود ، وزوجته ، والزوجان الاسبانيان — الكاليفورنيان ديل آمو ، وبعض الاميركيين ، وتاجر اسباني حسن المظهر .

وقد قضيت عدة أيام مع هذا التاجر ، حتى فوجئت في أحد الايام ببرقيات يتناقلها العالم بأنني أعتزم الاقامة في اسبانيا ، وأتزوج هذا التاجر وأساعده في غرس النخيل ...

وكان مصدر هذه الشائعة ، التي لا تستند إلى أي أساس من الحقيقة ، ان هذا الرجل كان عازباً ، وانه كان يمارس معي رياضة التزلج على الماء ... وما عدا ذلك لم تكن بيننا أية صلة ، الا اننا ننتمي كلانا إلى جماعة واحدة من الاصدقاء .

وفي أحد الأيام قالت لي السيدة « جان ديل آمو » :

— « انني وزوجي ذاهبان في الخريف إلى كاليفورنيا .. فهل لكِ أن ترافقينا في هذه الرحلة يا صاحبة السمو ؟.. فاننا سوف نجعلكِ تزورين الاماكن الاثرية لدينا ، وتتعرفين بعدد كبير من الاصدقاء الطيبين . »

ولما كنت أحب « جان » ، وأميل إليها ، فقد قبلت دعوتها ، دون تردد .. فأمضيت الصيف في اليونان ، وفي « بورتو فينو » ، و « مونت كارلو » . وفي أواخر خريف عام ١٩٦٠ ، ركبت الطائرة متوجهة إلى لوس انجلوس .

وأتاحت لي هذه الرحلة أن أكتشف امبركا من جديد .. فحين زرتها ، وكنت امبراطورة ، لم يتيسّر لي أن أشاهد ، إلا ما كان يريد الادلاء الرسميون أن أشاهد .. وها قد واتاني الحظ ، لأن أتجوّل بنفسي ، وأراقب بنفسي الحياة ، والاحياء ، في العالم الجديد .

ونزلت مع الزوجين « ديل آمو » في فندق « بيل آر » ، وأدخلتني « جان » في مجموعة من الاصدقاء ... وكنت أصادف ، أحياناً كثيرة ، أسر : كوتونز ، وميلنرز ، وبرانديس ، وزوجات الاشقاء « هيرست » .

وكان جميع هؤلاء يسكنون قصوراً باذخة ، فيها مسابح ، وملاعب للتنس .. وكثيرون منهم كانوا يملكون مزارع في الريف ، كنا نذهب اليها ، فنركب الخيل ، ونصطاد في نهاية الاسبوع .. وما أعجبني أكثر من سواه ، المناخ ، والضيافة المثالية التي أحاطني بها أصدقائي ... وقد كانوا فخورين ببلادهم المشمسة ، وما فيها من طرائف . وكانوا يعنون بي ، ويحرصون على راحتي ، من الصباح ، حتى المساء .. وكانوا يصحبونني إلى استديوهات السينما ، ولاس فيغاس ، وفي ركوب الخيل ، وسائر أنواع الرياضة .

ومع ذلك لم يكونوا يدللونني بشكل خاص ، وكنت أشعر بأنهم يعاملون أي ضيف حلّ بينهم المعاملة نفسها ... وكانوا في وجودي يتصرفون على سجيتهم ، بعفوية ، وبساطة ، مما جلب لي السعادة ، بأنني أصبحت أعامل من الناس معاملة المرأة العادية .

ولم يكن في مجموعة أصدقائي أية نجمة سينمائية ، ذلك لأن نجوم السينما – كما قيل لي – يحيون حياة مختلفة كل الاختلاف .

ومن ذلك ان عليهن ان يذهبن إلى الاستديو منذ الساعة السابعة صباحاً ، ويعدنَ منه متأخرات بعد الظهر ... انهما عالمان متباينان ، ولكن ذلك لا يعني ان ليس هناك أية صلة بينهما ، وكان كثيرون من الممثلين البارزين يدعون إلى سهرات عديدة . وقد قدمت إليّ واحدة من الممثلات ، اشتهرت بأفلامها التلفيزيونية ، في مزرعة صديقتي « فرجينيا ميلنر » .

ومن عادات تلك البلاد أن لا تخرج المرأة وحدها أبداً ، وكان يرافقني ممثل شاب ، رياضي الجسم ، قوي البنية ، حتى ان المرء يشعر في صحبته بالامان ، والاطمئنان ، ويثق بأنه أسرع في اطلاق النار من أي شرير ، أو لص .

وكانت لهذا الشاب شعبية كبيرة ، حتى ان الانظار كانت تتجه اليه ، إذا ما دخلنا مكاناً عاماً . وكنت أجد الراحة في ذلك .. إذ ان الانظار تتحول عني .

غير انه ، كما روى لي هو نفسه ، ناضل سنوات كثيرة ، قبل أن يصبح معبود الشباب ، كراعي بقر ، في سلسلة من المغامرات .

وفي آذار من عام ١٩٦١ ، جاء هذا الشاب إلى أوروبا ، ليبيع أفلامه التلفزيونية ، وزارني في « كيتزبوهل » .. وقد فسّر الناس زيارته هذه ، بأن هناك مشروعاً بيننا ندبره في الخفاء ، ولكنه لم يكن بالنسبة إليّ سوى صديق جميل الصحبة .

وفي خريف عام ١٩٦١ عدت إلى الولايات المتحدة بدعوة من صديقتي « روت كوتون » ، وكانت قد فقدت زوجها ، ورجتني أن أمضي معها عدة أسابيع بدارتها في « بالم سبرنغز » .

وفي مساء أحد الايام زارني « فرانك سيناترا » .. وكان في

طريقه إلى « لاس فيغاس » ، وعرض عليّ أن أرافقه في طائرته الخاصة .

واعتذرت عن عدم قبول دعوته هذه ، لأنني كنت على أحسن حال في « بالم سبرنغز » .

وسيناترا شخصية قوية غير عادية ، وله تصرف كثير البساطة ، والعفوية ، وهو ظريف ، ظرفه في أفلامه ... وعلى نقيض كثيرين من النجوم الذين يخيب أمل المرء إذا ما اجتمع بهم ، فأنه ينجح في ترك أثر بالوسط الذي يتردد اليه وخاصة النساء ، ويعود ذلك إلى نظراته الحادة ، إلى أقصى حد .

وكان « غاري غرانت » يأتي لزيارتنا أحياناً كثيرة كمدعو ، وكنا نركب الخيل معاً ، ونذهب للنزهة ، والتريض ... وكان غرانت خلافاً لسيناترا ، فيلسوفاً هادئاً ، وأظن انه في أعماق نفسه ميال إلى الوحدة. وقد ابتكر طريقة لتنويم نفسه مغناطيسياً ، ويرى ان هذه الطريقة تجعله محتفظاً بشبابه .

ورغم الجهود التي بذلها ليعلمني طريقته هذه ، لم أنجح لسوء الطالع في ممارستها .

وفي الاشهر التي تلت كنت أعمل دون كلل ، ولا انقطاع في كتابة مذكراتي هذه ، ثم ذهبت إلى جزر اليونان مع صديقتي « واندا نيقولودس » و « هيلينا تسوغلوس » .

وفي أحد الايام كنا نجلس في مقهى ميناء « ميكونوس » ، وإذا بيخت المطالب بعرش اسبانيا ، دون جوان ، يرسو في الميناء .. وكان يقوم بعد زواج ابنه بالاميرة صوفيا اليونانية بجولة سياحية في الجزر اليونانية .

وكان رجل الاعمال الذي عرفته في « اشبيلية » في حاشية « دون جوان » ، وحين وقع نظره علينا حيّانا ، وجاء فجلس إلى طاولتنا

بعض الوقت ... ثم استقل الجميع اليخت ، وواصلوا رحلتهم ... غير ان الصحف العالمية كانت في اليوم التالي تخرج بأخبار عن « الاسباني السري » ، الذي لاحقني حتى مياه شرق البحر الابيض المتوسط !..

وبعد ذلك ، وفي الصيف ، قررت أن أمضي عدة أسابيع في « سان تروبيز » ، بصحبة صديقتي « غلوريا » بنت « ماسوسان » ناشر الصحف الايرانية . ولم أكن أعرف هذا المكان ، إلا معرفة غامضة ، وكنت أود أن أعرف لماذا يجذب هذا العدد الكبير من الفنانين الكبار .

ولما كان متعذراً أن أحجز غرفاً ، وأنا في « ميونيخ » ، فقد رجوت أحد الاصدقاء أن يفعل ذلك ... ويلوح ان هذا الصَديق قد فسّر هذا الطلب تفسيراً خاطئاً ، ذلك انه بعد ذلك بقليل ، صرح في زهو ، لإحدى الصحف ، بأنه كان على موعد معي في « سان تروبيز » !..

وحين سُئل عما إذا كانت هناك علاقات عاطفية بيني وبينه ، تصنّع لياقة ، وأدب الرجل ، الذي لا يجيب على مثل هذه الاسئلة . وبتصريحه هذا اجتذب إلى الشاطئ اللازوردي عدداً من المخبرين الصحفيين ، الذين عُهد اليهم بتتبع قصة غرامنا المزعومة ... ولما لم يروا شيئاً من هذا ، أخذوا يبحثون في إلحاح ، عن قصة مثيرة أخرى .

وتصدى لمعونة المخبرين الصحفيين ، رجل يحسب انه على اطلاع وأفضى اليهم بسر حياتي ، وزعم بأنني أحبّ حباً جارفاً ، رجلاً متزوجاً ، وانني لم آتِ إلى « سان تروبيز » إلاّ لألقاه خفية ... وقد تأثرت لهذه القصة العاطفية ، وساءني انها كانت جديدة بالنسبة إليّ !..

غير ان شهية طلاب الاثارة ، والمغامرات العاطفية ، لا ترتوي ، ولا تعرف الحدود ... فلما وجدوا انني لم « أقدّم اليهم » أية فضيحة ترضي هوايتهم ، اخترعوا فضيحة ، وزعموا انني كنت بجانب أحد رجال الصناعة الالمان ، في سيارته ، حين أوقفه رجال الشرطة لسرعته ، وبعثوا إلى جميع أنحاء العالم ببرقيات مختلفة ، بينما كنت في الحقيقة ، وفي نفس الوقت، على شاطئ « مورين » أعرض جسمي للشمس .

واني ، وأنا أكتب هذه الكلمات ، ما زلت أذكر السؤال الذي قد يطرح هنا وهو : « لماذا ذهبتِ إلى « سان تروبيز » ، ما دمت تتجنبين الحديث عنكِ ، وتخشين الشائعات ؟ »

وأبادر إلى القول ان المكان الذي يذهب اليه المرء لا أهمية له بالنسبة للذين يريدون نشر الشائعات ، واختلاق الاكاذيب .. وفي فصل الصيف ، يعلن المخبرون عن المكان الذي سوف يمضي فيه كل شخص بارز اجازته ، ويلتقطون الصور ، من زوايا خفية ، سواء كان هذا الشخص البارز الملكة جوليانا ، أم ونستون تشرشل ، أم أحد نجوم السينما .

وكما أسلفت ، لم يحمني لجوئي في الجزر اليونانية من مروّجي الشائعات ، وكان يتساوى في هذا المجال المكان المعروف ، والمكان المتواضع المغمور . وقد وجدت ان « سان تروبيز » مكان بريئ ، على النقيض مما شاع عنه .. فعند الظهر كنا نذهب إلى الشاطئ ، ونمارس التزلج على الماء ، أو نعرض أجسامنا للشمس ، فإذا ما حل المساء كنا نتناول طعام العشاء ، في الهواء الطلق ، في ساحة « بوندو » عند الميناء .. وحين كنا نشعر بالنشاط ، نذهب ونرقص بضع رقصات .

وقد تبعني إلى « كان » صديق قريب إلى قلبي ، ولم تلبث الصحف

حتى خرجت وفيهـا صور لنا ، ووصف لنا ، وحديث عنا ...
وحين التقينا بعد ذلك في «ميونيخ» ، تبيّن لنا اختلاف طباعنا ، الذي يبعد احتمال الزواج ... وكان في ذلك مادة جديـدة للصحف بنت عليها العناوين الرئيسية الكبيرة ، وحاكت حولها الافتراضات ، والتخمينات المختلفة ، التي لا تعرف الحدود ، والتي تجاوزت كل تقدير .

وشعرت بانني مُطارَدة ، وان النـاس يتدخلون في صميم أفكاري، ومشاعري ... ولست أفهم ، لمـاذا يريد قراء الصحف أن يجدوا الطرافة ، والإثارة ، في أحـداث تقع يومياً ، وترافـق حيـاة الناس ؟.. ومن الذي يجد من غير المـألوف أن تألف امرأة رجلاً ، في أثناء إجازتها ، وان يتضح لهـا ، بعد ذلك ، ان الزواج ليس في مصلحتها ، فتعدل عنه ؟... ومن ذا الذي يستطيـع أن يزعم ، دون نفاق ، بأنه لا يعمد إلى ابحـاث ، وتجـارب ، في حيـاته الخاصة ؟..

وفي السنوات الـتي تلت زواجي ، صادفت بعض الرجال البارزين ، الذين كانوا مرشحين للزواج بي ، ولا أظن ان لذلك شأناً وخطراً .

وكانت الصحافة تقدم المـادة المثيرة ، وتختلقها اختلاقـاً ، وهذا النقص في الشعور بالمسؤوليـة ، لم أستطع فهمه . ولو انني كنت مخبرة صحفية ، لمـا كتبت إلا مـا أعرفه معرفة اليقين .. وقد يكون عليّ ، في هذه الحال ، أن أطلق المهنة ، ذلك لأننا نادراً ما نعلم بدقة مـا يحدث بـين انسانين ، حتى في أقرب محيط لنا . ولكنني وان كنت على اطلاع واسع ، فانني أقتصد في الحديث ، لأنني أعتقد بأن التدخل في شؤون النـاس الشخصية وصمة لحضارتنا ...
ذلك لأن حيـاة المرء ليست مِلْكاً عاماً ، كما هو حال السياسة ،

والاقتصاد ، أو الجرائم ... وانني لأشعر بالسخط ، كلما وقع تدخل في الحياة الشخصية لبعض الاشخاص السيئي الحظوظ ، كالاسرة المالكة في انكلترا ، وفي بلجيكا ، وأشعر كذلك بالعطف على هؤلاء الضحايا .

ومن بين آمالي في المستقبل ، أن يتاح للشعور باللياقة ، والكرامة ، أن ينمو في العالم ، بما يوفّر للناس الامن والاستقرار ، حتى النكرات من الناس .. وإذا ما كان في مذكراتي هذه ما يسهم في هذه الرسالة ، فان هذه المذكرات قد بلغت الهدف ، وحققت الغاية .

* * *

كلما مضيت في تسطير هذه المذكرات ، كنت أجد في هذا العمل نوعاً من التحرر ... ولاول مرة يخامرني الشعور بأنني قد تمكنت من التغلب على الماضي ، وأصبحت بذلك أمور كثيرة ، واضحة لي .

ويخامرني كذلك شبه شعور بأن حياتي الماضية ، أمامي اليوم ، وانها كتاب مفتوح بين يدي .. حياة فيها الكثير من اللحظات الجميلة والمواقف العسيرة كذلك ، وهي لحظات ومواقف لا أود أن أضيع منها شيئاً .

وما أحسب انني أبالغ حين ازعم بأن المواقف العسيرة ، وأوقات الحرج ، هي التي جعلتني ناضجة ، محنكة .

ولقد أصبحت أكثر ادراكاً للطريقة التي تتغير فيها الظروف الخارجية باستمرار — كما يعلم كثيرون من الناس في أيامنا هذه — وكذلك للطريقة التي يجري لنا ، وفينا ، ما يجري للشجرة الآخذة في النمو ، مع توالي فصول السنة ... وان المنظر الطبيعي

ليس على صورتنا ، ولكنه مسأله يجب علينا أن نحلها .

وفضلاً عن هذه الرغبة في ان أجد لوجودي معنى ، كان لدي سبب آخر لكتابة هذه المذكرات ، وهدف آخر .. فلقد كنت أود أن يراني الناس على حقيقتي ... ففي خلال سنوات مضت شوّهت صورتي صحف عديدة ، مما جعلني أحاول أن أرسم هنا صورة سليمة لنفسي ، ولشخصيتي .

واني لا أعتبر نفسي كشخصية مأساة « الاميرة ذات العينين الحزينتين » كما دعيت أحياناً كثيرة ، ولا كسائحة تطوف جوانب الارض ، باحثة عن اللذة .. انني بكل بساطة امرأة فتية كل ما ترجوه أن يكون لها ، كما لسائر النساء ، الحق في ان تكون لها حياة خاصة ، وان تكون آدمية كسائر الآدميين .

ومن أجل ذلك ، ولهذا السبب من عدة أسباب تمنيت دائماً أن أجد عملاً .. كما تمنيت أن يكون لي نشاط معقول ، فقد كان ذلك شأني دائماً حتى انني حين كنت امبراطورة ، كنت أعمل بانتظام عدة ساعات في اليوم .

ومن أجل ذلك حاولت أن أتعاون في عام ١٩٦١ مع صانع السيارات الانكليزي « يورك نوبل » ، ولم تنجح محاولتي ، ولكنني لم أكفّ عن البحث عن امكانية للنشاط الخلاّق .

وتبدت لي فرصة جديدة في كانون الاول من عام ١٩٦٢ وكنت في ضيافة صديقتي « فرجينيا ميلنر » في « بيفرلي هيلز » .. وفي مساء أحد الايام أقامت حفلة استقبال تكريماً لبعض الاصدقاء الجيران ، ومنهم عميلة هوليوود « مينا واليس » ، شقيقة منتج الافلام « هول واليس » .

وقد تحدثت وإياه عن قضايا السينما ، واقترحت عليّ السيدة « واليس » أن أحاول العمل في السينما .. فأجبتها بأنني تلقيت عدة عروض ، منذ طلاقي ، ولكنني رفضتها جميعاً .. فأبدت أسفها ،

وقالت :

— « إنني أشعر بأنكِ قادرة على النجاح ، والتفوق في هذا الميدان . »

ومن المنتجين الذين كانت لي بهم صلة « دينو لورانتيس » .. وكنا قد التقينا عدة مرات في روما ، ومونت كارلو ، وكان في كل مرة يلمح بأنه مستعد للتعاون معي ، حين أشاء .. وحين ذكرت اسمه قالت السيدة « واليس » :

— « ولكن « لورانتيس » في هوليوود اليوم ، فهل تسمحين لي يا سمو الاميرة أن أجمع بينكما ؟ »

جرى ذلك بعد عيد الميلاد ، في ختام اقامتي في كاليفورنيا ... وكنت عازمة على أن أركب الطائرة إلى أوروبا ، في الاسبوع التالي .

وعلمت بأن « لورانتيس » عازم على السفر إلى روما ، ولكن السيدة « واليس » تصرفت بحكمة ، فدعتنا ، بعد يومين ، أنا والمنتج « لورانتيس » .. وأصرّ عليّ ، أثناء الحديث ، من جديد أن نتعاون ...

كان قد مضى على مغادرتي طهران خمس سنوات ، وكنت قد تعبت من حياة المرأة ، العاطلة عن العمل ، وكان من آمالي أن أنجح في أي عمل فني ... ومن ناحية أخرى ، كنت أتجنّب أن ألقي بنفسي في مغامرة كهذه ، قبل أن تتوفر لي الضمانات الجدية ...

وسألت المنتج الايطالي :

— « ومن قال لك ان لي موهبة في هذا النوع من العمل ؟.. »

فأجابني :

— « ألا ترين ان ذلك يستحق التجربة ؟ »

واتفقنا على أن لا نتحدث في الامر ، قبل أن أقوم بتجربة أمـــام عدسات التصوير .

وبعد أسابيع من ذلك ، اتصل بي هاتفيـــاً من « ميونيـــخ » ، فقلت له :

— « انني أشترط أن يكون الأمر سراً ، وان لا يشيع قبل أن أعرف النتائج ، وأوافق عليها . »

ورضي « لورانتيس » هذا الشرط كتابياً .. ووعد بأن تتلف الافلام التجريبية ، وان تظل التجربة سراً مكتوماً بيننا ، إذا لم نرض كلانا عنها .

وفي ١٢ آذار من عام ١٩٦٢ ذهبنا ، والدتي وأنا ، إلى روما ، واتخذت احتياطات كبيرة ، لإخفاء الغاية من زيارتنا هذه .

ومن عادة « لورانتيس » انه يدع هذا النوع من العمل للمخرجين ، ولكنه قرر ان يشرف على تجربتي بنفسه ، ليس في مدينة السينما ، ولكن في استديو صغير خاص ، يقع في حي منعزل ، من أحياء المدينة .

وزيادة في الكتمان ، والتحفظ ، قررنا ان نعمل ليلاً .. وفي إحدى الليالي ، عند الساعة التاسعة ، أقسم « لورانتيس » ، وبعض الفنيين ، على الكتمان .. وذهبنا ، والدتي وأنا ، إلى الاستديو الصغير ، لنحضر اجتماعاً من أكثر الاجتماعات تخفياً ، التي شهدتهـا روما ، منذ عهد الدهاليز !..

وقام اثنان من خبراء الماكياج بمهمتهما ، وهيأ خبراء الاضـــاءة أنفسهم ، وكان كل شيء جاهزاً للتجربة في الساعة الحادية عشرة ...

وكان أول مشهد لمحادثة تليفونية ، ولم يفرض عليّ « لورانتيس » أي نص لهذه المحادثة ، وترك لي حرية الحديث بما أشاء .. ولم تكن المهمة صعبة عليّ ، لأنني كنت قد ألِفت المحادثات الهاتفية الدراماتيكية في

حياتي الواقعية .

ودامت التجارب حتى الساعة الثالثة صباحاً ، وتمّ تصوير عدة مشاهد بالاسود ، والابيض ، وبالالوان .. وأخضعني « لورانتيس » بعد ذلك لتجربة « المشروع الاكبر » لمدة عشرين دقيقة .

وروي لي ان قليلين من نجوم السينما ، يطيقون هذا النوع من التعذيب أكثر من عشر دقائق ، في أقصى حد .

ولما عدنا إلى الفندق كنت متهافتة ، منهوكة القوى ، وذلك في حين أمضى الفنيون الليل كله في اخراج اشرطة التجارب .. وكان ذلك حدثاً فريداً ، لا سوابق له في روما ، وكان الجميع يتلهفون لمعرفة نتيجته .

وبعد ظهر اليوم التالي تقدم إليّ « لورانتيس » في صالة العرض ، مشرق الوجه ، متفتح الاسارير ، وكان قد ألقى نظرة على أشرطة التجربة ، فأعجبته ، وأثلجت صدره .

واعترف بأنني أحسست بصدمة خفيفة ، حين ساد الظلام الصالة ، وظهرت صورتي على الشاشة .. وكما ذكرت في مذكراتي هذه ، كانت واجباتي كأمبراطورة قد اضطرتني إلى أن أقوم بدور ، ولكنه دور يختلف عن دوري هذا كل الاختلاف .

وقد صعب عليّ في بادئ الامر ان أوفق بين شخصيتي ، وشخصية المرأة الفتية ، التي تظهر صورتها على الشاشة ، ولكنني توصلت إلى ذلك بعد لحظات .

ومع انني شعرت بأنني لم أبلغ درجة الكمال في التمثيل ، غير ان شعوري العام كان أفضل مما كنت أتوقع ، وأبديت لـ « لورانتيس » رغبتي في الاتفاق .

وقال لي « لورانتيس » :

— « القضية الآن هي ان نعلم كم نستطيع أن نبقي الامر سراً ...

ففي بلد مثل روما ، يتميّز أهله بالفضول ، يمكن للسر أن يتسرب ، ويشيع . »

وكان أخطر ما في الامر ، أن تعمد الصحافة ، في جهلها للوقائع الصحيحة ، إلى نشر افتراضات مختلقة ، وتشوّه القضية بكاملها ، وتشوّه معالمها ... وعلى ذلك ، فقد قررنا ان من الحكمة ان نعقد مؤتمراً صحفياً ، نقدّم فيه للناس ، بياناً صادقاً لما تمّ .

وفي خلال الاسابيع التي تلت ، وضعت أنا و « لورانتيس » ، في عناية شروط العقد ، وبنوده ، ومن هذه الشروط أن لا تلتقط مناظر الفيلم الذي أقوم بدور البطولة فيه ، قبل نهاية عام ١٩٦٢ .. وكانت عدة مواضيع جاهزة ، ولكن يترك لي الخيار بين ثلاث قصص « سيناريو » على الاقل ، وضعت بحيث تلائم شخصيتي .. وترك لي كذلك أمر اختيار مخرج الفيلم ، وزملائي في التمثيل .

وإذا ما بدا لي ان مشهداً من المشاهد غير مناسب ، لا أكون مضطرة لتمثيله ، ولا يعني ذلك انني كنت أعتزم تحديد امكاناتي كممثلة ، وكنت مستعدة لأقوم بدور امرأة عصرية في باريس ، ولندن ، وروما ، استعدادي للقيام بدور شخصية تاريخية .

غير ان كل شيء يجب أن يُجنّد بما يضمن للفيلم الذي أمثّله ، الاتقان الفني التام ... وانني لم أكن ممثلة ناشئة ، بل امرأة ناضجة ، وسأبذل غاية جهدي لأصبح ممثلة دراماتيكية ناجحة .

وسيكون الفيلم ناطقاً بالانكليزية ، ولن اتخذ أي اسم مستعار ، بل سيكون اسمي ثريا ... ولا يسعني أن أقدّم برهاناً أفضل من ذلك ، على انني أزج بشخصي في هذه المهنة الجديدة ، وان جهدي سيكون صادقاً .

ومع ذلك ، فإن بعض الاشخاص ، كما يبدو ، يعتقدون بأن

هذا النوع من العمل لا يليق بي ، وبماضيّ ، كامبراطورة سابقة لايران ، ولست أوافقهم على ذلك .. لأن العمل إذا ما أنجز بشرف ، لا يحطّ من قيمة صاحبه ، بل على نقيض ذلك ، يشرّفه ، ويرفع قدره ... وان زوج أميرة بريطانية مصوّر بارز ، وهناك أحد أفراد الاسرة المالكة في انكلترا يُخرج الاوبرات على المسارح ، وهناك عدة ملكات ، أصبحنَ كاتبات شهيرات ، كما ان هناك ملكاً سابقاً ، يكسب قوته ببيع نماذج طائرات ... وعلى هذا ، كيف أخجل ، أنا المرأة الفتية ، التي تتمتّع بصحة ممتازة ، من العمل في مهنة فنية .

وهناك أشخاص آخرون ، ومنهم المنتقدون ، قد وجدوا من الحكمة أن ينذروني بأنني إذا اخترت التمثيل ، أصبحت فريسة للدعاية التي كنت دائماً أفرّ منها .. وجوابي على ذلك ان وضعي لن يكون أسوأ مما كان حتى اليوم .

* * *

وكما رويت في بداية مذكراتي ، طاردتني إحدى الصحف ، منذ خمسة أعوام ، وما زالت .. وبما انه يلوح انني قد كُتِب عليّ أن أظل تحت الاضواء ، فلماذا لا أستفيد من ذلك في اداء عمل بنّاء ؟

ومن ناحية ثانية ، تنفق هوليوود عموماً على حماية ممثلاتها ، أكثر مما أفعل لو كنت بمفردي ... وإني لأجرؤ على الامل ، ان محرري الصحف ، الذين كانوا حتى اليوم يحاولون التدخل في حياتي الخاصة ، يرغبون الآن في أن يحققوا معي حول عملي ، ومشاريعي للمستقبل .

ولا يعني ذلك انني أصبحت مغرورة .. والحقيقة انني لم أشعر

أبداً بالدنو ، والقرب من الناس ، شعوري اليوم .. فلقد تعلمت فن السعادة ، وانني لأسرّ ، كلما أتيح لي ان أسهم بتواضع في سعادة أي انسان .

وأعتقد بأن الذي يحسب نفسه شقياً هو انسان ضعيف ، لا يدرك ان كل حياة مهما كانت عسيرة ، حافلة بالفرص .

وقد اكتشفت جميع الافراح الصغيرة في الحياة ، وهي أفراح كثيرة : نزهة ، اناء أزهار ، الريح فوق الامواج ، حوار بين صديقين حميمين .. وانني أحب السفر إلى بلدان أجهلها ، وأحب الرياضة لأنها تتطلب التركيز ، والمرونة والبراعة ، وأحب قراءة الكتب الرصينة ، والقصص البوليسية كذلك .. والحقيقة ان في كل شيء متعة ، وأستطيع القول ان الانسان لا يحيا حقاً إلا إذا كان متفتحاً لجميع المشاعر ، مستعداً للضحك حين يجب .

وكل ما أتمناه فهم الناس لهذه الرغبة التي أبديها في التمتع بالحياة على هذا الشكل ... وهل يجب أن يكون الانسان جدياً مترمتاً في جميع المناسبات لكي يعتبره الناس انساناً ؟.. وانني لأجد ان الرصانة ، والفرحة ، ضروريتان معاً ... وانني لأواجه المستقبل بثقة ، ومتعة ، مهما كان ، وأجد الكون جميلاً من جديد ، بفضل الخالق ... وان كل انسان يجب أن يكون حراً ليفيد من ذلك .

فهرست

مذكرات ثريا





ثريا في طفولتها



ريا تلقي
النظرة الاخيرة على مذكراتها
قبل ارسالها للنشر

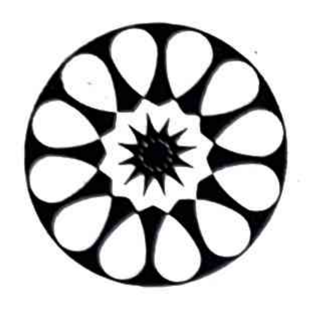






العروسان في احتفال عقد القران





الشاه وثريا
في حفلة الاستقبال فــي قصر
« جولستان »

العروسان في احتفال عقد القران

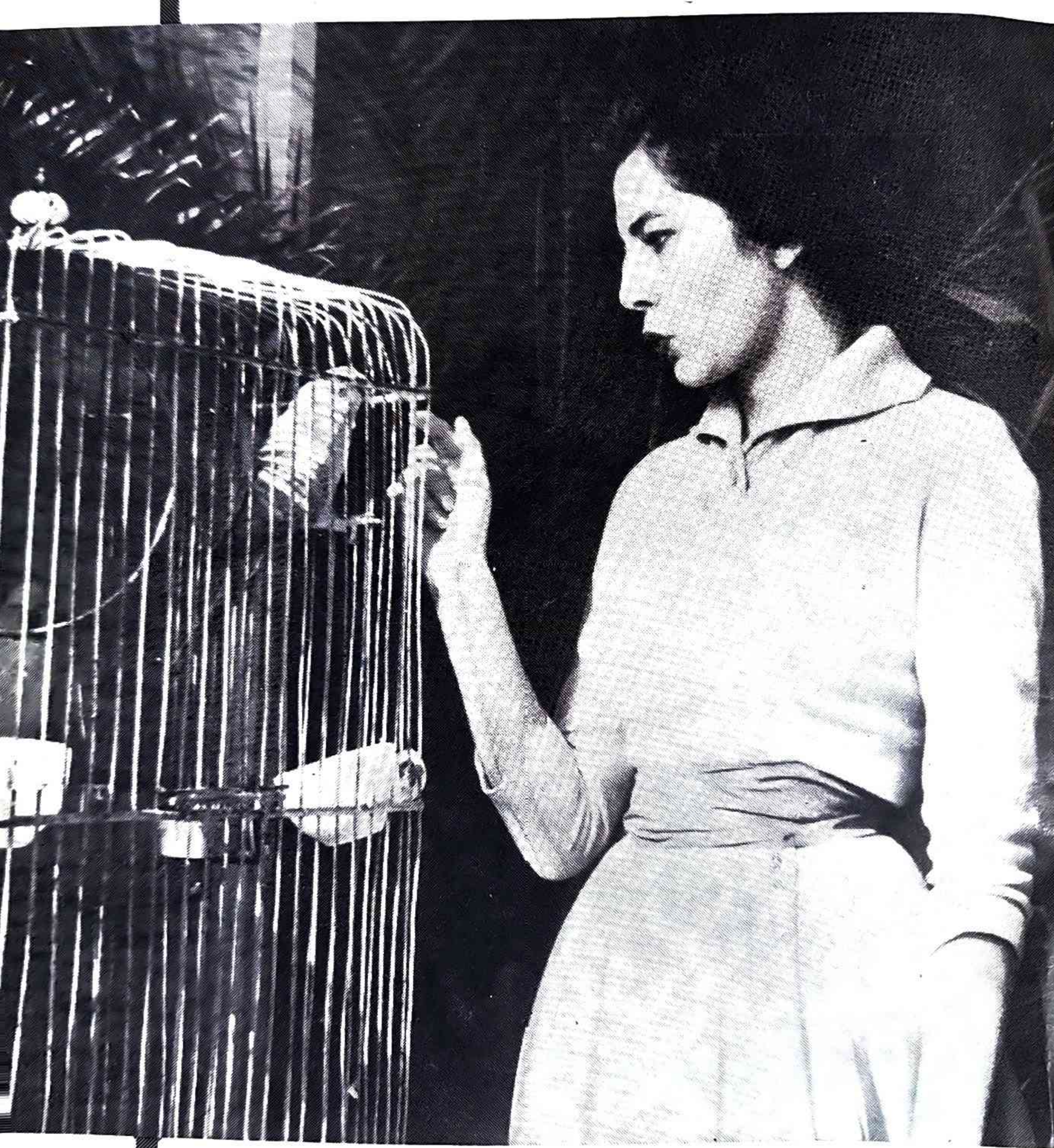
ثريا

بين ابويها عام ١٩٣٤



جد ثريا

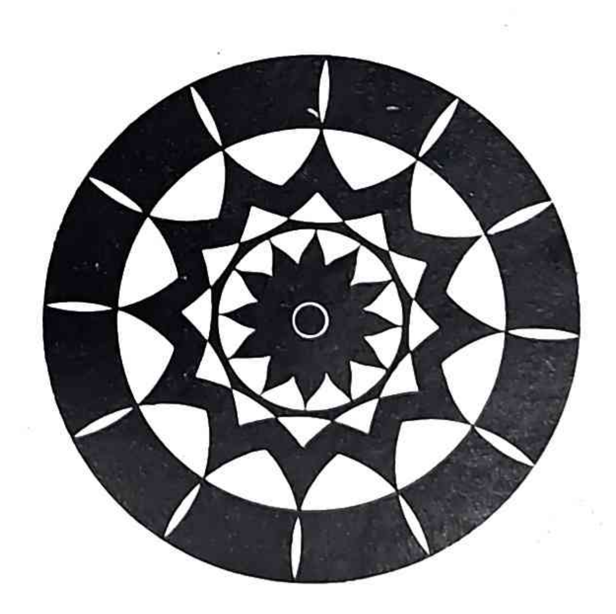
المتوفى عام ١٨٦٠

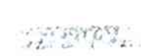


ثريا تناغي طيرها الجميل



الشاه يشعل السيكارة لثريا اثناء زيارتهما للهند







الامبراطوران في احدى النزهات فـي الريف الايراني

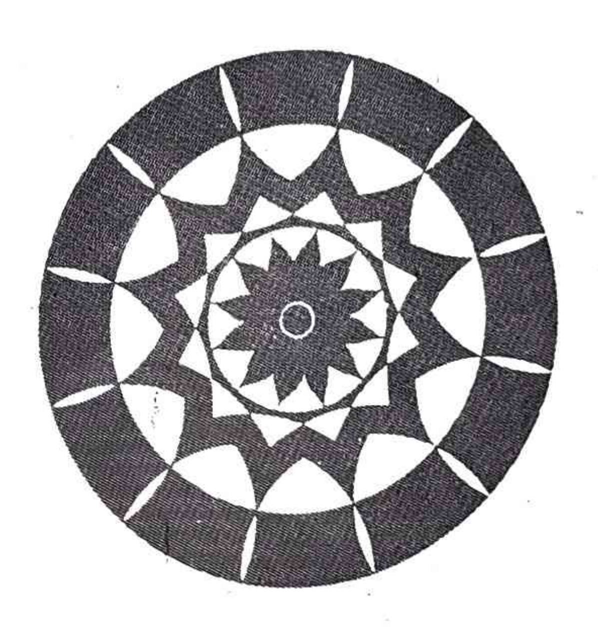


العروسان في الثياب الرسمية



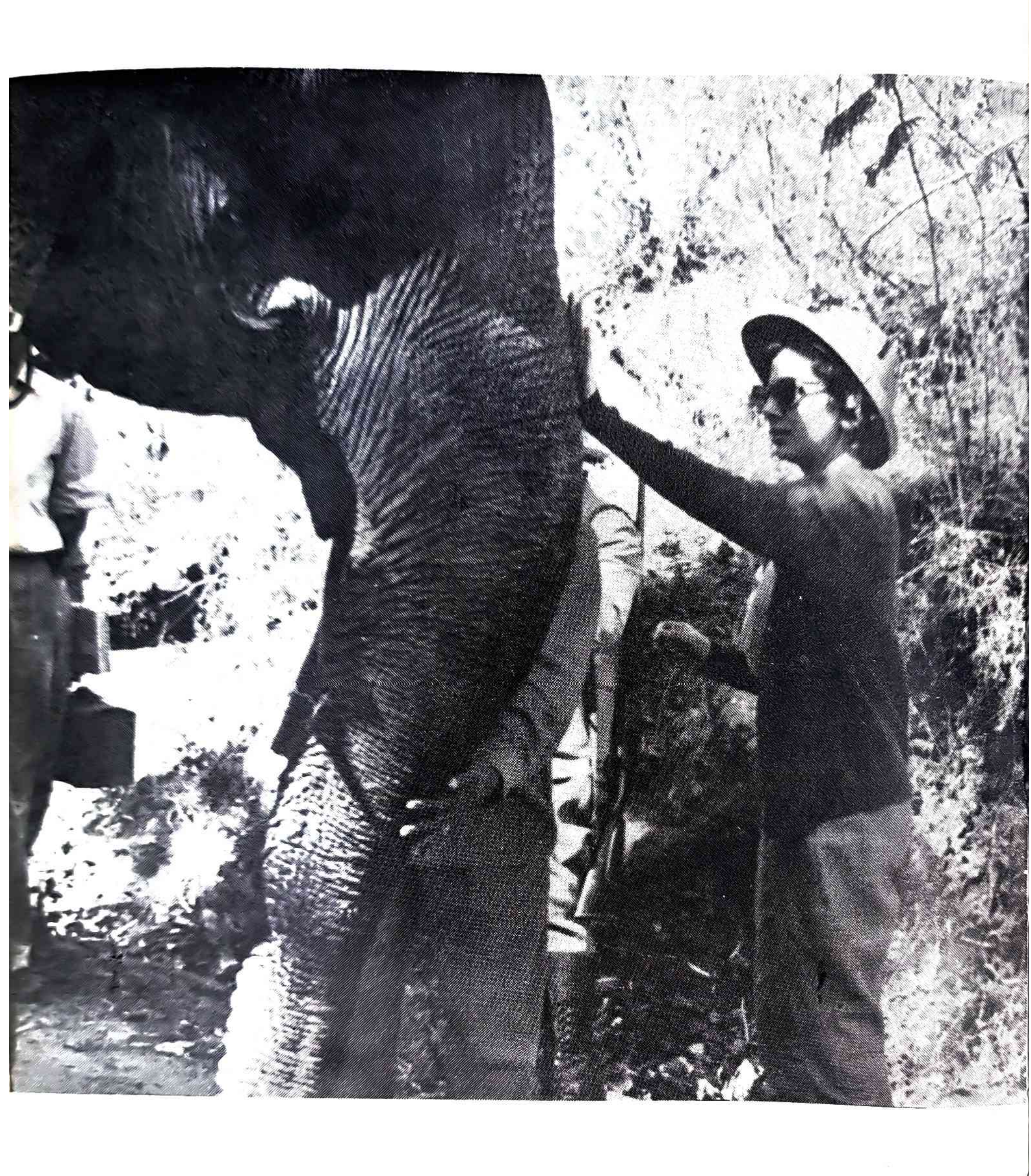
ثريا تداعب فيلا في الهند





ثريا في ثياب الصيد وامامها النمر السيء الحظ







ثريا تمارس هوايتها المفضلة

في هذه المذكرات

كان ذلك بعد زمن قصير من الطلاق بين الشاه وبيني وكنت أقيم بين أهلي في مدينة كولونيا، فقد خطر لي في أحد الأيام أن أذهب لأول مرة إلى سوق المدينة، لأشتري بعض ما كنت في حاجة إليه.

ولما كنت أرتدي ملابس بسيطة، لم يعرني الناس التفاتًا خاصًا .. ولكن ما إن بلغت الشارع الرئيسي، حتى اضطربت في مشيتي، وأخذت أصدم المارّة، وأضطر إلى الاعتذار.

لقد كان بصري سليمًا، وقدماي قويتين، ثابتتين .. وكل ما في الأمر، أنني كامبراطورة، فقدت المران على السير في حشد من الناس .. ذلك لأن الامبراطورة تألف أن يفسح الناس لها الطريق، باحترام، في غدواتها، وروحاتها.

.. لقد كنت كمن سجن طويلًا، ثم أطلق، فلم يعد يدري أي سبيل يسلك، وفي أية وجهة يسير.

وكانت حالي أسوأ حين أقود سيارتي ... لأنني تعودت في طهران أن يسبق سيارتي رجال الحرس، بدراجاتهم الآلية، يقطعون السير، ليتسنى لي المرور ...

وفي شؤون المال، لم تكن يدي طليقة ... ولما كان محرّمًا عليّ، كامبراطورة، أن أحمل نقودًا، كان أحد المرافقين يسدّد ثمن ما أختار من الحاجات.

ولذلك شعرت بالضياع حين انتزعوا فجأة البساط الأحمر من تحت قدمي ... ولقد تمنيت بعد طلاقي أن آوي إلى كهف للجرذان ... لم أكن أميل إلى حضور أي اجتماع، ولم أعد أطيق أن أجد حولي سوى المخلصين المقربين ...

« ثريا »